وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

زوج أمريكي

وقصص أخرى

تأليف: جلال آل أحمد
ترجمة: غسان حمدان

غسان حمدان

(غسان سليم عبد الأمير)

- ولد في بغداد سنة ١٩٧٣.
- درس في بغداد وطهران.
- يعمل حالياً كمترجم أفلام تلفزيونية لإحدى المحطات الفضائية .
- عمل مسؤولاً للنشر في دار المدى للثقافة والنشر (٢٠٠٢-٢٠٠٣).
- عمل مترجماً ومحرراً ومراسلاً للتلفزيون الإيراني في دمشق (٢٠٠٣-٢٠٠٥).
- عمل مترجماً ومدرساً للغة الفارسية في المستشارية الثقافية الإيرانية بدمشق (٢٠٠٥-٢٠٠٨).
- قام بالتعاون مع وزارة السياحة السورية بترجمة دليل المواقع السياحية السورية إلى اللغة الفارسية.
- نشر قصصاً مترجمة من العربية إلى الفارسية في إيران وقدم دراسة عن أعمال محمد الماغوط باللغة الفارسية مع ترجمة نبذة من قصائده.
- نشر بالعربية شعراً وقصة قصيرة ودراسات عن الأدب والثقافة والفنون في صحف ودوريات عربية.
- ترجم مجموعات مختارة لشعراء إيرانيين (الشاعرة فروغ فرّخ زاد - الشاعر سُهراب سِبهري - الشاعر

زوج أمـريـكي

وقصص أخرى

الإشراف الفني والطباعي
أحمد عكيدي

زوج أمـريـكي
وقصص أخرى

ترجمها عن الفارسية
غسـان حمـدان

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠٠٩

زوج أمريكي وقصص أخرى/جلال آل أحمد؛ ترجمها عن الفارسية غسان حمدان .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩ .- ٢٧٢ ص؛ ٢٠ سم .

(قصص قصيرة؛ ٢٠)

١- ٨٩١,٥٥ آ ل ح ز ٢- العنوان ٣- آل أحمد
٤- حمدان ٥- السلسلة

مكتبة الأسد

قصص قصيرة

«٢٠»

عن جلال آل أحمد

ولد جلال آل أحمد سنة ١٩٢٣ لعائلة دينية في طهران. كانت حياته قصيرة ولكنها صاخبة. حتى في سن العشرين درس في النجف العلوم الدينية كي يصير ـ ولابد ـ مثل أبيه، وفي العودة إلى طهران بعد مدة ينتمي إلى حزب توده الشيوعي، الذي كان حزباً مؤيداً للاتحاد السوفييتي، ولكنه ينفصل بعد بضع سنوات مع عدد آخر عن الحزب ويتحول إلى عدو للفكر اليساري ولحزب توده والاتحاد السوفييتي. وفيما بعد، يتبرأ بكتابته كتابه المعروف «غرب زدكى»[1] من الليبرالية الغربية أيضاً ويعتبر طريق نجاة الشرق في العودة إلى الروحانية الشرقية، وبالنسبة للبلاد الإسلامية الرجوع إلى صدر الإسلام. ويعلن، فيما يتعلق بالمجتمع الإيراني ـ أننا ينبغي أن نعقد كل آمالنا على مدينة «قم»[2] الدينية. طبيعي أنه إذ توفي سنة ١٩٦٩ لم يساعده الحظ على أن يرى بعينيه تحقق أمانيه الكبرى. بعد الثورة الإسلامية أطلقت الجهات الرسمية في الجمهورية الإسلامية اسمه على طريق سريع في طهران.

كان أول كتبه مجموعة قصصية باسم «ديد وبازديد»[٣] أصدرها سنة ١٩٤٥. بعد سنتين أصدر مجموعة قصص «از رنجي كه مي بريم»[٤]، هي محصول المرحلة التي كان فيها الكاتب ينمّي في ذهنه أفكار إنقاذ الطبقة العاملة من ربقة الإمبريالية، ثم صدرت له مجموعتا «سه تار»[٥] و«زن زيادي»[٦].

تشمل رواياته «سر كَذشت كندوها»[٧]؛ وهي رواية تعالج بأسلوب الأمثال أوضاع إيران الاجتماعية في سنوات تأميم النفط، و«مدير مدرسة»[٨] التي هي أشهر أعماله، تروي آثار الهزيمة بعد انقلاب سنة ١٩٥٣ على مدير مدرسة، و«نون والقلم»؛ التي يتجه فيها الكاتب مرة أخرى إلى ضرب الأمثال من أجل بيان الأوضاع الاجتماعية، و«نفرين زمين»[٩]؛ التي تعالج حياة المعلمين في قرية وخلال الإصلاح الزراعي. خيرة أعماله ـ من حيث القيمة الأدبية ـ هي القصص القصيرة التي كتبها في سنوات عمره الأخيرة وجرى جمعها في مجموعة «پنج داستان»[١٠].

وكتب آل أحمد مقالة طويلة كالقصة أيضاً بأسلوب «حديث النفس»، باسم «سنكَى بر كَوري»[١١] صدرت بعد وفاته.

توفي سنة ١٩٦٩ بجلطة دماغية. يعزو بعض أنصاره وفاته إلى نظام الشاه، وكانت هذه سُنّة ابتكرها آل أحمد نفسه، فقد كان يسجل وفاة كل شخص معارض على حساب الشاه.

هوامش

(١) = الإصابة بمرض التغرب .

(٢) = مدينة على مبعدة ١٣٠ كيلومتراً تقريباً جنوبي طهران .

(٣) = الزيارة .

(٤) = عن العذاب الذي نعانيه .

(٥) = ثلاثي الأوتار ـ وهو اسم آلة موسيقية .

(٦) = امرأة زائدة أو فائضة .

(٧) = تاريخ (أو ماضي) القفائر .

(٨) = مدير المدرسة .

(٩) = لعنة الأرض .

(١٠) = خمس قصص قصيرة .

(١١) = صخرة على قبر .

جلال آل أحمد في سطور

١٩٢٣ الولادة في محلة سيد نصر الله، من محلات طهران القديمة.

١٩٤٣ السفر إلى النجف في العراق لدراسة العلوم الدينية، والعودة إلى إيران بعد بضعة أشهر، ونشره كتاب «التعزيات غير الشرعية».

١٩٤٤ الانتساب إلى حزب توده (= الجماهير)، وهو الحزب الشيوعي الإيراني.

١٩٤٥ نشْر أولى قصصه القصيرة، «الزيارة»، في مجلة «سخن = الكلام»، والتعرف بصادق هدايت، نشر مجموعة «الزيارة».

١٩٤٦ إتمام دورة التعليم العالي (كلية الآداب)، التعرف بنيما يوشيج، أبي الشعر الفارسي الحديث، صدور كتابه «تقارير عن أوضاع ثانويات إيران».

١٩٤٧ التدريس في مدارس طهران ، صدور كتابيه «عن العذاب الذي نعانيه» و«حزب توده على المفترق» ، ترجمة ونشر «محمد وآخر الزمان» لپول كازانو .

١٩٤٨ إصدار «سه تار» ، ترجمة ونشر «المقامر» لدوستويفسكي .

١٩٤٩ ترجمة ونشر «الغريب» ، لألبير كامي ، بالتعاون مع علي أصغر خبره زاده .

١٩٥٠ ترجمة ونشر «سوء تفاهم» ، لألبير كامي ، التعرف بسيمين دانشور وبدء حياتهما المشتركة .

١٩٥٢ نشر كتاب «امرأة فائضة» ، ترجمة ونشر «الأيدي القذرة» لجان پول سارتر .

١٩٥٣ الجيرة والمنادمة مع نيما يوشيج .

التوقيف والسجن .

تأسيس مؤسسة «الرواق» للنشر بالتعاون مع باقر كميلي .

١٩٥٤ إصدار كتابه «أورازان» ، ترجمة ونشر كتاب «العودة من الاتحاد السوفييتي» لاندريه جيد .

١٩٥٥ إصدار كتابه «مقيمو التات في بلوك زهراء» ، ترجمة وإصدار كتاب «الموائد الأرضية» لاندريه جيد بالتعاون مع «پرويز داريوش» ، وإصدار كتاب «سبع مقالات» .

١٩٥٧ السفر إلى أوروبا مع زوجته سيمين دانشور .

١٩٥٨ إصدار كتاب «مدير المدرسة» وكتاب «تاريخ القفائر» .

١٩٦١ إصدار كتابه «نون والقلم» .

١٩٦٢ نشر كتبه «ثلاث مقالات أخرى »، «صحيفة أعمال السنوات الثلاث» ، و«مرض الإصابة بالتغرب» .

١٩٦٤ الحج إلى مكة، السفر إلى الاتحاد السوفييتي بناء على دعوة من المؤتمر الدولي السابع للأنثربولوجيا .

١٩٦٥ السفر إلى الولايات المتحدة بناء على دعوة من الملتقى الدولي الأدبي والسياسي لجامعة هارفرد .

١٩٦٦ ترجمة ونشر كتاب «الكركدن» لأوجين يونسكو ، صدور كتاب «سفرة الحج ـ قشة في الميقات» .

١٩٦٧ صدور كتاب «لعنة الأرض» ، ترجمة وصدور كتاب «عبور الخط» ، تأليف أرنست يونكَر .

السفر إلى تبريز وإلقاء محاضرة في جامعة تبريز ، واللقاء مع أحمد بهرنكَي وبهروز دهقاني .

١٩٦٨ تأسيس «مركز الكتّاب في إيران» . السفر إلى مشهد واللقاء بالدكتور علي شريعتي، مصادرة كتاب «صحيفة أعمال السنوات الثلاث» .

وكانت وفاة جلال آل أحمد غير المتوقعة في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم السابع عشر من شهريور سنة ١٣٤٨ (١٩٦٩/٩/٨) في أسالم / كيلان ، شمالي إيران .

أعمال جلال آل أحمد

في القصة والراوية

الزيارة	١٩٤٥
عن العذاب الذي نعانيه	١٩٤٧
ثلاثي الأوتار	١٩٤٨
إمرأة فائضة	١٩٥٢
مدير المدرسة	١٩٥٨
نون والقلم	١٩٦١
لعنة الأرض	١٩٦٧
خمس قصص	١٩٧١

المشاهدات

أورازان ١٩٥٤

ساكنو التات في بلوك زهرا ١٩٥٨

درة الخليج اليتيمة - جزيرة خارك ١٩٦٠

الأسفار

قشة في الميقات ١٩٦٦

المقالات

سبع مقالات ١٩٥٤

ثلاث مقالات أخرى ١٩٦٢

تقويم مستعجل ١٩٦٤

مرض الإصابة بالتغرب ١٩٦٢

صحيفة أعمال ثلاث سنوات ١٩٦٢

الترجمات

المقامر، لدوستويفسكي ١٩٤٨

الغريب، لألبير كامو (مع: خبره زاده) ١٩٤٩

سوء تفاهم، لألبير كامو	١٩٥٠
الأيدي القذرة، لسارتر	١٩٥٢
العودة من الاتحاد السوفيتي، لأندريه جيد	١٩٥٤
الموائد الأرضية، لأندريه جيد (مع: برويز داريوش)	١٩٥٥
الكركدن، لأوجين يونسكو	١٩٦٦
العبور من خط يونكر (مع: الدكتور هومن)	١٩٦٧
الأربعون ببغاء (مع: سيمين دانشور)	١٩٧٢
العطش والجوع، ليونسكو (مع: هزار خاني)	١٩٧٢

الزهرية الخزفية

امتلأت الحافلة وانطلقت. كان آخر من ركب يحمل زهرية خزف عتيقة وثمينة، ومن باب الاحتياط ذهب ـ وهو يحاول أن يحفظ توازنه ـ نحو آخر الحافلة.

تغيرت أماكن الناس في آخر الحافلة فأفسحوا المجال بصعوبة لهذا الشخص الخامس.

كان رجلاً تجاوز الأربعين، يرتدي معطفاً وجيهاً وكانت قبعته جديدة ونظيفة، ويده هذه الممسكة بالزهرية الخزف كانت مكسوة بقفاز جلدي جديد. وفي مقعد الحافلة الأخير، كان الأشخاص الأربعة الآخرون امرأتين ذواتي شادر[1] تهذران وتقهقهان معاً، والإثنان الآخران رجل عجوز منطو على نفسه ومتأمل، والآخر رجل متوأسط السن غير مقيد ولا أبالي ومنفتح. لا ياقة له ولا ربطة عنق. بقي كمّا قميصه، اللذان انقطع زراهما، ناتئين من كم

معطفه الأنيق البهي . نفر شعره من تحت قبعته المندثرة . وكانت لحيته القصيرة الشمطاء تغطي كل وجهه إلى ما تحت عينيه .

منذ أن جلس الرُجَيْل جديد الملابس حامل الزهرية إلى جانبه ، لفت كل انتباهه وحواسه ولم تعد عينه وراء شيء غير تلك الزهرية .

كان صاحب الزهرية يجلس هادئاً . وضع الزهرية على ركبته ، وأمسك ساقها بيده . وكانت يده الأخرى غير المكسوة بالقفاز تتلاعب ببضع مسكوكات صغيرة القيمة .

وكان الآخر المنشغل دوماً بالزهرية ، يبدو قلقاً . يرفع رأسه ، يخفضه ، يميل ، ويريد ـ بأية طريقة كانت ـ أن يرى هذه الزهرية الجميلة الظريفة أكثر وأفضل . كما لو أن هذه أول مرة في عمره كله يواجه فيها الجمال أو ، لا ، كأنما هي المرة الأولى التي يدرك فيها الجمال!

كان خزفاً ظريفاً . ولقد رسم على قبضتيه الرفيعتين بجودة جعلت القبضتين تتلاشيان في الأرضية المرسومة لبدن الزهرية ولا يتضح بسهولة كونهما بارزتين . كانت الزهرية من الرقة والظرافة بحيث تسمح للنور الداخل من زجاج الحافلة والمنعكس عليها أن يعبر جدارها وتسمح لظلال رسومها المهتزة المتحركة بأن تنعكس على القفاز الجلد لصاحبها .

نظر الرجيل صاحب المعطف كل تفاصيل الزهرية على الجانب المتجه نحوه . ولكنه كان لا يزال غير راض . عند رأس كل منعطف

تلفه الحافلة ويدلق كل الركاب، على بعضهم، إلى الجهة الأخرى، كان ـ إن تيسر له ـ يستغل المناسبة فينحني أكثر قليلاً على صاحب الزهرية لكي يتمكن أن يرى شيئاً من خلف الزهرية أيضا.

سعى كثيراً، إلاّ أنه لم يكن قد رضي بعد. وأخيراً، بعد أن هيأ نفسه مرتين أو ثلاثاً وتنحنح ـ فيما انتبه صاحب الزهرية إلى اضطرابه ـ قال:

ـ اسمح لي يا سيدا أيمكن للعبد لله أن يري زهريتكم؟

ـ بالطبع! تفضل، تجعلني ممتناً تماماً. غير جدير بعنائكم يا عزيزي!

وأعطى الزهرية بيدين وببعض الحذر للرجيل اللا أبالي المنفتح، وأضاف:

ـ ولكن أرجوك . . .

ولكن ذلك لم يمهله. قطع كلامه قائلاً:

ـ على عيني! اطمئن. بحذر بالغ.

وبدأ يروز الزهرية، من أمام ومن وراء، من تحت ومن فوق، نظر حتى إلى داخلها بدقة. في تمام هذا الوقت كله كانت عينا صاحب الزهرية وراء يديه. مع أنه كان يسعى إلى أن يبدو بمظهر

غير المهتم؛ إلا أنه ـ إذ خاط رأسه نحو الأمام وراح يحاول أن يقرأ (وإن يكاد) المحفورة على قطعة برونزية ثبتت أمام السائق في أعلى الحافلة ـ كان يراقب الزهرية وحركات يدي ذلك الرجل.

ولكن هذا الآخر، فحص كل أنحاء الزهرية، وضعها أمام الزجاجة. وضع يده عليها و تفحص النور زهري اللون المحيط بأصابعه، الذي كان يعبر الخزف؛ وظل يده، الذي يجعل داخل الزهرية أدكن قليلاً، وصار يقلل هذه الظلال ويزيدها بتقديم الزهرية إلى زجاجة الحافلة وتأخيرها عنها.

. . . وعند رأس استدارة أخرى حيث استدارت الحافلة، كان الناس غير منتبهين إذ انهمروا على بعضهم فجأة، مال هو أيضاً. مال كثيراً، ولأنه لم يكن له ما يمسكه أو ما يتكئ عليه كي يحفظ تعادله، رفع يده بلا إرادة عن ساق الزهرية. . فسقطت الزهرية و صارت ثلاث قطع مع صوت خفيف!

لم تكن الحافلة قد دارت استدارة الشارع بعد عندما ارتفع توجع صاحب الزهرية:

ـ آخ . .

ولم يقل شيئاً بعد، وإنما راح ينظر قطع الزهرية بذهول تام.

انثنى الرجل اللا أبالي وقال وهو يجمع قطع الزهرية:

ـ لا شيء. لم يقع مكروه!

انفجر الرجيل صاحب الزهرية ـ الذي صحا حديثاً ـ فجأة كالرمانة وصرخ محتقن اللون:

ـ ماذا كنت تريد أن يقع بعد؟!

ـ لا شيء يا سيد! حسناً، لم يقع شيء مهم! الزهرية انكسرت، فدى لرأسك. طيب. كان قضاء وقدرا!

ـ أهه! الرجيل السخيف يجرؤ على الكلام أيضاً!

ـ أيها السيد العزيز حافظ على احترامك. لماذا تتهجم؟

ـ أنت الذي تسمع التهجم، يا رجيل! لو لم ترها لعميت عيناك المغموصتان؟..

انتبه الناس حديثاً. اتخذت إحدى المرأتين الجالستين جنبهما ظاهراً متعاطفاً وقالت:

ـ آخ! كم كانت زهرية جميلة! حيفاً. ولكن السيد يقول حقاً، إنه قضاء و...

فقطع صاحب الزهرية كلامها على هذا النحو:

ـ ما تقولين يا سيدة؟ كنت قد اشتريتها بخمسة وسبعين توماناً!

وأضاف الرجل اللا أبالي:

ـ طيب، ما الذي يمكن فعله؟ تعطيها فيخيطونها[٢] لك و . . . .

ورفعت المرأة الأخرى صوتها من تحت شادر صلاتها بالقول:

ـ طيب يا أخ، وهل صارت يداك معقوفتين؟

فأجابها الرجيل اللا أبالي، وهو منشغل مع صاحب الزهرية، من دون أن يدير رأسه نحوها، على هذا النحو:

ـ يا سيدة، لم يقل لك أحد أن تصيري حمص كل حساء[٣].

ـ واه، واه! أبعد الله! حقاً لا يزال يجرؤ على الكلام! يريد أن يأكل الناس!

استقام صاحب الزهرية في جلسته حديثاً. خلع القفاز عن يده وراح يصرخ وهو يمسك قطع الزهرية في يده:

ـ أردنا القيام بعمل إنساني. نحن شعب غير جدير بأي شيء. والآن إذ كسرها يقول كان قضاء وقدراً. الرجيل يظنني تاركه حتى آخذ منك فلسها الأخير. وهل المال ينمو كالعلف؟ أشتري أنا زهرية كي تكسرها وتقول اعطها فيخيطونها؟ أيها الرجيل الأشل، ما أنت

والعتيقات؟ إنك لا تليق حتى بأن تنظر إليها. تقصيري أنا الأحمق الذي أظهرت الإنسانية لأي أحمق فظ . .

وفيما كانت الحافلة تصل موقفاً أضاف:

ـ توقف يا سيد. مركز الشرطة قريب. لأحدد وضعي مع هذا الرجيل . . .

وفيما كان ينهض قال للسائق:

ـ يا سيد لا تدعه يترجل حتى أجلب شرطياً وآخذ شهادة كل أهل الحافلة . .

ولم يكد يصل باب الحافلة حتى عاد. توقف وسط الحافلة وكرر – وهو يواجه الركاب – رجاءه ومضى كي يترجلٍ. ولكنه أخذ مرة أخرى قولاً من السائق ألا ينطلق. قطع السائق له قولاً فترجل.

كان الركاب يتداولون الحديث حول هذه الواقعة. وكان واحد أو إثنان فقط يكتفيان بالنظر والضحك. كانت تانك المرأتان لا تزالان تتضاحكان ولكن أحداً لم يكن يباليهما. كان الرجيل اللا أبالي يكلم نفسه:

ـ طيب، ما الذي يمكن فعله؟ أنا لم أتقصد ذلك. طيب . . وقعت وانكسرت . .

كان صبي السائق يصرخ في طلب الركاب. كان صاحب الزهرية قد ابتعد عشرين قدماً عن الحافلة. تحرك السائق، الذي كان قد بقي يتأمل بدون حركة بضع دقائق. أقام نفسه على الكرسي، وراء المقود، ونادى على صبيه وضغط على مدوس الوقود وانطلق.

بقيت أفواه كل الركاب فاغرة. وقال صبي السائق، جواباً على كل هذه الاعتراضات، فيما هو يجلس على مقعده:

ـ طيب، وما شأننا؟ كسر أحدهم زهرية ويجب أن نبقى بلا عمل؟

انتبه صاحب الزهرية الذي كان يركض مستعجلاً نحو مركز الشرطة. استدار وفتح يديه كي يوقف الحافلة، ولكنها انحرفت انحرافاً بسيطاً ومضت فارتفع صراخه:

ـ آهاي أمسكوه.. أمسكوه.. زهرية.. أيها السائق التعس.. آهاي أيها الشرطي..

ضحك الركاب لرؤية منظره. تجمع الشرطة حوله يسألون ماذا جرى، ولكنه كان يصرخ:

ـ آهاي أمسكوه.. خمسة وسبعون توماناً... الرجيل الأشل.. زهرية خزف.. آهاي راح.. لكن، ما كان رقم السيارة؟.. آي يا شرطي..!

هوامش

(١) = عباءة المرأة الإيرانية التقليدية

(٢) = يشعبونها .

(٣) = متدخلة في شؤون ـ أو حديث ـ الآخرين ، فضولية .

إفطار في غير وقته

كان السيد مغطّى ببطانية نصف عمر حتى منتصف جسده والمروحة بيده ، وكان ممداً على السطح في فراشه .

كان الهواء الحار الذي يمر من فوق سطوح أدنى المدينة التبن - طينية الملوحة بالشمس ، ويجلب معه صخب شوارع المدينة المزدحمة أو البوق الطويل لحافلة ما أو الصوت الباعث على النوم والبعيد لموسيقى تنبعث من مذياع بيت الأعيان ، يصطدم بقميصه المبتل المتعرق ولكنه لا يكفي لحرارة أول المساء قط ، ولا يبرده هو الذي رفع القميص عن بطنه ، وراح يروح عن نفسه بمروحة مرقعة .

كان الغبار والتراب ، الذي يغطي سماء طهران عادة وقت الغروب ، لا يزال يتماوج فوق تلك الحارة الغارقة بالتراب ، ويتراءى نور مصباح الزقاق الضعيف وعموده بكل أسلاكه من خلاله باهتاً غامضاً . لو تم رفع هوائيات التلفاز مشوهة الأشكال وأعمدة

الناموسيات المعدودة القائمة على الأسطح المحيطة، فإن كل مكان كان مغطى بالتبن ـ طين، وعلى مدى ما تبصره العين كان يبدو، في ضوء القمر الضعيف، الأسطحُ ترابيةُ اللون والستارات الخفيضة والمرتفعة وفي بعض الأحيان فتحة تهوية مرتفعة سيئة الشكل تسلم هواء السراديب الرطبة الخانق إلى سماء الحارة المنقبض.

كانت جدران السقوف الخفيضة، أو ارتفاعها وانخفاضها، تسمح لكل ناظر أن يرى ما يجري في الأنحاء إلى هذا الحد أو ذاك. في شعاع مصباح الزقاق الضعيف وتحت ضوء القمر الباهت الكدر لاوائل الشهر كانت تجهيزات الجيران المنصوبة حديثاً فوق السطوح ظاهرة:

حصيرة أو ستارة ممزقة تحت الأفرشة، وفوقها حشايا قصيرة رقيقة مع لحف ممزقة تترك قطنها النابق مكشوفاً في عدد من المواقع..

كانت الأسطح ما تزال خالية، وقد فرش الجميع أماكنهم منذ المغرب، كي يبتعد عنهم حرّ شمس النهار ويستطيعوا أن يودعوا برؤوسهم المتعبة واجسادهم المطحونة، في حماها ساعة ويستريحوا لحظة.

لم يكن ضجيج أعلى المدينة قد خفت ولا أبواق السيارات المنكرة قد سكتت. وكان صوت ممدود لبائعي صحف يوصل ـ عالياً وواضحاً ـ خلاصة أخبار اليوم من بين كل هذه الضجة، من أماكن بعيدة إلى أسماع أهل جنوبي المدينة[1] ـ الناس الذين لا كانوا يعرفون القراءة ولا يستطيعون ـ حتى إن عرفوا ـ أن يشتروا جريدة.

كان الشحاذون يلزمون الصمت شيئاً فشيئاً: أولئك الذين كانوا قد نشروا بسطهم منذ الصباح حتى الآن في زاوية ما، بألف شكل، وراحوا يعرضون بضاعة سوء حظوظهم ومذلتهم - بأشد الطرق تأثيراً - على المارة، يستفيدون من ظلمة الزقاق ويتراجعون من المعركة، واحداً واحداً، في هروب ناجح، ويغورون في تلافيف الأزقة الفرعية ويأخذون معهم أيضاً آهاتهم وأنينهم المحرق عديم الفائدة وأدعيتهم ومدائحهم المجانية.

كانت الليلة السابقة من الشهر المبارك. ولقد أكل السيد رضا على الإفطار ما قدر على أكله من البطيخ الأحمر وشرب ما استطاع من الماء المثلج، وجاء إلى السطح قبل الجميع فتمدد تحت ضوء القمر الضعيف وراح يروّح عن بطنه المنفوخ.

كان يفكر: كيف سيتمكن أن يصوم هذا الشهر المبارك بلا نقصان؟ الآن تنقضي الستة الأيام الأولى من الشهر وهو الذي ذهب - من باب الاحتياط[٢] - لاستقبال الصيام قبل يوم، له سبعة أيام وهو صائم، هاهو يفقد وعيه.

لم يكن للجوع أية أهمية عنده، ولكن العطش. . الأمان! الأمان! هو الذي كان دلالاً جزئياً لا أكثر، والذي كان يتعين عليه أن يلف من الصباح حتى الغروب في نهارات هذه الأيام الطويلة، كيف يمكنه أن يُسكت عطشه؟

لم يكن من دلالي رأس السوق الكبار، الذين يلفون حملهم العريق لكي يستطيعوا أن يزحفوا، من الساعة العاشرة صباحاً حتى الثالثة بعد الظهر، إلى زاوية باردة تحت أعمدة المسجد الجامع، ويقيموا الصلاة، ويتلوا الدعاء هناك، ثم يغوصون دفعة واحدة إلى أقبية منازلهم الباردة ولا يخرجون إلا مع أول الإفطار؛ كما أنه لم يكن تاجراً صاحب حجرة معتبرة يمر قريب الظهر بسيارته على حجرته ثم يعود إلى شميران[٤] فيتمدد في زاوية بستانه البارد تحت أشجار الجوز الكبيرة وفوق الأثاث الصيفي اللين إلى جانب زوجته الأثيرة التي عقد عليها تواً؛ ولا واحداً من عديمي الدين هؤلاء الذين لا يعرفون الله فكانوا يتهربون من صيام الشهر المبارك لأية ذريعة كانت.

كان السيد رضا دلالاً عديم المال عارفاً بالله لم يرض قط أن يلملم بساطه في بضع سنوات الاضطراب هذه. وهو لا يزال محتاجاً، من أجل الخبز والماء اليوميين لنفسه وعياله وأولاده، إلى كل هذا السعي والجري.

كان حتى الآن قد زوّج ابنة وقد صيّر ابنُه الرابع ـ الذي بلغ شهره الخامس مؤخراً، بفعل انعدام الحليب وحرارة الجو ـ النهارَ الصحو أمام ناظريه وناظري عياله إلى ليل معتم. خاصة في بضعة أيام الصوم من الشهر المبارك هذه، حين لم تكن زوجته مستعدة لخرق صيامها، كان ينعق حتى انتفخت خصيته من كل صراخه الذي صرخه فألقى شغلاً آخر على أيدي أبيه وأمه.

لو أن السيد رضا استطاع أن يتم في اليوم عمل أربعة أحمال سكر أو حملي كركم لكان سيرضى، وما كان ليكد أكثر من ذلك. ولكان يعتقد أنه لو سعى أكثر من ذلك فلن يكون عائده غير تمزيق كَيوته[٥]. كأنه كان يعرف أن رزقه كان مسجلاً منذ يوم الأزل أقل مَن هذا بكثير! وفي كل يوم كان يقع في شباكه أكثر من هذا الشغل ويتمكن خلال الشهر أن يرفع واحداً أو إثنين فإنه لم يكن ليميز رأسه من رجليه[٦]، ولم يكن يستطيع أصلاً أن يصدق، وكان يجزم أنه صار عبئاً على رزق الآخرين، ولكي لا يخنق مالُ الناس حلقومَه: إذا كان الوقت شتاء كان يعرج على قم[٧] فيقوم بالزيارة[٨] عدة أيام، ولو كان في أيام الصيف كهذه الأيام، كان يمسك بيد زوجته وطفله، ويلقي بمرساته ـ أملاً في زيارة الولي داود ـ بضعة أيام في «فرح زاد» و« إيڤين »[٩].

حتى إنه لم يخطر بباله في أي وقت أن يتمنى زيارة كربلاء أو حج مكة، وحتى عندما كان يرى، في المسجد أو في أماكن أخرى، بأي تأوه وتوسل يدعو الآخرون الله أن يحقق أمنياتهم، كان يكتفي بأن يغوص في التفكير. لو كان يتلو ذكراً أو يقرأ شيئاً فقد كان يتركه جانباً ويسمّر عينه على «تربة»[١٠] صلاته ويبقى ذاهلاً. لم يستطع أن يفهم في أي وقت من هذه الأوقات ما الأفكار التي تدور في ذهنه. ولكنه كان موقناً أنه لم تكن له قط هذه الأماني العراض، كما أنه لم يدْع لها أيضاً أدنى دعاء.

بالقليل من معرفة القراءة والكتابة اللتين يمتلكها كان عنده كان يستطيع ، أحياناً ، إذ يأتي ابنه الأكبر بجريدة إلى البيت ، أن يقرأ اسم الجريدة وعناوين موضوعاتها ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفهم ، فكان يأمر ابنه بأن يشرح له .

كان فؤاده يتألم من شيء واحد وهو: لماذا لم يكن ابنه ، الذي حصل على شهادة صفه السادس العام الماضي ، يستطيع أن يقرأ القرآن و- وهذا أسوأ من كل شيء - أنه كلما شكى لمدرسته سمع بكل وقاحة جواباً من هذا النوع:

« . . إيه يا سيد! ما هذا الإصرار؟! ما الذي سينفعه ذلك غداً؟ مَن من الآخرين يفكر بهذا الكلام الآن؟ . . » ولكنه هو ، الذي لم يقنع بهذا الجواب المبهم ، كان يلعن هذا الجهاز الكافر دوماً . ولما لم تكن بيده حيلة فقد كان يخلي همه على رأس امرأته ويترقب سقطاتها .

في النهارات عندما كان يمر بشوارع طهران لم يكن يتوفر له الوقت قط كي يفكر لماذا صار الناس ، من سنوات خلت ، عديمي الدين . ولكنه لم يستطع قط أن يرى نكرة عديم الدين يأكل شيئاً ويدخن سيجارة بين السوق والأزقة ثم يتحمله .

في الزقاق - في الوقت الذي كان يتلو الأذكار فيه - كان يفكر: العياذ بالله! قلائل هم الذين يمكن رؤيتهم هذه السنة خارج

صف عديمي الدين هؤلاء! ربما كان الجميع يدخنون السجائر أصلاً في الزقاق عداءاً لهذا الشهر العزيز أو لكي يغيظوه هو.

لم يكن يستطيع أن يصدق أن كل هذا الكفر ازداد وكل هؤلاء الناس صاروا على هذا القدر من الجرأة وعدم الخجل والخوف من الله وعباد الله بحيث يتظاهرون هكذا في المعابر العامة. لقد تماسك بالأيدي عدة مرات حتى الآن مع هؤلاء المنحطين ونثر عليهم، بلسان الصائم، عدة شتائم مقذعة بالغة الفحش وكلفه ذلك مرة خمسة تومانات وهزاران[11]. ولو لم يكن رئيس مخفر الشرطة، رحم الله أباه، امرءاً مسلماً وكان من هؤلاء الناس غير المبالين لكلفه ذلك أكثر من هذا بكثير وحمله على مزيد من الجري هنا وهناك. ولربما طالبوه بالغرامة أو حتى ألقوا به في السجن بضعة أيام.

لم يذكر عن تلك القضية ـ التي وقعت له في اليوم الثاني من هذا الشهر ـ شيئاً لزوجته، ولم يعلم أي شخص آخر أيضاً كيف صفع ذلك الشحاذ المسكين الذي كان يجلس في زاوية الزقاق يدخن الچپق[12] بحيث سال الدم من أنفه!

ولابد أن شحاذ ذلك اليوم كان قد تعلم درس كسبه جيداً. لأنه كان ذلك اليوم قد أحدث ضجة بالغة وتظاهر بالمسكنة إلى حد أن الناس تجمعوا وصاروا يقولون له: «يا سيد، ربما كان مريضاً، الله لا يرضى بذلك»، وهو الذي نفرت عروق عنقه وصار وجهه

كالحساء حمرة كان يقول: «لينكسر عنقه. فليذهب يتسمم بأي سمّ يشاء في زاوية خربته. هكذا يعني إعلان حرب على الله »، ثم ظهر شرطي فاقتادهما إلى مركز الشرطة. وشكراً لله أن ذلك لم يكلفه كثيراً، ولكن مع هذا كله، فإن أردتم الحق، كان في قرارة فؤاده راضياً لأنه نهى عن المنكر..

لم يكن النوم يواتي السيد ميرزا رضا من شدة تعبه. كان لا يزال يروح عن نفسه ولا يدري كيف يسهر ليالي القدر المباركة بهذا الوضع، وبكل هذا الماء والبطيخ اللذين يجب أن يتناولهما عند كل إفطار، وانتفاخ البطن هذا؟

في هذه الليالي الست كان يكاد لا يستطيع إيصال نفسه إلى السطح. إن الذهاب إلى المسجد، كل هذا الطريق، الصلاة قضاءً في النهارات، البقاء صاحياً حتى الصباح، ختم أدعية «كميل» و«السمات» و«الجوشن الكبير» ثلاث مرات في الأقل كل ليلة، وأخيراً افتتاح القرآن وصياح «يا الله» و«الغوث» وغير ذلك، وغيره.. لقد علق حقاً بطريق غير نافذ!

لا يجوز الإفطار. وإذا ما صام فإن هذا البساط سيتكرر كل ليلة. وهو الذي يتعين عليه أن يتمدد كالجنازة بعد الإفطار كيف يستطيع أن يصرف النظر عن هذه الليالي العزيزة..؟

كان يفكر: سنة واحدة مقابل هذه البضع الليالي، كل الأعمال

ستقع في هذه البضع الليالي. سينتقل كل العفو والرحمات ـ تقسيم الأرزاق، تعيين المصائر ـ في هذه الليالي العزيزة من جبين التقدير إلى اللوح المحفوظ. وإن لم يستطع أن يستفيد من الفرصة ويعوض في هذه الليالي العزيزة عما فات، فلربما سقط ميتاً ولم يبلغ رمضان السنة القادمة! وعندئذ فما سيفعل للخلاص من هذه الورطة؟

فكر السيد ميرزا رضا كثيراً حتى غلبه النوم.

* * *

كانت الساعة الثانية بعد الظهر. كانت دكاكين الشوارع مغلقة جميعاً وأصحابها يتغدون سراً وراء أبواب محلاتهم المغلقة أو، إن كانوا مؤمنين، قد ذهبوا إلى المسجد لسماع موعظة.

كان البازار قد توقفت الضجة فيه. والناس ـ الذين إن لم يكن عندهم شغل أيضاً كانوا يلجأون من شمس الشوارع الساخنة إلى ظلال الأطواق المقببة للبازار ـ يرتخون، وأصحاب الحوانيت يكشّون الذباب[١٣] وقد تركوا صبيانهم أحراراً كي يتحدثوا عن الإنعامات التي حصلوا عليها حتى الآن أو عن البضاعة التي باعوها أو اشتروها خفية عن معلميهم، ويتشاوروا بهذا الشأن فيما بينهم.

دخل السيد ميرزا رضا، الذي لم يستطع صباح ذلك اليوم بعد كل جريه أن ينجز عملاً، وحملي الكركم اللذين كان أخذ بهما

وعداً لأحد العطارين ولكن شخصاً غيره خطفهما من قبضته بأرخص من السعر الذي عرضه هو، كئيباً ذاهباً، من باب المسجد الجامع.

لم يفهم كيف يقيم صلاة الجماعة. لم يقرأ جزء القرآن الذي كان يجب أن يقرأه كل يوم، بل إنه حتى لم ينتظر الواعظ ـ الذي تأخر قليلاً. كان قد لمّ سجادة صلاته وأخذ كيوتيه من عند عمود الجامع ووضعهما تحت إبطه، وتناول سبحته بيده كي يتلو ذكر ما بعد الصلاة في الطريق و. . خرج من باب المسجد.

لم يكن يدري كم كان قد مشى صباحاً، ولكن مهما كان فإن لسانه قد صار يابساً كالكبريت وكان دماغه يكاد ينفجر من شدة العطش. مهما تذكر صحراء كربلاء وعطش أولاد الزهراء، لم يزل عطشه. ومهما أهرق من ماء من حوض المسجد بكأس جيبه البرونزية على رأسه لم ينفعه. كان يكاد يجن!

خرج من باب المسجد. ولكن أين يذهب؟ لم يكن هو نفسه يدري، خلّف السوق وراءه بأطول مما كان يقطعه فيه كل يوم، ووجد نفسه وسط الشارع، تحت شمس ما بعد الظهر الحارقة. كان يسير بلا إرادة، ولكن إلى أين؟ ربما كان يدري في قعر ذهنه أين يذهب ولكنه لم يكن يريد لهذه المعرفة الذهنية أن تتجلى وتنكشف في مخيلته ذاتها وكان يسعى أن يتجاهلها.

أخرج طاقيته الليلية من جيبه واعتمرها. وضع سبحته ـ التي

كان قد نسي حتى الآن أن يديرها في يده ويتلو الذكر ـ في جيبه. وعجّل خطاه. صعد حافلة الخط رقم إثنين وأوصل نفسه مستقيماً إلى بوابة قزوين[١٤].

قليلاً ما يتذكر أنه ركب سيارة أو حافلة. ولكن مهما يكن من أمر فهو ابن طهران ويعرف كل نقطة ومنعطف فيها، وعلاوة على ذلك فقد كان العطش يجننه.

كانت سيارة كرج قد امتلأت وعلى وشك أن تنطلق عندما ألصق السيد ميرزا رضا نفسه بها وصعد إليها. حشر نفسَه في آخر السيارة، في الزاوية اليمنى، بين الآخرين. كانت السيارة تمضي على عجل. لم تتوقف في أي مكان بسبب ثقب إطار ولا من أجل صب الماء، ولكن أحداً لم يفهم كيف قضى السيد ميرزا رضا ذلك الوقت. صبي السائق وحده، الذي كان يجمع الأجرة، رأى عندما وصل إليه أنه نائم، فلم يطاوعه قلبه أن يوقظه وتركه كي يأخذ منه الأجرة عند النزول. حتى هو نفسه، عندما أبدى غِرّة وروى بعد الإفطار لزوجته وقائع ذلك اليوم، ووقع شجار بعد النوم بشأن ذلك الموضوع في البيت، لم يفهم مهما فكر كيف أوصل نفسه في زاوية السيارة تلك إلى كرج: أغلبه النوم أم أنه أغمي عليه؟

صارت السيارة في كرج بعد ساعة من الحركة. ترجل الجميع وانصرفوا إلى أعمالهم. أوصل السيد ميرزا رضا ـ الذي لم يكن يعرف

حتى الآن مكاناً في هذه البلاد غير شاه عبد العظيم وشميران ـ سائلاً من هذا وذاك، إلى مقهى. فتح بابه المغطى، بهدوء، ودخل.

بعد ساعة أو اثنتين، عندما جاء دور السيارة ذاتها، التي سبق أن جاءت به، صعد إليها وأوصل نفسه إلى طهران من أجل الإفطار.

* * *

في بداية الإفطار لم يأكل بطيخاً ولا أبدى ميلاً للماء المثلج. وضع بضع لقم خبز مع كباب شامي في فمه، وشرب قدحي شاي فوقها. وكأن زوجته ـ التي هي أشطر من ذلك بكثير ـ قد شمّت من الأمور شيئاً. وقام هو ـ الذي لم يكن طويل البال ـ بشرح كل شيء.

ضحك ابنه عميقاً، ولكن بتوبيخ واحد من أمه لزم الصمت وانسل إلى زاوية. لم يكن الموضوع جديراً كثيراً بالبحث. ولكن زوجته التي لا يُعلم إن كانت حانقة بسبب الدعوى التي وقعت لها مع إحداهن في المسجد بسبب سجادة الصلاة أو أنها عانت ذلك اليوم كثيراً من الجوع، ما كانت لتترك الأمر. لقد خلعت عقب فمها وراحت تنثر الفحش كالحصى:

«به! رُجيل حمار ـ أفلست أنا آدمية حتى أتحمل مع طفل رضيع وأحرص على بطني الذي تمزقه السكاكين؟ أفلم تخجل أنفقت أربعة تومانات فذهبت إلى كرج تشرب شاياً وتخرق صيامك؟ وفوق ذلك

ـ بعد الظهر؟ لماذا بعد ذلك تمن على الله؟ مادمت لست بالرجل القادر على الصوم ، وهل أجبرك أحد على ذلك؟ كان يمكنك أن تنفق هذه الأربعة التومانات لتأخذ چارك[١٥] عنب يتسمم به أطفالك على الإفطار!» .

كان السيد ميرزا رضا ـ الذي لم يكن يريد قط أن تقوم ضجة ، وكان يخشى أن يأتي الجيران إلى حافة السطح ـ يريد أن يسكتها بصوت منقبض وهادئ: «يا وليّة! يكفي . الله لا يرضى . سيأتي الناس إلى السطوح . ماذا تقولين يا شبه امرأة؟ إنني أعرف شؤوني خيراً منك . سألتُ السيد[١٦] عن المسألة فقال إنه لا إشكال[١٧] فيها . فلماذا تلحين هكذا؟ . . » .

عندما سمعت امرأته أنه سأل في الموضوع من السيد أيضاً . . استولى عليها الضحك بلا إرادة . نسيت عصبيتها وقالت بلهجة مستهزئة والضحك لا يزايلها:

«به! ليحثوا عليك التراب بسيدك ذاك! الذي لا يعرف حتى الآن مسألة الواجبات!» .

لم يكن السيد ميرزا رضا يريد أن يصدق هذه الأخيرة . أسكت نفسه بكل مشقة ، ولكي يكتم الصخب بأسرع وقت فقد رفع مروحته وصعد إلى السطح .

كان طفلهما الرضيع ينعب. وكان الهواء الساخن الذي ما زال يهب يسحب معه أحياناً في فضاء المدينة كلها الصوت المتناسق والبعيد لمقيمي عزاء لا يُعلم في أية زاوية من المدينة يقيمون يا حسين أو يا أبا الفضل، مع الضربات المتسقة للاطمي الصدور. على سطح الجيران، تحت النور الضعيف لمصباح مدخن، كان عدة قد تجمعوا وراحوا يتسمعون بشغف إلى مثنوي[١٨] أحدهم، الذي كان يقرأه برزانة وحيوية.

كان قمر الليلة الثامنة منطوياً على نفسه في زاوية السماء وقد سمر ـ بهيأة كئيبة مهمومة ـ عين الحسرة على كل هذه المناظر. وقد فقدت النجوم قدرتها وطاقتها لرؤية كل هذا الجهل والفقر، فكانت تموت فجأة وتمضي ـ في أثر خط منير قصير يأخذ أيضاً آخر رمق من حياتها ـ إلى دنيا الظلام والرعب؛ أو أن تلك التي كانت أكثر جسارة وشجاعة، كمن سمّروا عيونهم على الشمس، تنبهر من كل هذا العذاب والذل وترشق عيونها خشية أن تصاب بالعمى. و . . . لا أدري، ربما لزمهما الضحك من كل سوء الحظ هذا وهذا الجهل، فراحت تتغامز إحداها للأخرى وتهزأ منا!

هوامش

(١) حيث المحلات الشعبية ومساكن الفقراء .

(٢) تحسباً للاشتباه في تعيين أول رمضان .

(٣) المكتب التجاري لأيام زمان .

(٤) منطقة في شمالي طهران ، كانت مقتصرة على البساتين - وفيها دور استراحة - التي تجعلها مصيفاً لأثرياء طهران .

(٥) حذاء وجهه من صوف أو قطن مُحاك ، ونعله من جلد مدبوغ طبيعياً .

(٦) كناية عن الارتباك .

(٧) مدينة على بعد نحو ١٣٠ كم جنوبي طهران ، فيها مرقد أخت الإمام علي الرضا .

(٨) هي زيارة الأضرحة والمراقد.

(٩) من مناطق شمالي طهران، وهي مرتفعة باردة.

(١٠) قرص طيني مجفف، غير مفخور، يُسجد عليه تجنباً لاحتمال نجاسة المحيط.

(١١) أي أنه دفع غرامة مالية بهذا المبلغ، الذي كان جزاء كل المخالفات على أيام رضا شاه.

(١٢) الغليون التقليدي، وهو بدائي الشكل، لتدخين التبغ.

(١٣) كناية عن التبطل.

(١٤) اسم محلة، كانت سابقاً مدخل طهران للقادمين من قزوين.

(١٥) وحدة وزن قديمة تساوي ٧٥٠ غراماً.

(١٦) يلقب كل رجل دين بالسيد دون ذكر اسمه احتراماً.

(١٧) الإشكال الديني، الشرعي.

(١٨) مدائح أو تعزيات تنظم في «مثنوي»، وهو نوع من أنواع الرباعيات.

شمعة بطول إنسان

كانت شمعة بطول إنسان ، صفراء طويلة ، ربطت بحبل مزيت وأسود إلى قائم مدهن لمنبر ثلاثي الدرجات ، تحترق على نحو سيئ وتدخن أحياناً . على جوانب المنبر وأرضية درجاته ، في كل مكان ، كانت شعلات الشموع ـ الغائصة من أسفلها في الطين ـ تميل وتستقيم .

كان بابا صالح ، مؤذن المسجد العجوز ، قد لفّ عباءته الصيفية الخفيفة ، التي لم يكن بمقدورها في هذا الجو البارد أن تكون غير مصفاة جيدةً للبرد ، حول وسطه ورفع طاقية نومه عالياً ، وبينما هو يتلو الأذكار دوماً ويرفع صوته أحياناً بالصلوات ، يتسكع حول المنبر وينقّل الشموع ، أو يقصّر بسكينه فتيلة الشمعة التي بطول إنسان .

جعل المنبر في إطار باب المسجد ، ولكي لا يكون قلل احترامه للمنبر ، فقد بسط الطين على بضعة أوراق جرائد وغرز الشموع فيه .

إن بابا صالح لم يستطع ـ طول هذه السنوات التي عاشها ونصبه المنبر كل ليلةِ مقتل[1] ـ أن يكون له دخلٌ واحد من أولئك الذين كانوا يقيمون المنبر في باب مسجد الشاه.

إن مسجد الشاه شارع عمومي. ومجالس الروضة[2] المتعددة تقام هناك في محرمٍ من كل عام، وزيادة على ذلك: الناس الذين يمرون من هناك دائماً، هم زبائن جيدون لحوانيت من هذا النوع.

ولكن هنا لم يكن مسجد الشاه الذي يؤمن الناس بإيقاد الشموع فيه إيماناً خاصاً ولا يمكن، مثل هناك، إيقاد الشمع حتى قريباً من محرابه وفوق منبره الرخامي الذي يعكس الوجوه. كان مجرد مسجد على قارعة الطريق لا يُرى فيه من رأس السنة حتى ذيلها غير العناكب وشيوخ ضباع الحارة.

كان الشمع يغمز ويطيل ظلاله الباهتة والمضيئة ويقصّرها على جوانب المنبر الوسخة، وعلى قباء بابا صالح.

إن الذكرى التي لم تكن قط تترك بابا صالح مرتاحاً، لم تسمح له هذه السنة أيضاً بأن يُخرج منبره من باب المسجد ويضعه جنب رصيف الشارع. قنع بداخل إطار الباب هذا وكان يتجاهل تذمر الناس الذين يمرون من جانب المنبر منحشرين.

كان متأكداً من أن الشرطي ـ الذي مارس عدم الاحترام ذاك

في تلك الليلة العزيزة - إما قد بقي تحت الآنقاض أو أنه أصيب بالخنّاق ومات. منذ تلك الليلة حتى الآن تنقضي سبع سنوات كاملات. وكان هو قد أقام منبراً غير تلك الليلة، ست ليال أُخَر هنا بالذات، وسط إطار باب المسجد. ولكن فيما عدا ذلك لم يكن يجرؤ أن يُخرج منبره، ولم يحس الراحة قط من ذكرى تلك الليلة. في تلك الليلة، كان الرجل النكرة بعلامته العريضة وهراوته الطويلة قد جاء من الطريق بلا سبب، وبدون أن يقول شيئاً استل هراوته و، مثل منجل يحصد سيقان الحنطة، وجهها نحو أوساط الشمع فكسرها جميعاً، ساقاً ساقاً، أسقطها على الرصيف، داسها أو أطفأها في ساقية جنب[٣] الشارع.

لم يكن بابا صالح قد التقى، في عمره هذا البالغ سبعين سنة، مع شرطي، ولم يكن ذاق طعم الهراوة غير ذلك اليوم الذي حضر فيه عند جنازة ابنه الشاب المهروسة المدعوكة، وتلقى - صدقة عن رأس الحشد - بضع ضربات هراوة.

في تلك الأيام كان أفراد الشرطة قد سحبوا هراواتهم اللعينة الثقيلة من أحزمتهم وراحوا يبعدون الناس الذين تجمعوا حول جثة ابنه الذي دهسته ودراجته النارية سيارة ما. في ذلك اليوم وحده فهم أن هذه الهراوات من مطاط وكان يفكر كم هي موجعة حقاً!

أثناء هذه السنوات السبع، في كل ليلة مقتلٍ إذ ينصب منبراً،

كان يتذكر على الفور وقائع تلك الليلة ويفكر مع نفسه: لماذا فعل ذلك؟ عساه لا رأى خيراً! أفلم يخف أن يجعل سيد الشهداء يده تموت موضعياً؟ أفأنا مثل هؤلاء الحوذيين الذين يقطع عليهم الطريق كل يوم . . . أو أن كسبي يومي؟ سنة بطولها وليلة مقتل واحدة. أنا لا يصل ضرري إلى أحد ولا يثقل منبري على كاهل أحد. لماذا إذن جاء ومضى بلا مقدمة بهراوته نحو المنبر والشموع؟ لمَ لم ينطق أهل الحارة بحرف؟ ولكن هذه الهراوات أشياء سيئة حقاً، ها! . . كانت هذه أفكاره. ولكنه في صميم قلبه كان لا يزال مسروراً قليلاً. كان مسروراً لأنه لم يضربه هو بالهراوة.

كان الناس الذين يدخلون المسجد فيمرون من جنب المنبر - لسماع الروضة أو من أجل الوضوء والخروج - لا يتركون الهواء هادئاً لحظة واحدة، وكان التيار المتولد يبقي شعلات الشموع تميل معوجّة دائماً إلى اتجاه واحد ويجعلها تذوب من ذلك الجانب.

كانت الشموع مستقرة، غير مرتبة ومختلطة، في الطين، وفي بعض الأحيان كأنها هي أيضاً بشعلاتها تقرأ الروضة همساً وتُسيل دموعها من ياقاتها وأكمامها بلا انقطاع. ما علمك بالله؟ لقد سمعت الكثير عن غرام الشمع والفراشات، أنى لك أن كل هذا الدمع ليس من أجل عزاء الزهراء؟

كانت شموع الجص، الأكثر ترتيباً والأكثر زهواً - إذ ليس

لديها لباس حزن في ليلة العزاء هذه ـ تقف ساكتة لا تتنفس بوقار تام. وأحنت شموع الكافور النحيلة ـ التي ارتدت بوقاحة تامة ملابس ملونة ـ خجلى منكسة الرؤوس، ظهورها وراحت إحداها تستر وجهها عن الأخريات. وشموع الشحم التي لم تكن موضع انتباه أحد ـ والأسوأ من هذا أنها لم تكن تستطيع حتى أن تقف على أرجلها ـ كانت إما تكسر ظهورها أو تتكئ على خشب المنبر وتحرق أطرافه بنار بخلها وحسدها.

كان بابا صالح يروح ويجيء ويتكلم إلى الجميع بانشراح، وعندما لم يكن ثمة صاحب حاجة ليوقد شمعاً ويطرح حاجته، كان يتلو ذكراً ويعبث بالشموع. وكان يقضي حاجات الأطفال الذين لا ينون يأتون طالبين منه شحماً كي يصنعوا تماثيل الشيطان، وفي بعض الأحيان كان يعطي بعضهم، ممن لهم بعض اللون واللمعان، قطعة حلوى. وكان يمسك حمير قراء الروضة الذين يترجلون ويغوصون في المسجد سريعاً، ويعبث برؤوسها وأعناقها. وكان ينادي أحياناً:

ـ آهاي! عندنا شمع أيضاً، هاي . .

كان قد سمع الكثير عن إيراد أصحاب المنابر في مسجد الشاه. كان يعرف أيضاً أن منابر مسجد الشاه كان لها في كل ليلة مقتل «خلوّ» كبير، ولكن حل هذه المسألة كان مشكلاً بالنسبة له: كانَ

قد سمع ذات حين ، لا يدري متى ، أن المعاملة المنطوية على خلو حرام . إن لم يكن هذا ، ولو أنه استطاع أن يجد حلاً لهذه المسألة ، لكان هو أيضاً قد استأجر عدداً من المنابر ، في ليالي المقتل . إذ ما كان ينقصه عن الآخرين؟ ولكن من جري ليالي المقتل ، لم يكن يعوده شيء غير بضع عشرات من الشموع المعوجّة ، التي كان يلقي بها إلى جانب ويستفيد منها عندما ينفد نفط مصباحه ، وغير حفنة حلوى وتمر يمكن بها تحلية الشاي بضعة أيام . ولكن لا ، قديماً عندما كان يتم تداول النقود الصفراء والبيضاء كان يحصل أحياناً على أشرفي[٤] أو إثنين أو عشرة أو عشرين من ذوات الهزارين[٥] ، مما يستطيع به أن يخرج من خجل الآخرين أمام الأهل والعيال في ليالي سبعة[٦] أحفاده أو في الأعراس النادرة التي يدعى إليها .

كان قد وضع سطل صفيح ، يرفع به فحم وتراب منزله كل ليلة ، تحت المنبر ، يطفئ الشموع المعوجّة والجديدة التي يوقدها الناس حديثاً ، ويضعها فيه .

كانت الشموع لا تزال تومض ويعتني بها بابا صالح كالأطفال عندما وصلت فتاة وشاب . كأنما كانا زوجين . كانت المُريئة تضع غطاء رأس أسود يُبرز البدن ، اتجهت نحو بابا صالح ، وهي تخرج من حقيبة يدها المنتفخة أربع شمعات جصية سوداء ، وقالت:

ـ يا عم، يقولون إن هؤلاء الأطفال لا يدعون شموع النذر تشتعل حتى الآخر، بل يطفئونها. . ها؟ صحيح؟

قال بابا صالح وهو يوقد الشموع من فتائل بقية الشموع:

ـ ما أدراني يا سيدة. كل ما تقولينه يفعله الناس. .

وقال زوجها الذي أخرج من كيس ورقي كبير تحت إبطه حفنة حلوى وأعطاها لبابا صالح:

ـ إيه، وما شأنك؟ لماذا تغسلين آثام الناس[7]؟ فنحن نبلغ مرادنا. وأولئك يعرفون شأنهم وسيد الشهداء يعرف.

وأضاف بابا صالح، الذي كان وضع حبة حلوة في زاوية فمه:

ـ نعم يا سيدة، أولئك المساكين أيضاً إن لم يكونوا محتاجين فإنهم لا يأخذون شمعكم، وهل الشمع تحفة؟ وأضاف هامساً:

ـ وإن أردت الحق، ما الفائدة من اشتعال كل هذا الشمع هنا؟ ناشدتك الله أليس هذا إسرافاً؟

ولكن ذينك الزوجين كانا قد ذهبا فلم يسمعا كلماته الأخيرة هذه.

أراد بابا صالح أن يطفئ شموعهما، ولكن أدنى فؤاده لم يرض بهذا العمل. وهو نفسه أيضاً لم يعرف لماذا؟ ألكي لا يصير مشغول الذمة لمحدثي الثراء هذين؟ أو لأن شمعهما كان أسود وربما فكر

أنه سيكون سيئ الطالع؟ إنه حتى لم يفكر. باستقامته صعر خده وصاح:

ـ يا ناس، لدينا شمع أيضاً، ها!

كان صوت احتراق الشمعة الكبيرة قد أزعجه. كانت تشتت حواسه. من أول المساء حتى الآن كان قد استأنف دورة لعن خمس مرات، ولكنه لم يكن قد وصل خرزة العقد الأولى[8] من المسبحة عندما اضطر إلى ترك علامة المسبحة من أجل تقصير فتيلة الشمعة الكبيرة.

كانت شمعة هذه السنة الكبيرة أكبر بشبرين من شمعة كل عام. لأن نذر صاحبها كان قد تحقق. كانت هذه الشمعة النذر السنوي لأحد أقرباء عالم الحارة، الذي لم يكن يولد له أطفال. كانت شموع كل سنة تنفد عادة في صباح يوم المقتل، وعندما كان بابا صالح يلملم بساط منبره، كان ينشر الطين المخلوط بشحم سطح درجات المنبر وسط ممر المسجد، ويقيم في وسطه الشمعة الكبيرة التي كانت تشتعل حتى آخر الليلة السابقة، وكانت فتيلة الشمعة المنكوسة في الشحم الذائب فوق الطين تكاد تكون كفت عن الطقطقة عند السحر، عندما كان يأتي لفتح باب المسجد.

ولكن شمعة هذا العام، حسب بابا صالح أنها لو اشتعلت دوماً فإنها لن تنتهي حتى عصر الغد. كان يفكر في أمور كثيرة ويدبر حسابات عدة لذلك. ولكن احترام الشمعة الكبيرة، النذر

الخاص للإمام الحسين ذاته، وعقائده المبهمة، لم تكن تجيز له حتى أن يستدعي أفكاره بوضوح.

كان الجو يزداد برودة، وكلما ازداد ما ينصرم من الليل كان سفعٌ أحدٌّ يضرب رأسه ووجهه. كانت شعلة الشمعة تزداد بريقاً ونوراً، وتبهر عينيه. وكان هو يجد في بريق هذه الشعلات، بين حياته المظلمة والمبهمة الماضية، نقاطاً بارزة: شمعتي لالتين[٩] بسيطتين أنارتا بساط عقده الأبسط، قبل أربعين أو خمسين سنة - لا يدري على وجه الدقة - وبعد ذلك الشموع الملونة لصحون السذاب والأضواء وليالي النيروز[١٠]، والشموع الوقورة للمقابر وداخل أضرحة الأولياء - التي تطقطق في محيط مقدس - كل ذلك كان يتجسد - بعضه مبهم وبعضه أوضح - في نظره، ترتجف، تميل وتستقيم، وتذهب وراء بعضها في دنيا الظلمة والإبهام؛ تنطفئ، وبهبة هواء واحدة تموت فجأة، ويبقى منها دخان أبيض هزيل ويغطي - مع رائحة الفتيلة المحترقة التي ترافقه - أفق ذهنه، وتذكارات حياته الطويلة الماضية، الباهتة والكدرة.

كانت طقطقة الشمعة الكبيرة تقطع أفكاره من مكان وتخيطها بمكان آخر. كان يتذكر مجالس التعزية الباذخة والجوقات الكبرى. وفي بعض الأحيان كانت رائحة الشحم والفتيلة المحترقين، التي ما زالت تخدش أدنى أنفه - تتبدل إلى رائحة نفط وزيت مصباح، وتذكره بالمشاعل الكبيرة وذوات الأربعين حاملاً للجوقات ومسيرات

عشاء الغرباء[11] التي كانت تحملها أكتاف ثلاثة أو أربعة من فتوات الحارة. ولكن هذه الأفكار جميعاً كانت سريعة الزوال. كانت تكشف عن نفسها سريعاً بوصفها حميمية وتختفي مرة أخرى في دنيا النسيان. كانت حياته ونشاطه في هذه السن، في هذا الحي الذي له فيه سبعون سنة ونيف، ناشئة من أنه لم يسبق أن فكر قط بخواطر حياته مرها وحلوها، أو ما إذا كان أدرك فلسفة الحياة أم لا. إن التفكير بكيفية ملئه كل ليلة ـ في برد الشتاء القارس هذا ـ سطله الصغير بتراب الفحم وجلبه إلى البيت، لم يسمح له أن يفكر بماضيه. هذه الحياة البسيطة ذاتها شغلت فكره إلى حد أنه لم يكن يستطيع ـ حتى من أجل الفرار منها، ومن أجل تسلية نفسه أيضاً ـ أن يفكر بخواطر ماضيه العذبة، أو أنه نسيها كلياً!

كانت حياته رتيبة. لم يكن للطراوة والجدة وجود بالنسبة له. المجيء إلى المسجد في سحر كل يوم، تهيئة وسيلة عبادة المؤمنين، الأذان والكنس ثم العودة مساء ودخول الفراش بعيداً عن بضعة أطفاله الباقين، مع امرأة عجوز مكسورة عطنة.

ولكنه حتى لم يتعب من كل هذه الرتابة!

إن موت ابنه الشاب الصاعد ـ الذي وقع قبل سنتين في أحد أيام الزيارة تحت سيارة حمل بدراجته ـ لم يحزنه أكثر من يومين. وبعد ذلك أيضاً في الليلة السابعة فقط، كان قد ذرف بضع قطرات

دمع على قبره، ولم يشهده أحد قط يذرف دمعاً على ابنه أو يندبه أكثر من ذلك. لم يكن قد تعلم من حياته البالغة سبعين سنة ونيفاً غير هذا التحلل وعدم التفكير، ولقد صار الآن، على كل حال، عجوزاً مغضناً لم يؤثر غم الدنيا وغصتها في أعصابه العتيقة الخدرة كثيراً. عند ظهر كل يوم كان صوته الصدئ الممطوط، الذي لا يزال فيه أثر من امتداد نداء مناجاته وقت فتوته، يرتفع من مفترق السوق الصغير. من أجل صلاة الظهر كان يقف عند باب مسجد المعبر القديم، ويوصل صوته ـ الذي كان ساعة توقيت جيدة لصائمي أهل الحارة في أسحار رمضان في ذلك الوقت الذي حرّم فيه الكفرة حتى إطلاق المدفع، صوته المرتفع الذي يرتفع من قعر حنجرته المستعملة الشائخة ـ التي ربما اشتغلت حتى أكثر من معمل نسيج عتيق إنجليزي ـ عبر الثقوب الضيقة لسقف السوق الصغير، إلى أسماع عباد الله.

وفي بعض الأحيان عندما تقع عينه وقت الأذان على الخباز المقابل يتذكر أنه عندما كان الأمير فرمانفرما رئيساً لبلدية المدينة كان هو فتياً جداً، ويوم ألقوا، في هذا السوق الصغير ذاته بأمره، خبازاً في التنور، وكان هو شاهداً ناظراً! ولكن بصرف النظر عن هذه الذكرى، كانت حياته قد صارت من الرتابة بحيث لا يمكن العثور فيها إلا على نقاط مشخصة ومختارة. إن سنوات عمره وذكرياتها المغبشة الغامضة تشبه صحراء واسعة تنمحي تلالها الصغيرة والرملية

في كل آن وتختفي بفعل نسيم ملائم على هيأة غبار رقيق في سمائها المظلمة ويسودها أيضاً كل آن استواء سطحي لا متناه.

وربما كان صوته الآن، الذي يصل في كل أذان صبح مع الكلمات المقدسة التي صارت مبهمة غامضة لأنها تأتي من مكان بعيد، يوقظ كل أهل الحارة من النوم. ولكنه لم يعد يثير نشاطاً في أحد. ربما يكون هو نفسه قد أدرك الآن هذه الحقيقة. وكان صوته أيضاً يشبه اللحن المهتز لترتيل القرآن الذي يرتفع ليلةَ جمعةٍ في وقت متأخر من وسط مقبرة عتيقة قارئاً سورة الرحمن.

إن ما يؤثر شديداً في الآخرين الآن لا يوجد فيه أدنى سرور أو حزن. ولكن حتى اللحظة بقيت خاطرة واحدة حية في ذهنه تقلق في كل ليلة مقتل فكره. وهي: لماذا قام ذلك الرجيل عديم الفهم، في تلك الليلة العزيزة، بتلك الإهانة له ولمنبره وجهازه؟

* * *

كان الصوت المبهم العميق لنوحةِ جوقةٍ ما يصل من بعيد. قليلاً قليلاً، يصل الأسماع أبهى وأوضح. لقد انتهت سلطة القوزاق ووجد الناس حرية. صارت الأصوات أعلى وكلمات النوحة التي تقرأ تسمع أكثر تقطيعاً. كانت الجوقة تقترب. لم يكن ثمة عَلَم ولا حصان بلا راكب ولا مصباح. ولكن في نور مصابيح الشارع كانت صدور مقيمي العزاء العارية المتعرقة تبرق.

كانت جوقة كبيرة. في الأمام، يأتي الأطفال بالنوحة الخاصة التي يقرأونها أسرع وعلى فواصل أطول. وفي المؤخرة، كان الرجال العراة المتهيجين، يدحرجون ـ بأصواتهم المنكرة المشروخة ـ كلمات النوحة بين حلوقهم وأفواههم ثم يطلقونها، ثقيلة موقّعة، وسط هواء الشوارع البارد الصارم.

كان الجميع يتقدمون بتأن. لم يكونوا على عجل، ويقفون مطمئنين تماماً عند كل عشر خطوات. يجعلون قارئ النوحة على مقعد ويلطمون صدورهم بكلتا اليدين وينادون «يا حسين» حتى يقتربوا على هذا النحو شيئاً فشيئاً من المسجد.

كان بابا صالح قد تجددت روحه. لم يكن قد سمع صوت أية نوحة وتوجع أي صاحب عزاء منذ زمن بعيد. ترك المنبر لحاله. غطى بذيل عباءته وجهه وراح يبكي مصوتاً.

كانت الشمعة الكبيرة تطقطق وتشتعل على نحو سيئ. كانت الشموع قد رق بعضها إزاء اضطراب أصحاب العزاء فراح يصب الدمع ويحني الرؤوس إجلالاً، وبعضها الآخر، الذي بهت لكل هذا التسامح والرجولة، قد تيبس فوقف مستقيماً منتصباً ينظر إلى هذا البساط. كان الجو قد برد كثيراً، والمدينة تتوقف عن الحركة ويلتف صوت نوحة جوقة أهل العزاء من فوق ظلام المدينة الثقيل في كل مكان ويصل أسماع الجميع.

كانت الشموع تشتعل. بابا صالح يبكي. أصحاب العزاء يصرخون، ولم يعرف أحد من أين وصل، دفعة واحدة، خبر أن الشرطة قادمون! في طرفة عين واحدة علم كل أهل الجوقة بالخبر. توقف الجميع، في آن واحد، عن لطم الصدور، قطعوا أصواتهم وسمّروا أعينهم، بخوف وترقب، على آخر الشارع. التمعت على البعد بضع علامات مدورة واسعة في ضوء مصباح الشارع الخافت... وهجمت الجوقة عشوائياً نحو باب المسجد القريب...

كانت حرية التظاهرات الدينية قد أُعلنت رسمياً. وربما كان البعض ممن يعرفون القراءة والكتابة قد قرأوا ذلك في الصحف. ولابد أن قراء الروضة كانوا أعلنوا ذلك على رؤوس المنابر، وفي المناسبة نفسها دعوا في أواخر مواعظهم للشاه حامي الإسلام ورئيس وزرائه المتدين، ولكن الخوف العظيم الذي كان يحسه الجميع من هذه العلامات المدورة، والذكريات المريرة التي يحملها الجميع عن العشرين سنة من سلوك الشرطة في الأشهر العزيزة، كان لها لدى الناس واقعية أكبر من إعلان رسمي.

حتى في بضعة الأيام العزيزة هذه، كانت الأحكام العرفية قد أُلغيت. ولكن الناس، مقيمي العزاء في تلك الجوقة، لابد رأوا، في معية علامات الشرطة المدورة، برق أسنة القوزاق، أو أنهم جسدوها لأنفسهم. وكانوا يفكرون أنْ الآن سيأتي خشب

الهراوات ورؤوس الجزمات وكعوب البنادق. لو أنهم وقفوا فـ . . لا شيء . . . لم يكونوا من رجال ذلك. وإن هربوا، فبصافرة واحدة كان سيظهر من كل حدب وصوب شرطي وعسكري مثل النمل والجراد. إذن، فقد كان ثمة حل واحد لا سبيل غيره: أن يلجأوا جميعاً إلى المسجد.

جميعاً، بدون أن يكونوا قد تشاوروا مع بعضهم أو أتيح لهم الوقت ليفعلوا، قبلوا، بالإجماع، هذه الفكرة. نسوا العزاء والنوحة والجوقة وهجموا نحو باب المسجد.

لم يكن بكاء بابا صالح قد تكفكف عندما سحبه الحشد إلى داخل المسجد، ولو أن شاباً ضخم الجثة، كان يحمل مقعد قارئ النوحة، لم يخف لنجدته لكان انهرس حتماً تحت وقع الأرجل.

أما المنبر، مع كل تشكيلاته وملحقاته، الذي كان مانعاً كبيراً وسط إطار باب المسجد، فقد انقلب عند الهجوم الأول في وسط مدخل المسجد وتناثرت الشموع جميعاً. أوصل الناس أنفسهم كيفما اتفق إلى باب رواق المسجد. كانوا يتسلقون بعضهم بعضاً وهم بأحذيتهم، من دون رعاية لأية مراسم. يدفع أحدهم الآخر ويتسابقون مع بعضهم بعضاً. وغاص الجميع، على غير هدى، في رواق المسجد.

كان بابا صالح وحده يقف، في زاوية المدخل، باهتاً ذاهلاً

يحدق متحسراً متأوهاً إلى بساطه المتناثر. وغاص إلى وقائع قبل سبع سنوات: بالشمع المكسر، بفتيلة الشمعة الكبيرة التي كانت سقطت في طرف وانطفأت وراحت تبعث دخاناً غليظاً، وربما كان يفكر بالرجيل المنكر صاحب الهراوة عديم الحياء لتلك الليلة.. كانت تلك أول مرة ينشغل فيها بابا صالح بذكريات ماضيه.

وصل صاحبا العلامات المدورة. مررا الرؤوس إلى داخل المسجد، حدقا قليلاً إلى وجه بابا صالح، وعندما رأيا بساطه المتناثر المقلوب غلبهما الضحك كلاهما وانصرفا.

في الطريق قال أحدهما للآخر:

ـ المساكين! حقاً كم خاف الناس. إلهي، ما ذنبنا نحن؟! حتى عندما نريد الذهاب إلى بيوتنا يجفل الناس منا!

واكتفى الآخر بالضحك.

في ذلك الآن الواحد الذي كان ذانك الإثنان قد مدا رأسيهما من باب المسجد وضحكا على هذا البساط المتناثر، أدار بابا صالح أيضاً عينه لحظة نحوهما. ورأى ما لم يسبق له أن توقعه! فجأة ارتخت ركبتاه. اتكأ على الجدار. وعندما ابتعد ذانك الشخصان مقهقهين، جلس شيئاً فشيئاً على الأرض وغاب عن الوعي.

كان الجميع يتصورون أنه وقع تحت أرجل الناس وغشي عليه،

ولكنه هو نفسه لم يفهم كيف لم يصب بسكتة. لابد أن الله رحمه كثيراً. كل ما هنالك أنه نام في بيته يومين فقط، وخلال هذين اليومين استقبلت زوجته، للمرة الأولى، شيخ الحارة والمؤمنين المتشددين المترددين على المسجد من أهل الحارة الذين جاؤوا لعيادة زوجها، في غرفة خربتهم الوحيدة، بالشاي والحلوى.

وقال بابا صالح وهو يغص ويبكي توجعاً، لكل من جاؤوا لعيادته، إن أحد ذينك الشخصين حاملي الهراوات، الذي ضحك بصوت أعلى على بساطه المتناثر، كان هو نفسه شرطي تلك الليلة، ذلك الرجيل المنكر نفسه الذي استل بلا سابق إنذار هراوته وأوقع، بها، بأوساط الشمع ضرباً.

هوامش

(١) المقصود مقتل أحد الأئمة .

(٢) حيث تقرأ أشعار التعزية بمقتل الإمام الحسين ، المسماة بالروضة .

(٣) ساقية تقام بين الشارع والرصيف تساق إليها مياه الثلوج والأمطار .

(٤) وحدة نقد ألغيت ، تعادل الواحدة منها عشرة ريالات حالية .

(٥) مثنى «هزار» ، وحدة نقد ألغيت وبقي اسمها يطلق على الريال الحالي .

(٦) ليلة اليوم السابع لميلادهم .

(٧) يعني باستغابتهم .

(٨) خرز تختلف عن بقية الخرز ، ضمن المسبحة الواحدة ، توضع واحدة منها بعد عدد معين من الخرز ، كي تسهل عملية العد .

(٩) مثنى (لاله)، وهي ظليلة مصباح تكون على هيأة زهر الخزامى (لاله).

(١٠) رأس السنة الفارسية، يوم ٢١ آذار.

(١١) مساء العاشر من المحرم، حين بات أهل بيت الإمام الحسين بلا عشاء حزناً وتعباً ولكونهم أسرى أيضاً.

(١٢) المقصود الزيارة الدينية، بمناسبة وفاة أحد الأئمة أو ميلاده.

* * *

بهذه القصة تنتهي القصص المأخوذة من مجموعة «الزيارة» المنشورة سنة ١٩٤٥.

ابن الآخرين

طيب، ما كان يمكنني أن أفعل؟ لم يكن زوجي مستعداً أن يحتفظ بي مع الطفل. فالطفل لم يكن طفله. كان طفل زوجي السابق الذي طلّقني ولم يكن مستعداً أيضاً أن يأخذ الطفل. لو كانت واحدة غيري فما كانت ستفعل؟ طيب، أنا أيضاً يجب أن أعيش. لو أن زوجي هذا طلقني أيضاً ما كنت أفعل؟ كنت سأضطر للتخلص من الطفل على نحو ما. إن امرأة مغمضة العينين مسدودة الأذن مثلي لا يخطر ببالها شيء غير هذا. لم أكن أعرف مكاناً، ولم أكن أعرف طريقاً أو مخرجاً. ليس أنني لم أكن أعرف مكاناً: كنت أعرف أنه يمكن وضع الطفل في دار حضانة أو في مخروبة أخرى. ولكن من أين لي أن يقبلوا طفلي؟ من أين كان يمكنني أن أتأكد أنهم لن يعطلوني ولن يريقوا ماء وجهي ولن يلصقوا ألف اسم بي وبطفلي؟ من أين؟ لم أكن أريد أن ينتهي الأمر على هذا النحو. وذلك اليوم نفسه أيضاً، عندما أنهيت كل أعمالي عصراً وعدت

إلى البيت وقصصت ما فعلت على أمي والجارات، لا أدري أيهن قالت: «طيب، يا امرأة، كان يمكنك أن تأخذي ابنك فتودعيه في دار حضانة، أو تأخذيه إلى دار الأيتام. .» ولا أدري أية أمكنة أخرى ذكرت. ولكن في ذلك الوقت إياه قالت لها أمي: «أتظنين أنهم كانوا يفسحون لها الطريق؟ هه!». مع أنني أنا نفسي كنت أفكر أن أفعل ذلك، ولكن عندما قالته جارتنا تلك، مرة أخرى انهار فؤادي وقلت لنفسي: «طيب يا امرأة، وهل ذهبت ولم يفسحوا لك الطريق؟». ثم قلت لأمي: «ليتني كنت فعلت ذلك». ولكن لم تكن لدي خبرة. لم أكن متأكدة أنهم سيفسحون لي مجالاً. ثم أنه كان قد فات الوقت. كأن عالماً من الهم انسكب فوق قلبي من كلام تلك المرأة. تذكرت كل كلام الناس المعذّب، لم أعد أستطيع الاحتمال. بكيت أمام الجميع. لكن كم كان سيئاً! سمعت بنفسي إحداهن تقول: «وتبكي أيضاً! لا تستحي. .». مرة أخرى خفّت أمي إلى نجدتي. خفّفت عني كثيراً. طيب، كانت تقول الحق. أنا في أول شبابي، فلماذا أحمل همّاً بهذا الحجم على طفل؟ وعندما لا يقبلني زوجي مع طفلي؟ عندي الآن وقت كثير كي أجلس ولا أفعل غير أن ألد ثلاثة أو أربعة. صحيح أنه كان طفلي الأول وما كان لي أن أفعل ذلك، لكن حسناً، ذاك أمر جرى وانتهى. الآن ليس الوقت وقت تفكير. لم أكن أنطوي على إيذاء، بحيث أقوم أذهب فأفعل ذلك العمل. كان زوجي هو الذي أصر. وكان على حق أيضاً، ما كان يريد أن يرى خَلَف

ثوْر آخر على سُفرته. أنا أيضاً عندما أحكّم فكري أعطيه الحق. أكنت أنا نفسي مستعدة لأن أحب أطفال زوجي كأطفالي ولا أعتبرهم عبئاً على حياتي؟ لا أعتبرهم زيادة على سفرة زوجي؟ طيب، هو أيضاً كذلك. هو أيضاً كان له الحق في ألا يستطيع أن يرى طفلي ـ لا طفلي، وإنما حسب قوله طفل ثور آخر ـ على سفرته. في ذينك اليومين اللذين كنت أذهب فيهما إلى بيته لم يكن بيننا من حديث غير حديث الطفل. في الليلة الأخيرة تحدثنا كثيراً. يعني ليس أننا تحدثنا كثيراً. تكلم هو مرة أخرى عن الطفل واستمعت أنا. وأخيراً قلت: «طيب، يعني ماذا أصنع؟». لم يقل زوجي شيئاً. فكّر قليلاً ثم قال: «لا أدري ما تصنعين، اصنعي ما تعرفين. أنا لا أريد أن أرى على سفرتي خَلَف ثور آخر». وهو لم يضع أمامي طريقة أو منفذاً. تلك الليلة لم يقترب مني. يعني أنه زعل عليّ. كانت الليلة الثالثة لحياتنا معاً. ولكنه زعل عليّ. كنت أعرف أنه يريد أن يعرّضني لغضبه حتى أحلّ قضية الطفل في أسرع وقت. وصباحاً أيضاً، عندما كان يخرج من باب البيت قال: «عندما أجيء ظهراً إلى البيت يجب ألا أرى الطفل بعد، ها!» فعرفت منذئذ ما يتعين عليّ أن أفعل. ومهما فكرت الآن لا أستطيع أن أفهم كيف رضي قلبي! ولكن ما عاد الأمر بيدي. ألقيت شادري[1] على رأسي وأخذت يد ابني وخرجت من البيت بعد زوجي. كان ابني في حوالي الثالثة من عمره. ويحسن المشي. كان السيئ في الأمر أنني أنفقت عليه من عمري ثلاث

سنوات. كان هذا سيئاً جداً. كانت كل متاعبه قد انتهت. كل صحوات الليل من أجله انتهت. وكان ذلك أول وقت راحته. ولكنني مضطرة أن أصنع ما يتعين عليّ. سرت معه إلى موقف السيارات، وكنت قد ألبسته حذاءه أيضاً. وألبسته ملابسه الجيدة. جاكتة وبنطلوناً أزرقين صغيرين على الموضة، كان زوجي السابق اشتراهما له. عندما كنت أُلبسه لباسه خطرت لي هذه الفكرة أيضاً: «يا امرأة، لماذا تُلبسينه ملابسه الجديدة؟»، ولكن فؤادي لم يرض. ما كنت أريد بها؟ العمى لزوجي: إن حبلت مرة أخرى فليذهب يشتر له لباساً. ألبسته ملابسه. مشطت شعره. كان قد صار جميلاً جداً. أمسكت يده وبيدي الأخرى حافظت على شادري حول وسطي ومشيت بطيئاً. لم يعد ضرورياً أن أواصل شتمه كي يتحرك أسرع. كانت تلك آخر مرة أقوده فيها من يده وآخذه إلى الطريق. في مكانين أو ثلاثة أرادني أن أشتري له مصاصة. قلت: «لنركب السيارة أولاً وبعدئذ أشتري لك مصاصة أيضاً». أذكر أنه في ذلك اليوم أيضاً كان يوالي سؤالي، كما في الأيام الأخرى. كان حصان قد غاصت رجله في حفرة بجدول ماء وقد تجمع الناس حوله. أصر كثيراً أن أرفعه كي يرى ما الأمر. رفعته. فرأى الحصان الذي كانت قائمته الأمامية انخدشت وسال منها الدم. عندما وضعته أرضاً قال: «ماما ـ صالت إيده آخ[٢]»، فقلت: «نعم يا حبيبي، لم يسمع كلام أمه فصار آخ». كنت أسير ببطء إلى موقف السيارات. كان أول النهار بعد، والسيارات مزدحمة.

ولربما بقيت نصف ساعة في الموقف حتى حصلت على سيارة. كان طفلي يسبب الإزعاج. وكان يصيبني التعب. ولكثرة ما كان يسأل أفقدني صبري. قال مرتين أو ثلاثاً: «إذن ما صال[٣] يا أمي؟ السيّالة[٤] ما جاءت. نلوح نشتلي[٥] مصاصة»، ومرة أخرى قلت له إن السيارة ستأتي الآن. وقلت إنني سأشتري له المصاصة أيضاً عندما نركب السيارة. أخيراً ركبنا الرقم سبعة وإلى أن نزلنا في ميدان الشاه كان طفلي يوالي الكلام ويوالي السؤال، أذكر مرة أنه سأل: «ماما، أوْن[٦] نذهب؟». ولا أدري لماذا قلت له فوراً: «نذهب عند بابا». نظر طفلي قليلاً قليلاً قليلاً إلى وجهي. ثم سأل: «يا أمي، أوّ[٧] بابا؟». كان قد نفد صبري. قلت: «كم تتكلم يا روحي؟ إذا تكلمت ما أشتري لك مصاصة، ها!» كم يحرقني فؤادي الآن! لماذا كسرت قلب طفلي في تلك اللحظات الأخيرة؟ عندما خرجنا من البيت كنت عاهدت نفسي أن لا أصير عصبية حتى انتهاء الأمر. أن لا أضرب طفلي. ألا أشتمه. أن أعامله جيداً. ولكن كم يحرقني الآن فؤادي! لماذا أسكتُّه على هذا النحو؟ لزم طُفيلي بعدئذ الصمت. حتى مع صبي السائق ـ الذي كان يلعِّب له وجهه ويكلمه، لكنني لم أكن أهتم لشأنه ولا كان طفلي، بل كان دائماً يدير وجهه نحوي. وأخيراً اشترك معه في الضحك والكلام. في ميدان الشاه طلبت الوقوف فتوقفت السيارة، وعندما كنت أنزل كان طفلي لا يزال يضحك. كان الميدان مزدحماً والحافلات كثيرة. وكنت لا أزال أخاف أن أعمل

عملي. مشيت زمناً، ربما كان نصف ساعة حتى قلّت الحافلات. جئت إلى جانب الميدان وأخرجت عشرة شاهيات[8] وأعطيتها لطفلي. تعجب طفلي وصار ينظر إلي. لم يكن قد تعلم بعد أخذ النقود. لم أكن أدري كيف أجعله يفهم. كان في الجانب الآخر من الميدان بائع بزر ينادي، فأشرت له نحوه بأصبعي وقلت: «خذ. اذهب اشتر مصاصة. فلأر أتعرف أن تذهب فتشتري بنفسك؟!». نظر طفلي إلى النقود ثم قال لي: «أماه، تعالي أنت أيضاً نلوح[9]»، فقلت: «لا، أنا واقفة هنا أراقبك. اذهب لأرى أتعرف أن تشتري بنفسك». مرة أخرى نظر طفلي إلى النقود. كما لو كان متردداً. ولم يكن يعرف كيف يمكن شراء الأشياء، لم أكن قد علمته شيئاً كهذا بعد. نظر إليّ مرتاباً. يا لها من نظرة! كما لو انقبض فؤادي في تلك الدقيقة إياها وساءت حالي، ساءت حالي كثيراً. أوشكت أن أنصرف عن الأمر. وفيما بعد، عندما ذهب طفلي وهربت، وحتى الآن، حتى عصر ذلك اليوم عندما بكيت أمام الجيران من ضغط الغصة، لم ينقبض فؤادي ولم تصر حالي على هذا السوء. أوشك صبري على النفاد. يا للنظرة! بقي طفلي حائراً وكما لو كان لا يزال يريد أن يسألني شيئاً. لا أدري كيف تماسكت. مرة أخرى أشرت له نحو بائع البزر وقلت: «اذهب يا روحي. أعطه هذه النقود وقل له أعطني بزراً، فقط، رح بارك الله فيك». نظر طُفيلي إلى بائع البزر ثم، كما عندما كان يريد أن يتذرع بحجة ما ويبكي، قال: «يا أمي، أنا لا أليد بزل[10] أليد زبيب». كنت

أتعذب. لو أن طفلي أخّر الأمر قليلاً أيضاً، لو أنه بكى قليلاً، لانصرفت عن الأمر حتماً. ولكن طفلي لم يبكِ. صرت عصبية. نفد صبري. صرخت به: «عنده زبيب أيضاً. اذهب اشتر ما تريد. هيا اذهب..» ورفعته من فوق جدولِ جنبِ الرصيف فوضعته على أسفلت وسطِ الشارع. وضعت يدي على ظهره، ودفعته قليلاً إلى أمام وقلت: «هيا اذهب، سنتأخر». كان الشارع خالياً. من وسط الشارع إلى أطرافه لم تكن تشاهد حافلة أو عربة يمكن أن تدهس ابني. عندما كان ابني قد ذهب خطوتين أو ثلاثاً عاد وقال: «يا أمي. عنده زبيب أيضاً؟» فقلت: «نعم يا حبيبي. قل له أعطني زبيب بعشرة شاهيات». فذهب. كان طفلي قد وصل نصف الشارع عندما زمرت سيارة فارتجفت ذعراً. وبدون أن أدري ما كنت أفعل، رميت نفسي إلى وسط الشارع واحتضنت طفلي وركضت إلى الرصيف واختفيت بين الناس. كان العرق قد جرى من رأسي ووجهي. كنت ألهث. قال طفلي: «ما صال[١١] يا أمي؟». فقلت: «لا شيء يا روحي. يعبرون الشارع سريعاً. أنت كنت تمضي بطيئاً فأوشكت أن تقع تحت الـ(هوتول)[١٢]. عندما كنت أقول هذا أوشكت أن أبكي، و قال طفلي وهو لا يزال تحت إبطي: «حسناً يا ماما، ضعيني على الألض [١٣] و سألوح[١٤] هذه الملة[١٥] سليع[١٦]. ربما لو أن طفيلي لم يكن قال هذا لكنت نسيت فيم أتيت. ولكن كلامه هذا نبهني. لم أكن قد جففت دموعي بعد عندما تذكرت العمل الذي جئت كي أفعله. تذكرت زوجي

الذي سيغضب عليّ. قبّلت طفيلي. كانت آخر قبلة أنالها من خده. قبلته ووضعته أرضاً مرة أخرى ومرة أخرى قلت في أذنه: «اذهب سريعاً يا حبيبي، فالسيارات قادمة». مرة أخرى كان الشارع خالياً، وهذه المرة ذهب ابني أسرع. كان يمد خطى صغيرة بسرعة. وقد خفت مرتين أو ثلاثاً أن يتعثر بساقه فيسقط أرضاً. عندما وصل جانب الشارع الثاني التفت وألقى عليّ نظرة. كنت قد جمعت ذيلي شادري تحت إبطي وعلى وشك أن أنطلق. ما أن استدار طفلي ونظر نحوي، حتى تيبست في مكاني. صحيح أنني لم أكن أريده أن يعرف أنني ذاهبة. ولكنني لم اتيبس من أجل هذا. كنت قد صرت مثل لص أمسكوه متلبساً. تيبست يداي تحت إبطي. مثل تلك المرة حين كنت عند جيب زوجي - زوجي السابق ذاك - أفتش وأبحث فوصل زوجي. على ذلك النحو إياه تيبست. مرة أخرى تضمخت عرقاً. طأطأت رأسي وعندما رفعته بألف مشقة كان طفلي قد انطلق مرة أخرى ولم يكن بقي شيء حتى يبلغ بائع البزر. كانت مهمتي قد تمت. كان طفلي قد بلغ جانب الطريق الآخر. ومنذ ذلك الوقت صار وكأنني لم يسبق أن كان لي طفل.

في آخر مرة نظرت إلى ابني كان بالضبط كما لو كنت أنظر إلى ابن الآخرين. بالضبط، كما لو أنني أنظر إلى ابن ناس، حديث السير، عذب. بالضبط كما يمكن أن تلتذ الواحدة من رؤية ابن الآخرين التذذت برؤيته. وسريعاً اندسست بين الحشد على الرصيف.

ولكنني ارتعبت فجأة. أوشكت قدماي أن تتيبّسا وأوشكت أنا أن أتسمر في مكاني. استولى عليّ الرعب؛ أن يكون أحد ما يراقبني! من هذه الفكرة قفّ شعر بدني وأسرعت. بعد زقاقين إلى أدنى، فكرت في أن أندس في الأزقة وأهرب. أوصلت نفسي بعد عناء شديد إلى مدخل زقاق وإذا بسيارة أجرة تتوقف ورائي فجأة في الشارع. كما لو سيقبضون عليّ الآن. حتى ارتجفت عظامي. خيّل إليّ أن شرطي مفترق الطريق، الذي كان يراقبني، قد قفز إلى سيارة الاجرة وها قد نزل ورائي وهاهو يمسك بمعصمي. لا أدري كيف استدرت ونظرت ورائي فانهرْت. كان ركاب السيارة قد دفعوا أجرتهم وهم على وشك أن ينصرفوا. تنفست نَفَس ارتياح، وخطرت لي فكرة أخرى. بدون أن أفهم، أو ترى عيني مكاناً ما، قفزت إلى السيارة وأغلقت الباب بعنف. دردم السائق وانطلق. وبقي شادري بين باب السيارة. عندما ابتعدت السيارة وأحسست اطمئناناً، فتحت الباب بهدوء. سحبت شادري منه وأغلقت الباب مجدداً. ارتخيت على ظهر الكرسي وتنفست بارتياح. وفي الآخر لم أستطع مساء أن أحصل على أجرة السيارة من زوجي!

هوامش

(١) عباءة المرأة الفارسية .

(٢) تأذت يده ، تؤلمه يده .

(٣) صار .

(٤) السيارة .

(٥) نشتري .

(٦) أين .

(٧) أيّ .

(٨) الشاهي وحدة نقد كانت ملغاة حتى في زمان القصة ، ولكن اسمها بقي يطلق على مسكوكة الخمسة دنانير ، فهي تساوي خمسة بالمئة من قيمة الريال الحالي .

(٩) نروح .

(١٠) بزر .

(١١) ماذا صار .

(١٢) التحريف الطفولي لكلمة (أتول)، التي كان الكبار يطلقونها على السيارة .

(١٣) الأرض .

(١٤) سأروح .

(١٥) المرة .

(١٦) سريعاً .

ثلاثي الأوتار

كان بيده ثلاثي أوتار جديد وبلا غطاء، يأتي مفتوح الياقة من دون سابق إنذار. هبط سلالم مسجد الشاه[1] على عجل وراح يشق طريقه بصعوبة من بين بُسُط صغار الباعة ومن بين الناس الذين كانوا يبحثون بين بسط هؤلاء عن أشياء لا يدرون هم أنفسهم ما هي.

كان يمسك ثلاثي الأوتار على بطنه ويحافظ بيده الأخرى على أوتاره كي لا تنحشر بزر لباس أحد أو بزاوية حمل حمّال فتنقطع.

تمكن اليوم أخيراً أن يبلغ مناه. لم يعد بحاجة أن يأخذ من الآخرين ـ عندما يريد الذهاب إلى مجلس ما ـ ثلاثي أوتار ويدفع عنه أجرة بقدر دية آبائهم، ثم يتحمل ـ فوق ذلك ـ منّتهم.

كان شعره أشعث ويسّاقط على جبينه فيغطي عينه اليمنى. كانت وجنتاه غائرتين ولونه مصفراً. ولكنه لم يكن يستقر على ساقيه، فكان يركض وجداً ومرحاً. لو كان ثمة مجلس وأتيحت

له فرصة كان ـ عندما يبلغ من الطرب مبلغاً ـ يغني ويعزف على الـ (تار) فيصب مباهجه الخفية ومسراته الباطنية ويجعلها تنفذ إلى الآخرين جميعاً. ولكن الآن، بين الناس الذين لم يكن معروفاً ما الذي يقومون به في تلك الأطراف، ما كان يمكنه أن يفعل غير أن يركض فيوصل نفسه بأسرع ما يمكن إلى مكان ما؟ كان يركض مسروراً ويفكر في ثلاثي الأوتار الذي هو الآن ملكه.

كان يفكر أنه سيكون من بعد نشيطاً ويعرّف الريشة، بمقدرة وبلا إرادة، بأوتار التار، ولن يخشى أن تنقطع الأوتار ويجعل صاحب التار نهاره الساطع أكثر ظلمة من الليلة الظلماء(*). كان مرتاحاً من هذا الجانب، كان يفكر أنه بعد اليوم سيعرض فناً عالياً ويأخذ من التار بثأره فيستخرج منه طرباً لن يتحمله هو نفسه فيبكي مضطراً ولم يكن يدري لماذا يبكي، ولكنه كان يتمنى في قرارة فؤاده أن يتمكن أن يعزف بشكل من الجودة بحيث يبكي. لن يطمئن إلى أنه عزف جيداً إلا عندما يبكي من صوت آلته. لم يكن تمكن حتى الآن أن يعزف على النحو الذي يريد. كان كل عزفه للناس، الناس الذين يبحثون عن مسراتهم المفقودة والهاربة في أصوات تاره أو في قعر أنغامه الحزينة.

(*) يبدو لي أن آل أحمد استأنس هنا للألاعيب اللفظية، فالـ (تار) اسماً هو الآلة الموسيقية الوترية عموماً، لأنه في الأصل: الوتر. وصفة هي مظلم وظلماء، وبإضافة (تر) إليها تصير أكثر ظلمة، ولهذا فقد امتلأت هذه الجملة بـ «تارات» عديدة مختلفة.

كل تلك الليالي التي غنى خلالها أنغاماً وعزف في مجالس البهجة والسرور، في مجالس البهجة والسرور التي لا تجلب له غير سرور ممض ومفتعل، في كل تلك الليالي لم يقدر أن يبكي من صوت آلته.

لم يستطع أن يعزف علي الآلة بحيث يُبكي نفسه. فإما أن المجلس لم يكن مناسباً وإما أن الناس الذين كانوا يعطونه المال ويدعونه لم يكونوا يريدون تلقي دموعه بالمقابل، أو أنه هو نفسه ـ خشية تقطع الأوتار ـ كان ينقِّل الريشة أرق وأبطأ بكثير مما يستطيع. وكان مطمئناً أيضاً من هذا، متأكداً من أنه عزف وغنى أخف كثيراً وباحتياط أكبر مما كان بمقدوره أن يفعل.

كان يريد ألا يسبب مللاً بالعمل بعد. ألا يحتاط بعد. الآن إذ تمكن بهذا المال ـ «عديم البركة» حسب قوله ـ أن يشتري آلة، فهو قد بلغ منيته. الآن كانت الآلة ملكه. صار بمقدوره الآن أن يعزف، على راحته، ما يهوى فؤاده. صار بمقدوره أن يعزف التار على نحو يجعله يبكي.

مضت ثلاث سنوات وهو يغني. ولهذا السبب ذاته ترك المدرسة. كان يجلس دائماً في آخر الصف ويزمزم مع نفسه. لم يكن الآخرون يبالون ولا كانوا ينتبهون، ولكن معلمهم لمادة الحساب كان بالغ التشدد. وكان ينزعج من زمزمته بحيث يصير عصبياً فيغضب على الصف. كان قد تعهد ثلاث مرات أو أربع ألا

يزمزم في الصف ، ولكن أكان هذا ممكناً؟ في السنة الأخيرة فقط لم يعد أحد يسمع زمزمته من آخر الصف . كان من كثرة التعب ومن كثرة السهر بحيث كان إما يبقى في فراشه حتى الظهر ، أو ينام في الصف . ولكن هذه القصة أيضاً لم تدم طويلاً ، وترك المدرسة بعد قليل .

في السنة الأولى كان قد أتعب نفسه كثيراً . كان يغني كل ليلة ويعزف وينام حتى الظهر كل يوم .

ولكنه رتب عمله بعدئذ بالتدريج ولم يعد يقبل دعوة الأشخاص لأكثر من ثلاث ليال في الأسبوع . كما أنه نال شيئاً فشيئاً شهرة ، ولم يعد محتاجاً إلى أن يراجع هذه الفرقة الموسيقية أو تلك .

كان الناس قد عرفوه . ويأتون إلى باب بيته المتواضع فيوصون أمه ويؤكدون أن يأتي فيقضون ، على هذا النحو ، أمسية بهية .

مع ذلك ، كان الشغل مرهقاً . كانت أمه تحس أنه ينحف يوماً بعد يوم . لم يكن هو نفسه منتبهاً إلى هذه المسألة ، كان لا يفكر إلا في أن يكون له تار . وأن يتمكن ، بالتار الذي يملكه ، أن يعزف كما يهوى . ولم يكن هذا ممكناً بسهولة . في هذه المدة الأخيرة فقط ، بالإنعامات التي نالته في عرس محترم ، تمكن أن يضع شيئاً جانباً ويشتري ثلاثي أوتار جديداً . والآن إذ صار صاحب تار ، لم يكن يدري ما أمنيته الأخرى . لابد أنه كان ممكناً أن تكون له أمنيات أخرى . لم يكن فكر في هذه المسألة بعد . ولم يكن الآن يفكر إلا في أن يوصل نفسه إلى مكان ما ويفحص ثلاثي أوتاره

جيداً ويطّلع على تفاصيل أسراره. حتى في هذه المباهج والمسرات المفتعلة، عندما كان التار تحت يده، ويغني على أنغامه أغنية ما، كان يغوص في عدم الانتباه ويصير من الهدوء بحيث لم يكن يرغب قط في أن يضع التار أرضاً. ولكن أكان ذلك ممكناً؟ كان البيت بيت الأغيار والطرب والسرور طرب الآخرين وسرورهم وما كان له إلا أن يحيي مجالس الآخرين.

في ليالي الشتاء الطويلة، عندما كان يعود من أمثال هذه المجالس متعباً هالكاً ويبحث عن بيته في الظلمات، كان يحس الحاجة إلى هذه الحرارة الباطنية حية ومنتعشة بحيث كان يظن أنه لن يستطيع، من دون وجودها، حتى أن يوصل نفسه إلى البيت. كم مرة في أمثال هذه الأحوال ركبه الخوف وأوصل كثيراً من الليالي إلى الصباح في زوايا الخمارات سعياً وراء ضالته.

كان ضعيفاً جداً. كان يشبه كثيراً، عند النظرة الأولى إليه، إنساناً مدمناً على الأفيون. ولكن الهياج الذي كان فيه اليوم، والحرارة التي كان يحسها في داخله منذ ساعة حتى الآن ـ منذ أن صار صاحب ثلاثي أوتار ـ ورّدا وجنتيه وسخّنا جبينه.

بأفكاره هذه، كان قد وصل الباب الكبير لمسجد الشاه ومدّ قدماً فوق الحجر الصقيل لعتبته بحيث قفز صبي حانوت العطور ـ الذي كان يراقب من فوق مصطبة إلى جانب المسجد حانوته، ويلف مسبحته بانتظار مشتر ما ـ من وراء بساطه إلى أسفل وأمسك به من معصمه.

ـ يا عديم الدين! بآلة الكفر هذه داخل المسجد؟ في بيت الله؟!

انقطع حبل أفكاره. انمحت الحرارة التي وجدت حديثاً الطريق إلى قلبه. دار رأسه قليلاً أولاً، ثم أدرك شيئاً فشيئاً ما كان الصبي يقول. لم يكن أحد قد انتبه بعد. لم يكن المارة كثراً. كان الجميع مشغولين ببسط باعة الخردوات. لم يقل شيئاً. بذل جهداً كي يخلص معصمه ويواصل سيره، إلا أن صبي حانوت العطور ما كان ليطلقه. كان قد أمسك بمعصمه وهو يوالي الآن إطلاق اللعنات ويصرخ شاكياً:

ـ يا رُجيل عديم الدين، أفلا تستحي من الله؟ لا أقل من بعض الخجل.. الحياء.

حاول مرة أخرى أن يبذل جهداً كي يطلق معصمه وينصرف إلى شأنه، ولكن الفتى لم يكن ليرضى وكأنه كان يتلافى كساد السوق بإيجاد المشكلات له. كان شخص أو إثنان قد تنبها شيئاً فشيئاً، فتحلقا حولهما. ولكن لم يكن أحد يدري بعد ما الأمر. لم يكن أحد ليتدخل بعد. كان قد تأخر كثيراً.

كان واضحاً أن أموراً ستقع عاجلاً. ولكن البرد الذي كان يشمل فؤاده زال مرة أخرى. أحس سخونه في قلبه، وبعد ذلك في دماغه. انفعل. أضاع عنانه فوجّه بيده الأخرى صفعة محكمة إلى خد الصبي. انقطع نفس الصبي وابتلع لعناته وشتائمه. فجأة استولى

عليه الدوار. كان قد نسي معصمه وأخذ يفرك وجهه بكلتا يديه. ولكنه انتبه فجأة فقفز عن مكانه. كان على وشك أن يدخل المسجد بثلاثي أوتاره عندما تشبث الصبي بذيله وأعاد الإمساك بمعصمه.

نشبت المعركة. تدخل كثيرون. كان الصبي لا يزال يصرخ، يقذع في الشتائم ويلعن الكفرة، ويلتهب من الإهانة التي لحقت بعتبة باب بيت الله، ويستدعي مساعدة المسلمين.

لم يفهم أحد ما الذي جرى. ولم ينتبه هو أيضاً. وفقط عندما اصطدم ثلاثي أوتاره بكأسه الخشب بالأرض وانكسر بصوت قصير طنّان وصار ثلاث قطع، وتطايرت أوتاره ـ المتشابكة المتجمعة على شكل أنبوب ـ فطارت بعيداً، وقف هو مذهولاً متحيراً إلى جانب وراح ينظر إلى الحشد؛ كان صبي بائع العطور، المطمئن إلى أنه أدى واجبه الديني على خير مايرام، قد ارتاح باله. شكر الله من صميم فؤاده، وعاد ثانية إلى وراء بساطه ورتب رأسه ووجهه وانشغل بتلاوة الأذكار مسبحاً.

كانت كل أفكاره ـ شأنها شأن أوتار آلته المتشابكة المضمومة ـ في قعر البرد الذي وجد طريقه ثانية إلى فؤاده وراح يسري شيئاً فشيئاً إلى ذهنه أيضاً، والتم على نفسه في زاوية ما. وتشظى قدح أمله، مثل كاسة تلك الآلة الجديدة ـ إلى ثلاث قطع، وكأن قطعه راحت تمزق قلبه.

هوامش

(١) مسجد كبير مجاور لسوق طهران. والسلالم المذكورة هي سلالم ينزل بها من الشارع الرئيس إلى مدخل المسجد الأوطأ مستوى.

* * *

هنا تنتهي القصص التي اخترناها من مجموعة «ثلاثي الأوتار» المنشورة سنة ١٩٤٨.

حفل طبخ «السَمَنو»[1]

كان الدخان قد غطى الباحة بأكملها، والصخب والازدحام أكبر منهما في كل السنوات السابقة. أكلت النسوة غداءهن وهن واقفات، ومهما فعلن لم يستطعن أن يُنمن الأطفال. أخرجن الرجال من البيوت كي يستطعن أن يرفعن شوادرهن عن رؤوسهن ويضعنها في بقجات فيركضن بيسر إلى هذا الاتجاه أو ذاك. كان صراخ وضجيج الأطفال الذين ركبهم النحس وهم لا يعلمون أنهم نعسانون، وصخب الصحون التي ينقلونها إلى هنا وهناك، وتحركات الجارات اللائي جئن للمساعدة وطقطقة الحذاء ذي النعل الخشبي لسكينة ـ خادمة البيت ـ التي لم يكن للأخريات أي امتياز عليها ـ كل هذه الأصوات تعلو على سطح المنزل وتذكّر كل أهل الحارة ـ هي والبخار والدخان المتصاعدان في بعد الظهر ذاك من كل فضاء الباحة ـ أنهم يطبخون في بيت الحاج عباس قلي آقا نذرا. وسمنو نذرياً بالذات. لأن الأيام كانت الأيام الفاطمية[2]، والسمنو هو النذر الخاص لامرأة الحاج.

تهتز السيدة مريم ، زوجة الحاج عباس قلي آقا ، ثقيلة وسمينة ، بساقيها القصيرتين وردنيها المشمّرين ، وتروح وتجيء . كانت إحدى قدميها في المطبخ ، الذي ينخفض عن أرضية الباحة خمس درجات ، والأخرى في غرفة الزاوية والمخزن وقدمها الأخرى عند السماور . ومع أن كل عملها كان منظماً ، وأنها جعلت ابنتها فاطمة مسؤولة عن الأوعية ، وأجلست رقيتها ـ وهي أصغر ـ عند السماور وأنها هي كانت مسؤولة عن المطبخ ، إلا أن فؤادها لم يكن يطاوعها أن تترك البنتين بمفردهما . ولهذا السبب كانت تواصل الرواح والمجيء . تمر بكل مكان . توجه الأوامر لكل شخص . مقطوعة الأنفاس ، تجامل القادمات حديثاً ، تخيف الأطفال محذرة ألا يتشيطنوا ، تدعو بالخير والسوء ، وتمر بجفنة السمنو .

ـ «رقيّة! . . هَيْ يا رقيّة! أأخذت شاياً للسيدة كُلين؟» ، ولا تبقى تنتظر جواب ابنتها التي تقول:

ـ على عيني! سآخذه الآن .

ـ هَيْ يا عباس أذلّك الله! لو طالتك يدي فسأشويك في الشمس .

ـ ما الذي فعلته؟ يا إلهي! فيش!

ـ يا سيدتي العزيزة ، مرحباً بك حقاً . أجرك على فاطمة الزهراء . كيف حال كنّتك؟

ـ تقبّل قدميك يا خانم ، إن شاء الله عرس ابنتك . ليتقبل الله نذرك .

ـ يا ابنة العمة ، أظن الوقت قد حان لنبعد النار عن تحت الجفنة ، ها؟

ـ لا يا أماه . ما زال ثمة عمل نصف ساعة .

ـ أواه يا أختاه لمَ تأخرت إلى هذا الحد بالمجيء؟ لم يكن مجلس عزاء يا أختاه!

وعلى صوت السيدة مريم ، التي كانت تستقبل أختها هاشّة باشّة ، اندفع الأطفال صارخين :

ـ يا خالة ذات السكر نبات ، خالة سكر نبات .

ويتسلقون بأيديهم الطوال ظهور وأكتاف بعض . لم يكن للخالة أطفال ، ويعرف كل أطفال العائلة أن جواب تحيتهم سكر نبات . أخرجت الخالة من تحت الشادر كيسها القماش . سحبت سحّابته ووضعت قطعة سكر نبات في يد كل واحد من الأطفال . ولكن الأطفال لم يكونوا واحداً أو إثنين . لم يكن لمريم خانم أكثر من خمسة أطفال؛ فاطمة ورقية وعباس ومنير ومنصور . ولكن ذلك اليوم علم الله وحده كم طفلاً مدوا أيديهم من أجل السكر نبات . انتهى السيران ونصف[٣] من سكر النبات ، الذي كانت الخالة اشترته في الطريق ، في طرفة عين ، وما زال صراخ الأطفال عالياً أن:

ـ يا خالة سكر نبات ، خالة سكر نبات .

عندما انتهى كل السكر نبات ، وبحثت الخالة في كل زوايا الحقيبة ، أخرجت قطعة خمسة قرانات[٤] ، وسحبت عباساً ـ الذي كان غلاماً ابن سبع سنوات أو ثماني ـ جانباً ، وضعت النقد في كفه وقالت في أذنه:

ـ اركض بارك الله فيك ! قران منه لك ـ واشتر بالأربع هزارات[٤] سكر نبات أعطه للأطفال . . . ولكن لا تتحايل ، ها!

لم تكن جملة الخالة الأخيرة قد انتهت عندما انطلق عباس راكضاً باتجاه باب الباحة ، والأطفال أيضاً على أثره .

ـ الحمد لله ، يا أختاه! ليتك كنت أتيت أبكر . أهلكونا .

مع أن الأطفال راحوا ، إلا أن شيئاً من صخب البيت لم ينقص . وكانت النسوة ـ بضفائر مضفورة رفيعاً وأردان مشمرة وفتحات صدور بقيت سائبة مرخاة لكثرة ما أرضعن الأطفال ـ يستعجلن ، يحتطن ، تساعد إحداهن الأخرى وقد ملأهن الحماس من أجل إطلاق بساط السمنو . كن جميعاً يرحن ويجئن سريعاً سريعاً ، يحتككن ببعضهن ، يحيين بعضهن ، يتمازحن ، يغمزن بعضهن ، ويتبادلن اللمز والطعن لكنات وضرات وأمهات أزواج بعضهن بعضاً .

ـ أواه يا ابنة العم، رأيت ابنك. المسكين كم صار نحيلاً! قولي لكنّتك الحشرية هذه أن تقلل هريه.

ـ وا! يا للكلام! عيب يا بنت. ما زال فمك يفغ رائحة حليب(٥).

ـ واه يا صغرا خانم، على رأسي التراب! أرأيت أوشكت زهرائي العزيزة هذه أن تنشر خبر موت ضرتك أيضاً. لو أن أم (فولا د زره) هذه تطّلع لاشتعلنا جميعاً وتطايرنا في الهواء مثل هذا الدخان.

ـ إيه. . هذه أيضاً واحدة من عباد الله. إنها لا تأكل رزقنا!

ـ رزق من تأكل إذن؟ لو أن هذه العفريتة لم تكن جلست عند قدمي زوجك ما كان حالك ومصيرك يصيران اليوم هكذا.

قالت الجملة الأخيرة مريم خانم، التي كانت أخذت شادر أختها للتو، وهي تمر إلى ذاك الطرف تريد أن تأخذه إلى خوان الملابس. توقفت عند الخوان وجهاً لوجه مع أختها التي كانت تمشي معها خطوة خطوة وأضافت بصوت خفيض:

ـ أترين يا أختاه؟ الدود من الشجرة ذاتها(٦). إن النسوة الصفيقات عديمات الشعور والحياء هن من يجعلن زوجي الأحمق يذهب مع خمسة أطفال أو ستة فيجلب على رأسي ضرة.

ـ حقاً يا أختي خانم(٧) ما الخبر الجديد من تلك الأطراف؟ ألم

تلد ضرتك بعد؟ إن شاء الله ليصبها التركمان. يقولون إنها تتوجع منذ ثلاثة أيام. عساها على لوح المغتسل! والحاج قوّادي[٨] أيضاً لا بد أنه جالس الآن عند رأسها يمسح عرق جبينها. عديم الغيرة، يستغل الفرصة!

- عسى ألا تكوني لهذا السبب نقعت السنة حنطة أكثر؟!

- أوه يا أختاه! ما هذا الكلام؟ لماذا تلومين أنت أيضاً؟

وخرجتا من عند خوان الملابس وانطلقتا نحو المطبخ الواقع في الجانب الآخر من الباحة.

- لنذهب فنطل على الموقد يا أختاه. أضاع منّ حنطة هذه السنة الكيل من يدي. الق أنت أيضاً نظرة، فأنت أمهر في التدبير المنزلي مني.

وعندما وصلتا باب المطبخ، التفتت مريم خانم وقالت لكل النساء اللائي كن يغسلن الأطباق أو رافعات أطفالهن بوضع التبوُّل أو ينشرن سراويل الأطفال المبتلة على حافة الإيوان أو وضعت الواحدة منهن رأسها في جيب الأخرى وراحت تقول شيئاً ويتضاحكن مقهقهات:

- هَيْ! فلتأت القويات والفتيات. حان وقت طلبكن الحاجات.

وقالت ضاحكة لأختها:

- يحتاج خلطها الآن إلى قوة. العمل اليوم عمل قليلات النوم.

وهبطتا السلالم وفي أثرهما سبع فتيات في سن الزواج أو نساء ذوات قدّ وقوام أو ثماني.

نقعت مريم خانم هذه السنة، نذراً للخمسة[٩]، منَّ حنطة أكثر من السنوات السابقة. في حين كانت أختها قد نذرت اللوز والفستق والبندق. أما المرجل فكانت تستأجره من بائع الحليب الجوال. على أية حال، كان العمل في السنوات السابقة أسهل كثيراً. لم يكن ثمة مثل هذا الازدحام والضجيج، وكانت هي وبناتها يتناولن، بيسر، رأس المرجل فيرفعنه أو يُنزلنه، وعندما يغلي فيفيض يرفعنه عن النار. ولم تكن كل هذه الأوعية لازمة. ولكن هذه السنة، لزمن عزاءً منذ أول العمل، أرسلن فجلبوا لهن المرجل الكبير من المسجد ومنحن متولي المسجد ـ الذي كان جلبه على رأسه لاهثاً، ودخل من باب الغرفة المشرع الذي هو صغير عليه ـ تومانين إنعاماً. ولما رأين أن الموقد صغير بالنسبة له أرسلن فجلبوا لهن من السرداب عشر، أو خمس عشرة، طابوقة منتظمة يعلم الله قبل كم سنة فاضت عن تبليط أرضية الباحة، فصنعن وسط المطبخ موقداً مؤقتاً وضعن المرجل فوقه. وعندما كن يملأن المرجل ماء أيضاً عددن إلى أربعة وعشرين دلواً، ولكن لكثرة ما أثار الأطفال من صخب ورفعت العجائز من الصلوات أفلت الحساب منهن بعد ذاك. ثم كن قد جمعن فرش إحدى الغرف، وجلبن إليها كل ما كان موجوداً من أوعية مجموعة مجموعة فوضعنه في الغرفة وداخل الأرفف؛ جلبن كل الطاسات

والصحون النحاس، كل الصيني وبدل الصيني، وكل الصواني والمجمعات. وفتشن أيضاً في بطون الصناديق فأخرجن أوعية الصيني الصغيرة العتيقة أيضاً التي لم تكن تظهر، في كل عمر العائلة، إلا وقت تحول السنة وعند بساط الـ سبعة سينات[١٠]، أو في الأعراس و ـ لا سمح الله ـ المآتم.

كانت فاطمة، بنت مريم خانم التي في سن الزواج، قد وضعت سريراً خشبياً في أحد جوانب غرفة الأوعية، وصفّت فوقه الأوعية الثمينة وبقية الأوعية مصنفة إياها حسب ترتيب حجومها، وعدّتها جميعاً، وقبل ساعتين، لما تناولن الغداء، أخبرت أمها أنه قد اجتمع ست وثمانون كاسة وبادية وكأساً وقدحاً وصحن مرق وصحن لبن وصينية وحوضاً. وتوصلت أمها، بعد المشاورة مع ابنة العمة، إلى أن الظروف ما زالت قليلة، فاضطرت أن تنادي على الجارات وتطلب من كل منهن أن تجلب ما عندها من ظروف إضافية، كما أوصتهن أيضاً بهذا:

ـ ولكن فدى لأشكالكن، أريد أن تجلبن النحاس وما أشبه فقط.. لو جئتن بالخزف ولا سمح الله أصيب بعضه بعيب وعلة فإن الخجل سيلحق بي.

وكانت نساء الجيران الآن يصلن، شادّات الشوادر حول أوساطهن وعاقدات أطرافها ويجلبن مجموعة مجموعة أوعية النحاس

ويودعنها لدى فاطمة خانم فتعد فاطمة أوعية كل واحدة وتتسلمها وبنتفة التعلم الذي عندها، تسحب دبوس شعرها فتكتب بذؤابته على جص الجدار:

«كَلين خانم طاقم كاسات مطلية.. همدم السادات إجانتين.. آبجي[١١] بتول ثلاث باديات نحاس..» وكانت اثنتان قد جلبتا دورقين وواحدة سطلاً. ولقد فكرت فاطمة مع نفسها: «كم زائدة الادعاء!»، وفيما هي تتسلم الظروف كانت تقول:

ـ أشرن بأنفسكن أيضاً كي لا تختلط وتضيع وقت التسليم.

ـ واه! ما هذا الكلام؟! يا فاطمة خانم العزيزة أنت نفسك ما شاء الله متعلمة وتعدّين قائمة.

ـ لا، إنني أقول لمجرد الاحتياط. لا عيب في تدقيق الأمور وضبطها.

وكانت الجارات قد عدّت كل واحدة منهن في الزقاق أو في مجاز البيت كاساتهن وبادياتهن ورسمن تحتها بذؤابة سكين أو بشيء ما خطاً أو دائرة فأشرنها ولكنهن يتظاهرن الآن بعدم الاهتمام ويرققن جفونهن ويذهبن. وكانت امرأة سقاء الحارة واحدة من هاته الجارات أيضاً اللائي جلبن كاسات وباديات، جاءت محتضنة طفلها ووضعت، من تحت شادرها، كأس نحاس، محدثة صخباً، على السرير وقالت:

ـ اسود وجهي يا فاطمة خانم. لا يمكن العثور في بيت الشحاذين الجياع على أوعية.

استدارت فاطمة، التي كانت منشغلة بالحساب وتجمع أوعية الجارات عند الجدار الجصي، وما أن وقع نظرها على كأس النحاس حتى برقت عيناها ثم ألقت نظرة على وجه امرأة السقاء وقالت:

ـ ما هذا الكلام أيتها السيدة العزيزة، فالأمر ليس أمر تظاهر. أجرك على حضرة الزهراء.

ووضعت على الجدار علامة، وعندما ذهبت امرأة السقاء رفعت الكأس ووضعته على رؤوس أصابع يدها اليسرى الخمس، ونقفته بيدها اليمنى وأصغت بانتباه إلى رنين جرسه، ثم قرّبته إلى أذنها، وهذه المرة ضربته بدبوس شعرها وأصغت إلى صوته الممتد والحاد فاستيقظت ـ فجأة ـ كل الذكريات التي كانت مقترنة مع هذا الصوت وهذه الكأس في ذهنها. تذكرت كم مرة وقعت على الارض بهذه الكأس ذاتها وكم نقفتها وأنها كلما شربت منها ماء كانت تلتذ من اصطدامها بأسنانها، وفي أوائل بلوغها، عندما لم يكونوا يسمحون لها بأن تنظر في المرآة كثيراً، كانت تتأمل وجهها في ماء هذه الكأس النحاس ذاتها. وغرزت أصابعها في شعرها وتذكرت أخيراً الوقت الذي فُقدت فيه الكأس قبل أربع سنوات، في أحد أيام طبخ السمنو هذه، وكيف أنهم لم يجدوها مهما بحثوا عنها. ومرة أخرى قرعتها، هذه المرة ضربتها بكاسة نحاس أخرى فكان الصوت

من حسن الإيقاع وبداعة الرنين وارتفاعه بحيث نهضت أختها رقية عن السماور وجاءت راكضة على الصوت، وعندما وقع بصرها على الكأس قفزت فأخذته وقالت:

ـ شكراً يا إلهي! يا أختاه. قلت إنه سيتم العثور عليها أخيراً. كنت قد نذرت شمعة.

ـ هس! لا تكشفي الأمر. اركضي فاهمسي لأمنا كي تأتي إلى هنا.

بعد دقيقتين أوصلت الأم ـ لاهثة منفوخة العينين محمرة الوجه ـ نفسها وما أن وقعت عيناها على الكأس حتى قالت:

ـ نعم. هي ذاتها. إنني أتذكر مكوّنات جهازي واحدة واحدة. ليصبكن الله بالذل! أية ابنة محروق جاءت بها؟

ـ أوطأ يا أماه! جلبتها امرأة سقاء الحارة. يعني أنه عملها؟

رطّبت الأم ظهر يدها، التي كانت احترقت عند الموقد، بلعابها وقالت:

ـ ماذا إذن؟ عن بنات المحروقين هاته يصدر كل ما تفكرين به. لا يدعن خروف الأضحية سالماً إلى لقمة الضحى!

ـ لماذا تغسلين خطايا الناس، يا أماه؟

ـ ما تقولين يا بنت! يعني أن زوجها الديّوث حصل عليه من مجرى الماء؟ بيت دب وبادية نحاس[١٢]؟ اكتمي الموضوع الآن. وتذكري أيضاً أن نصب لها السمنو في وعاء آخر. وعندما يأتي القواد أبوك سأقول له أن يحل المسألة مع السقاء نفسه. وعندما ينتهي عملك أقفلي الباب كي لا تضيع أموال الناس. وتعالي أنت نفسك أيضاً حرّكي فاخلطي قليلاً لعل بختك ينفتح.

ـ إيه يا أماه، ما هذا الكلام؟ وهل استطعت أنت مع كل هذه النذور والأدعية أن تمنعي أبي؟

مرة أخرى رطبت الأم ظهر كفها بلسانها وقطبت وجهها وقالت:

ـ إيه إيه. لا تغرزي أنت أيضاً إبرة في بؤبؤ عيني. أنا أدري وابنة النبي. ما لم آخذ حاجتي لن أحل عن ذيلها. قومي تعالي فلم يعد العجائز قادرات على خلطه في هذه المرحلة.

ولم تكونا قد أغلقتا باب غرفة الظروف بعد عندما امتلأت الباحة مرة أخرى بصخب الأطفال الذين انهمروا داقّين قارعين صارخين ومضى إثنان منهم، كانا قد وصلا آخر الجميع، إلى الخالة سكر نبات شاكيين:

ـ عباس هذا أعطى الآخرين قطعتين وأعطانا قطعة واحدة سكر نبات. أوهوووو.. أوهووو..

وكانت الخالة تهدئ الأطفال وعلى وشك أن ترسلهم جميعاً في مهمة وهمية، إذ ارتفع فجأة صوت وزعقت إحدى النسوة. كان طفلها قد سقط في حوض الماء. كانت تركض حول الحوض وتصوّت وتصرخ. ماذا يفعلن وما لا يفعلن؟ كان الحوض عميقاً وما من واحدة تعرف اللعب في الماء كما أنهن سبق أن صرفن الرجال. اضطرت فاطمة خانم أن تقفز هكذا، بلباسها، إلى الحوض فأخرجت الطفل الذي بقي نصف ساعة يُخرج الماء من فمه وأنفه وقد ابيض كاللبن وأعدوا لأمه سكر نبات بارداً وفركوا كتفيها. أما فاطمة، التي خرجت من الحوض، فكان قميصها قد التصق بجسدها وانبسط شعرها وظهرت كل خطوط جسدها وكان بروز نهديها يرتجف. جلبن منشفة ولفوها بشادر صلاة فخلعت لباسها وجففنها ولففن برأسها منشفة رأس حمراء وأخذنها على عجل إلى المطبخ.

لم يكن بقي شيء على اندلاق رأس المرجل. كانت ثلاث نساء يلزمن المراقبة بانتظام ويخلطن، بنصف مجرفة ذات مقبض، السمنو كي لا ينعقد أسفله ويحترق. عندما تتعب الأولى، تأتي الثانية وبعدها الثالثة. في المطبخ صارت عيونهن جميعاً حمراء وانتفخت وكن يمسحن الماء، المتساقط من عيونهن فيحرق وجوههن، بذيول ثيابهن ويحسسن سخونة الموقد إلى منتصف سيقانهن وكراعهن. كن قد هيأن غطاء المرجل النحاسي الكبير وصببن فوقه الرماد وكن ينتظرن أن تقوم فاطمة خانم بآخر عملية خلط فتحمى وتعرق كي

يضعن غطاء المرجل ويحملن النار من تحته ويصببنها على غطائه. . وإذا واه واويلاه! تذكرت مريم خانم فجأة أنهم لم يرسلوا أحداً بعد وراء السيد الشيخ عبد الله. فارتفع صوتها من المطبخ بالذات أن:

ـ هَيْ يا عباس الذي عسى يصيبك الذل! بدلاً من كل هذا التعذيب اركض خبِّر السيد الشيخ عبد الله أن يأتي. أتعرف بيته؟

وأخرجت الخالة سكر نبات قطعة خمسة ريالات أخرى من حقيبتها وخرجت من المطبخ كي تضعها في يد عباس وترسله مرة أخرى. والآن سال العرق من رأس فاطمة ابنة مريم خانم التي في سن الزواج ومن وجهها وآن أوان غلي المرجل. غلين المرجل وجففن وجه الفتاة ورأسها ثم كنسن كل المطبخ ودفعن الرماد والفحم نصف المحترق إلى تحت الموقد وجلبن بضع كَليمات[١٣] حواشي[١٤] ففرشن أربعة أطراف المطبخ وأرسلن الفتيات اللائي لا أزواج لهن إلى الخارج ووضعن كرسياً لقارئ الروضة وتلفعت العجائز والمتزوجات بالشوادر ورتبنها على رؤوسهن وجئن إلى أطراف المطبخ فجلسن في انتظار روضة حديث الكساء يقرأها الشيخ عبد الله.

مع أنهن كن سحبن النار من تحت المرجل وأن الدخان والبخار انتهيا، إلا أنهن كن جميعاً يتصببن عرقاً وكن جميعاً يروحن أنفسهن بمناديل أو مراوح، وترقى سكينة ـ خادم البيت ـ مطقطقةً، السلالم وتهبطها وتجلب شاياً وأرجيلة وتسلم مراوح بأيدي النساء. كن

عشرين امرأة ونيفاً. كان ثمة أرجيلة، منقوشة بالورود والزهور، تحت شفتي ابنة العمة الجالسة بين مريم خانم وأختها عند سلم المطبخ وقد سقط چارقدها[١٥] الململم على ركبتيها، وأخرى تحت شفتي بي بي زبيده، التي كانت أم زوج الخالة سكر نبات والتي كانت عمياء وقد سمرت عينها المطفأة بنقطة واحدة. كانت ابنة العمة «كُل بته» على النحو نفسه الذي كانت تخرج به دخان الأرجيلة، تكلم خالة سكر نبات:

ـ يا بنيتي العزيزة، قلت لك مئة مرة اتركي هؤلاء الدكاترة والأطباء. تعالي عندي فأجعلك تحبلين خلال أربعين يوماً.

ـ يا ابنة العمة، أنا شخصياً لا مانع عندي. قلتِ الزمي أربعينية فلزمت. قلتِ اقفزي في المغتسل من فوق ميت فقفزت وذاب نصف لحم جسدي. لا جعله الله نصيب أحد. مازلت لما أتذكر يرتجف بدني. قلتِ أعط زوجك دواء. أتتصورين أن تهيئة أربعين نطفة بيضة دجاج كانت عملاً يسيراً؟ وطول أسبوع كامل أيضاً؟ دعي البقال والعطار، فقد عرفني كل زبائن محلات الـ چلوكباب[١٦] أدنى السويق. ترين أنني لم أقصر في شيء. ولكن ماذا أفعل، فهو غير مقسوم لي! يجب أن أرى أطفال الناس فرادى وأزواجاً وأتحسر. وزوجي أيضاً ليس تاركاً الأمر، وها قد طرأ على فكره حديثاً أن الدواء والعلاج لدى هؤلاء الأطباء ليس بذي جدوى. يريد أن يأخذني إلى بلاد الفرنجة.

ـ واه! واه! حاسرة الرأس في بلاد الكفر! لم يبق لك غير أن تسلمي جسدك وبدنك بأيدي هؤلاء الكفرة الذين لا يعرفون الله! ثم ، ماذا تتصورين أنهم يستطيعون أن يفعلوا؟ إن أسرار وتفاصيل أعمالهم جميعاً عندي . يأخذون نطفة الكلب والقطة فيجعلونها في بطون نسوان الناس .

ـ الآن كله كلام يا ابنة العمة . فليس هذا عنده المال اللازم ، ولا أنا جلبت من بيت أبي . ذاك يكلّف ، ليس هكذا .

قلبت ابنة العمة الفحم نصف المحترق ، في رأس الأرجيلة ، بيدها واتجهت إلى مريم خانم قائلة:

ـ حسناً يا أماه ، ماذا فعلت أنت؟

ـ لا شيء . على حالي أنتظر . قلبي يغلي مثل خل وثوم . وبسقوط فاطمة هذا في الحوض صرت نصف عمر . لابد أن ابنتي أصيبت بعين . كما أنه لم يأت أي خبر من هذه الخبيثة .

ـ لو أنك فعلتِ كما قلتُ ، ليطمئن بالك . لمن أعطيته في الآخر فأخذه؟

ألقت مريم نظرة فيما حولها ونظرت إلى الجميع إذ كن يتكلمن كل اثنتين أو ثلاث معاً ويشربن الشاي ، وقالت بصوت خفيض في أذن ابنة العمة:

ـ بمن يمكن الوثوق في هذه الأيام؟ هذه البنت السليطة لم تخضع. الوقحة! أخيراً أخذته أنا نفسي. على هوى أن طبخ السمنو وشيك وأنني سأكون قد رفعت الكدورة، ذهبت إلى بيتها كي أدعوها، زعماً، لهذا اليوم. كنت أدري أنها على وشك الوضع هذه الأيام. قبل عشرة أيام، أو إثني عشر يوماً، لا أذكر دقيقاً. وحق فاطمة الزهراء كنت كأنني أقبّل شفة أفعى. كانت فاطمة أيضاً معي. ما أن جلسنا قليلاً، خرجتُ بحجة الذهاب إلى دورة المياه. لمخزن مائهم نافذة في الباحة وضعوا أمامها شباكاً حديداً. فيما كنت أمر من أمامهم رميته إلى خزان الماء. ولكن لا تعرفين يا ابنة العم! لا تدرين في أي حال صرت. تأخرتُ طويلاً في الخلاء بحيث أن فاطمة جاءت في أثري. تصورت أن قلبي انقبض مرة أخرى. لم يكن بقي في وجهي لون. هذا القلب، الذي صاحبته ابنة كلب، كان يكاد يتوقف عن العمل. وابنة المحروق الخبيثة أيضاً تألمت لحالي كثيراً. وبقربتها تلك نهضت فأعدت لي مغلي زهر لسان الثور. ولم ينتبه أحد قط أيضاً. ولكن لا أدري لماذا يضطرب فؤادي هكذا. تعرفين أن زوجي القواد ذهب منذ الصباح حتى الآن هناك. لا خبر. لا أثر. إن فؤادي ليخرج من حلقي!

ـ لكن لماذا؟ هاك خذي نفسين من الأرجيلة لتتحسن حالك.

ـ واه! واه! بهذا القلب الذي عندي؟ سأنهار يا ابنة العمة!

ـ ها؟ ماذا يا بنيتي؟

ـ لو سألتك شيئاً، لا تستائين؟

ـ لماذا أستاء يا ابنتي.

ـ قولي الحق يا ابنة العمة لأرى، ما الذي وضعت فيه من أشياء؟

رفعت ابنة العمة شفتها عن أنبوبة الأرجيلة وسمرت عينها بعين مريم خانم وسألت:

ـ ماذا جرى؟.. يا بنيتي لو كان مقرراً أن أقول فإن احترام الطلسم يزول.

ـ أتعرفين ماذا يا ابنة العمة؟ فبعد ذلك بثلاثة أيام مات كل سمك مخزن مائهم.

ـ حسناً، فدى لرأسك يا بنيتي! كان ذلك قضاء وبلاء أصاب روح الأسماك! ليته كان أصاب روح ضرتك. لو صارت أماً وأزالت كل قيمة لك أمام زوجك أفضل، أم موت سمك مخزن مائهم؟

ـ لكن يا ابنة العمة السوء في الأمر أنهم في اليوم التالي أفرغوا ماء المخزن، يعني عسى ألا يكونوا شمّوا شيئاً؟!

ـ لا، يا بنيتي. ذلك الطلسم ذاب في يوم واحد. ليطمئن بالك. عساك لا عدت يائسة بحق الخمسة!

. ووجهت رأسها نحو الطاق وأخرجت حشرجة مهموسة مع دخان الأرجيلة. ولم تكن قد جعلت الأرجيلة تصوّت ثانية بعد عندما ارتفع صوت بي بي زبيده من الطرف الآخر للمطبخ وكانت تحدق إلى نقطة واحدة في المطبخ، متسائلة:

ـ يا مريم خانم، ماذا فكرت لابنتك التي في سن الزواج؟

ـ ما عندي أفكر فيه يا بي بي؟ هي جالسة تنتظر بختها. ماذا فعلنا نحن؟ بقينا في بيت الأب طويلاً حتى جاء قواد ما فأخذ يدنا واقتادنا وأخذنا. ثم الرحمة على حليبنا إذ تركنا ابنتنا تقرأ ثلاثة فصول، لا مثل أبينا الذي قصّر بحقنا في هذا الشأن. ليعفو الله عن أموات الجميع من أجل خاطر صاحبة هذه المناسبة.

ـ إيه يا أماه. ادعي أن يكون جبينها عالياً. حتى المتعلمات يبقين اليوم بلا زوج. قصدي أنه إن ظهر شاب مطأطأ الرأس مستقيم الطريق لا ترفسي بخت ابنتك بهذه الذرائع التي انوجدت حديثاً!

قربت مريم خانم نفسها من ابنة العمة وقالت بحيث تسمع أختها أيضاً:

ـ العريس الذي تجده هذه العمياء ذات المخاط لابنتي يليق بضفائرها هي. أي خير فعلت لابنتي حتى. .

تبسمت الخالة سكر نبات بسمة، ولكي تكون قد غيرت الموضوع اتجهت نحو أم زوجها وقالت:

ـ أرأيت أيتها السيدة الجليلة؟ قلتُ إنه ينقص منَّ لوز وبندق! لو أصابت كل كاسة حبة واحدة!

ـ يا أماه الإسراف حرام. إن بندق السمنو ولوزها لا يراد به إشباع البطن. ليتقبل الله نذرك. حتى إذا كانت حبة الهال فارغة فإن لها أجرها أيضاً. .

لم يكن كلام بي بي زبيده قد انتهى عندما هبطت سكينة، مطقطقةً، السلالم وقالت شيئاً في أذن مريم خانم، وما أن أوشكت مريم خانم أن تتحرك حتى أنزلت امرأة نحيلة طويلة، لها شعر وخطه الشيب، قد عقدت شادر صلاتها حول وسطها وعلى رأسها حوض كبير مغطى، قدمها عن آخر درجات المطبخ وألقت تحية بصوت عال وجلست بالضبط أمام مريم خانم التي كان قلبها يدق كمدراس الرزازين، وأنزلت الحوض عن رأسها فوضعته أرضاً. ثم التقطت أنفاسها ومن دون أن تفتح شادرها عن وسطها أو تكشف الحوض، قالت:

ـ سيدتي تبلغك السلام وتفضلت بالقول: شكراً لله أن نذرك قُبل.

كانت مريم خانم قد بلغ بها الارتباك بحيث أنها لم تدرِ بمَ تجيب. رفعت ابنة العمة الأرجيلة من أمامها في حين بقيت إحدى عينيها تتردد على الحوض والأخرى على المرأة النحيلة الطويلة.

كانت كل النسوة، الجالسات حول المطبخ بانتظار حديث الكساء من السيد الشيخ عبد الله، يعرفن أن المرأة النحيلة الطويلة

خادمة ضرة مريم خانم، وكان أكثرهن يعرف أيضاً أن ضرة مريم خانم يتوقع أن تضع حملها هذه الأيام، ولكنهن لم يكن يعرفن شيئاً آخر. لذا كن مضطرات أن ينظرن الواحدة إلى الأخرى وانطلق الهمس والنجوى فيما بينهن، وراحت بي بي زبيده ـ التي لم تكن ترى شيئاً ـ تسحب أنفاساً سريعة من الارجيلة وقد حدت أذنيها وراحت تلكز على الدوام بمرفقها جارتها ـ الخالة زهرا ـ وتسأل:

ـ ماذا صار فجأة يا أماه؟ ماذا جرى؟ ها؟

ضحكت الخالة زهراء، إذ تصورت أنهم جلبوا حوضاً بهذا الكبر من أجل السمنو، وقالت هامسة في أذن بي بي زبيده التي كانت لا تزال تدخن الأرجيلة وتبدي نفاد صبر:

ـ ليرحم الله هذا الاشتهاء! حوض بهذه الضخامة!

بقيت مريم خانم متيبسة وقلبها يدق ولم تكن عندها الجرأة حتى لمد يدها وكشف الحوض. أخيراً تحركت ابنة العمة (كُل بته) وأزاحت جانباً أرجيلتها التي كانت قد بقيت ساكتة أمداً ومدت يدها، وهي تقول:

ـ أماه، يا مريم خانم! لماذا ذهلت؟

وكشفت الحوض فإذا بمريم خانم تطلق فجأة صرخة ويغمى عليها. ازدحم المطبخ مرة أخرى. أوصلت بنات مريم خانم أنفسهن

على عجل وأخرجن، بمعونة الخالة سكر نبات، أمهن. هجمت النساء اللائي كن في الجانب الآخر من المطبخ وجالسات وراء المرجل فلم يكن يرين شيئاً وألقين النظر حتى أوشك المرجل أن ينقلب عن النار. ولكن ابنة العمة كُل بته أعادت بسرعة غطاء الحوض وحسبت حسابها فكانت تعرف ما ينبغي أن تفعل. أطلقت صيحة ونادت على سكينة. لزم الجميع الصمت وجلست اللائي هجمن في أماكنهن، وعندما جاءت سكينة هابطة درجات المطبخ قالت لها ابنة العم:

ـ الآن بالذات تضعين شادرك على رأسك وتأخذين هذا الحوض إلى بيت صاحبته. افتحي أذنيك جيداً وافهمي ما أقول. تأخذينه تسلمينه بيد صاحبته. تبلغين عني السلام وتقولين إن الواحدة لا تضع بزر فاسقها في طبق وتلف به المدينة. أفهمت؟

ـ نعم.

قالت سكينة هذا ووضعت الحوض على رأسها، وما كادت ترقى درجات المطبخ حتى انحدر السيد الشيخ عبد الله، قائلاً: يا الله يا الله، قارعاً العصا، فرتبت النسوة على عجل شوادرهن على رؤوسهن وغطين وجوههن. وعندما جلس السيد الشيخ عبد الله على الكرسي وبدأ يقرأ روضة حديث الكساء قائلاً: «بأبي أنت وأمي يا أبا عبد الله. . .» عاد نفس مريم خانم إلى حاله وأخذ صوت أنينها المتقطع يأتي من الطرف البعيد للباحة إلى موقع المرجل. . .

هوامش

(١) حلوى بدون مواد للتحلية! تصنع من نقع القمح وطبخ براعمه.

(٢) أيام العزاء لمناسبة وفاة فاطمة ابنة النبي محمد.

(٣) السير وحدة وزن تعادل ٧٥ غراماً تقريباً، أي أنها اشترت نحو ١٩٠ غراماً.

(٤) القران والهزار اسمان لعملتين ألغيتا، كانت قيمتهما تعادل قيمة الريال الحالي، ولكن بقي الاسمان يُستعملان مدة طويلة بعد إلغائهما.

(٥) المقصود حليب الرضاعة. أي: مازلت طفلة!

(٦) مثل سائر، بمعنى «الخراب من الأصل»، و«السمكة فاسدة من رأسها» وإلخ.

(٧) تخاطب الإيرانيات أخواتهن الأكبر بـ«أختي خانم»، أي: الأخت السيدة احتراماً.

(٨) أو: حاجِّيَّ القواد .

(٩) هم أهل الكساء: النبي وابنته وصهره وولداهما .

(١٠) تحول السنة هو انتهاؤها فلكياً، ولذلك عند الإيرانيين مراسم خاصة، من ضمنها بساط يُهيأ لـ«تدور» عليه السنة فيه فاكهة ونقل، ولابد أن تكون عليه سبع مواد تبدأ أسماؤها بحرف السين أحدها هذا الـ«سمنو» .

(١١) لقب احترام في مخاطبة النسوة الأكبر، وقد يعني: أختي الكبرى .

(١٢) مثل يُضرب استبعاداً لجمع شيئين .

(١٣) الـ«كَليم» بساط قصير الزئبر هندسي الرسوم .

(١٤) يستعمل لحواشي الغرف أو لمماشي البيت .

(١٥) منديل رأس مربع .

(١٦) طبق أرز بالكباب .

الكنز

«يا بناتي العزيزات، أنتن لا تتذكرن أبداً. كانوا قد أرسلوني مؤخراً، قبل سنتين أو ثلاث، إلى بيت الزوج. كنت قد فطمت حاج أصغرنا حديثاً، وكنت حاملاً برقيّة. .» على هذا النحو بدأت خالتي. كانت إحدى ليالي شهر رمضان عندما جاءت إلى منزلنا وبعد الإفطار، وقد أرثت لها معصومة سلطان، بعد الإفطار، أرجيلتها القَرعية طويلة العنق ـ التي تطيب مشاهدتها في المجلس في ليالي قراءة الروضة، وواصلت ـ وهي تضع الأرجيلة تحت شفتها ـ على هذا النحو:

«في زقاق السيد ولي هذا ذاته ـ الذي كان لوح قبره قد انكشف في ذلك الوقت وذهبت مع جدتي للفرجة ـ جعلت فداها! ـ على حجر رخام كتبوا بالذهبي بضعة عشر سطراً عربياً، ولكنني لم أستطع أن أقرأها مهما فعلت. ولم تكن عيناي قد صارتا ضعيفتين بعد، فقد كنت أقرأ القرآن خيراً من جدتي. لكنني لم أستطع أن

أقرأ خط ذلك اللوح. فلم يكن مشكولاً ومضبوطاً يا بناتي. . .
نعم كنت أقول هذا. . في هذا الزقاق إياه، كان ثمة رباط خرب
جداً، يمتلكه شيخ كان يتوسل إلى الله أن يظهر شخص ما فيشتريه
منه ويريحه. . ».

بعد أن أخذت الخالة نفساً طويلاً، وكان واضحاً أنها كانت
مرتاحة جداً لانطفاء الأرجيلة، وبعد أن جددت أنفاسها، قالت إنه
كان في حارتنا ذلك الوقت فتاة بائرة، تدعى بتول، الحقيقة أننا لم
نفهم في الآخر من أين نبقت. . أتذكر جيداً أنها عندما كان يحل
يوم عيد الفطر ـ كانت تهيئ خاماً، شيتاً أو أي شيء آخر، ببضعة
الفلوس التي تجمعها من هنا وهناك، وتأتي إلى داخل مسجد «الزقاق
ذي الباب»، وعندما تنتهي الصلاة، تخيط قميص المراد، ولكن
ذلك لم يكن يجدي أي نفع. . المسكينة، كان حظها أعمى تماماً.
هي نفسها كانت تقول: «لا أدري، الله العالم! لربما صنعوا لي
سحراً، تعويذة أو شيئاً آخر. لا أستطيع القيام بشيء. فليحاسبهم
الله نفسه. الخلاصة أن الطفلة اليتيمة البائسة رضيت أخيراً حتى بأن
تكون زوجة كناس. . ».

سحبت نفَساً آخر من الأرجيلة «ثم ظهر بائع جوال ـ كان
يبيع دائماً في زقاقنا مناخل ومصائد فئران، وأخذها. ولقد فرحنا
نحن أيضاً لان بتول حصلت أخيراً على الاستقرار. بعد تلك السنة
عند تحضيرات ليلة العيد حدث أن الناس أخذوا يفيقون شيئاً فشيئاً

وإذا بطباخ حلويات كان منذ القديم رفيقاً لزوج بتول ـ أوه، نسيت أن أذكر اسمه ـ رفيقاً لمشهدي حسن، يراه في رأس الزقاق ويقول: «يا رفيق! ليلة العيد، إن استطعت أن تأتي بشيء من المال، فأنا أعرف. . نطبخ نوعين أو ثلاثة من الحلويات. . . الله كبير، فربما يزدهر شغلنا»، ويكون مشهدي حسن مستعداً أن يقيما شغل طبخ الحلويات. لكنهما ما كان يدريان أين يستطيعان العثور على محل ودكان! يفكر مشهدي حسن أن يذهب إلى ذلك الرباط إياه فيقيما قدرهما وبساطهما في إحدى زواياه، فيذهبان معاً إلى ذلك الشيخ ويشرحان له القضية ويتفقان معه أن يعطياه قراناً في الشهر إيجاراً. ولكن العجوز يقول: «أنا أصلاً لا أريد مالاً! تعالا أقيما عملكما، والله بالنسبة لنا كبير». لا أدري منذ متى صُمَّت أذنا الخالة واضطررنا ـ كي نفهم كلامها على نحو صحيح ولا نحتاج إلى سؤالها عنه ثانية ـ أن نستمع إليها بدون أن نحدث صوتاً. لقد كانت تتحدث بصورة من الجذابية والتشويق بحيث أنه حتى الأطفال ـ الذين كانوا إلى ما قبل نصف ساعة يتشاجرون من أجل «سيدة الشباك» ـ لزموا الصمت الآن، وقد نظفوا آذانهم جميعاً. في هذه الأثناء لم يكن يند إلا صوت قرقرة أرجيلة الخالة أحياناً، وفي هذه الفاصلة القصيرة، كان صياح الأطفال يرتفع بشأن المكسرات والموالح. عندما سحبت الخالة نفسها من الأرجيلة، واصلت:

«تحدثكم روحي يا عزيزاتي، بأن مشهدي حسن وشريكه ذهبا إلى الرباط و. . أرادا أن يقيما في زاوية منه موقداً فيضعا قدرهما عليه. ما أن يضربا المعول الأول والثاني حتى يصطدم طرف المعول بصخرة ضخمة! يزحزحان ببطء طرفها وإذا بحجر عريض فضفاض. . ! عندئذ يفهمان كل شيء. يُفهم مشهدي حسن صاحبه على عجل أنهما يجب أن ينتبها. وعندما ذهب الشيخ إلى المسجد كي يصلي صلاة عصره، يغلقان باب الرباط ويذهبان إلى الحفرة التي كانا حفراها، يفتحان رأسها، ينكشف سرداب طويل عريض. يأخذان سراجهما ويدخلان. كان حول داخل السرداب مطلياً بالرمل والجير طبقة طبقة، وفي كل طبقة خمرات صفت مترادفة وفي كل منها مجمعة مقلوبة. راح مشهدي حسن ورفيقه الآن يذوب فؤاداهما فرحاً وسروراً. ما كانا يدريان ما يفعلان! كانت ليرات! بحجم صحن الشاي. الله وحده يعلم لمن كان هذا المال ومنذ زمان أي سلطان قديم خبئت. كانت جدتي تقول إنها ربما كانت وقف السيد ولي الذي كان لوحه قد ظهر مؤخراً. ولكن مهما يكن، فقد كان ذلك من نصيب آخرين. . يا بناتي». جعلت الخالة عينيها الصغيرتين أصغر وخلال بضع دقائق راحت تفكر، فيما أظن، بتلك الليرات الكبيرة ـ التي كانت تقول إن الواحدة منها بحجم صحن الشاي ـ كم كان سيكون جيداً لو كان عندها واحدة منها فقط: نعم، واحدة فقط! لتضعها في ثنايا قماط حفيدها الخامس، الذي جاء إلى

الدنيا حديثاً، عند ختانه. كم كان حسناً لو كان ثمة أيضاً اثنتان أو ثلاثاً من هذه الـ«خرزة الجرداء» وكان بمقدورها أن تصنع منها عقداً أو «وإن يكاد. . » أو زوج أقراط ثقيلة، وترسلها من أجل كنة الحاج أصغر! كم كان سيكون حسناً! ربما كانت تراودها أفكار أخرى أيضاً. . نعم يا بناتي العزيزات! لا تدرين ما القسمة! لو أن شيئاً كان مقسوماً للآدمي، فلا تستطيع حتى العنقاء أن تأتي من أعلى الجبل لتغيره. . الخلاصة: صنع مشهدي حسن ورفيقه حلواهما في أسبوع العيد، وأخرجا المال قليلاً قليلاً. وبطريقة لا تجعل الشيخ يفهم، بعد انقضاء ثلاثة أشهر أو أربعة أشهر على هذه الأحداث، اشتريا الرباط من الشيخ ـ بحجة أن شغلهما ازدهر وأن دخلهما كان جيداً ـ ولقد كان الشيخ يريد ذلك من الله! فأخذ ماله وقال: لتريا خيره، وذهب. وكنا نشاهد بتول يتحسن وضعها شيئاً فشيئاً، تضع عقداً ثقيلاً، وتصفّ أساور على كلتا ذراعيها، خاتم ماس، قمصان أطلس موشاة، منديل رأس من ململ خاص، و. . كلا. . ! تروح وتجيء مثل أميرة. على فكرة، نسيت أن أقول إنه منذ البدء. . منذ أن بدأ عملهما يتحسن، ولدت بتول لمشهدي حسن طفلة ولم يأتهما أطفال بعد ذلك».

نفس آخر من الأرجيلة و:

ـ «بعث مشهدي حسن صاحبه إلى كربلاء ومن هنا كان يضع الليرات والخرز الجرداء في بطانة الجل وفي حشية الهودج ويرسلها

له. فكان يبيعها هناك ويعيد مالها. خلاصة القول: ازدهر شغلهما. اشتريا الحارة من رأسها إلى آخرها. أعطوا لكل فقير بائس، من أقربائهما وأنسبائهما وغير أولئك، بيتاً وكان الجميع يظنون أن الله كان محباً لهما فجعل شغلهما يثمر. ولم يفهم أحد سرهما. ولقد ذهب مشهدي حسن نفسه في إحدى السنوات مع بتول لزيارة كربلاء، وإنني أذكر جيداً كيف كان شباب الحارة يقرآن لهما المدائح وكم أحرق لهما أهل الحارة السذاب والبخور. لا تعرفن يا بنات! وذهبا من هناك أيضاً إلى مكة وصارت بتول الآن ـ التي لم يكن معلوماً من هم أهلها وما شغلها وأين ستضيع أخيراً ـ زوجة حاج حارتنا! ليجعل الله ذلك نصيب عباده! يا إلهي! . . أنا نفسي ضاق فؤادي كثيراً . . إيه . . إحدى قدميّ عند حافة القبر، وقدمي الأخرى على سطح الحياة! ندخل اليوم . . نرحل غداً، ولكن حتى اليوم بقيت هذه الأمنية في قلبي أن أحتضن في الأقل ذلك القبر سداسي الأضلاع . . إيه ربي . . ! لن ينقص من جهازك شيء . . يا عزيز الزهراء . . ».

كان البكاء قد استولى على الخالة. بقي السامعون جميعاً فاغري الأفواه . . لا يدرون أيكون أم لا. كنت أحس أن الجميع يفكرون بأن قارئ الروضة يقرأ، فوق المنبر، الروضة. ولكن الخالة سرعان ما فهمت أنها أثارت الآخرين بلا مسوغ. مسحت بزاوية منديل رأسها الململ عينيها وسحبت نفساً محكماً آخر من الأرجيلة وواصلت:

«زوجة الحاج، أي بتول، بعد ابنتها الأولى تلك. . التي بلغت الآن الرابعة عشرة وصارت حلوة ناعمة، وكنت أنا قد رأيتها في الحمام فكنت أتمنى لو كان لي ولد شاب آخر كي أطرحها لصقه. . نعم، يبدو أن بتول فهمت بعد ذلك أن الحاج حسن يفكر في زوجة أخرى. إن كنتن تردن الحق فإن الرجيل عبد الله الصالح لم يكن يريد أن يبقي رغم كل ذلك المال والثروة، وكانونه مطفأ فينقطع نسله. ولابد أن بتول نفسها قد سمعت أيضاً من الملا أن النبي نفسه تفضل بالقول إن الزواج حتى من أربع جائز والصيغة[1]، علم الله، مجازة بقدر ما يشاء. ولهذا كانت تتشبث بكل شيء فربما يصير لها طفل ولا يأخذ الحاج امرأة أخرى. إنكن لا تعرفن يا بناتي ما الضرة! أنا، لم يرد الله أن تأتي علي رأسي. . ولكن كيف يسوغ للواحدة أن ينام زوجها في حضن امرأة صخّابة أخرى؟ وعليه، فقد ذهبت لرؤية كل كاتب أدعية موجود. نذرت كل شيء للسيد ولي، الذي كان لوح قبره قد انكشف مؤخراً، طبخت حساء العواقر، وقفت تتنصت ليالي الأربعاء، الخلاصة: فعلت كل عمل كانت تعرفه ويعرفه أهل الحارة، . . حتى فعَل آخرُها فعله وشاء الله فحبلت. ولعب الحظ لعبته وولدت هذه المرة صبياً أشقر. . ».

مرة أخرى سكتت الخالة وسحبت نفساً أو إثنين من الأرجيلة، ولما كان تنباك رأس الأرجيلة قد انتهى واحترق فحمه وراح يهس، فإن معصومة سلطان أخذت الأرجيلة بإكراه شديد ـ لأنها ستحرم من سماع بقية الحكاية ـ إلى الخارج وواصلت الخالة:

ـ «نعم يا بناتي العزيزات . . لا جعل الله يوم أحد سيئاً . . حقاً يمكن أن يسلم بيتنا يوماً للريح ويهدم كل ما بناه المرء ويجعله مدقعاً . . نعم يا عزيزاتي . كان حسين آقا ، ابن الحاج حسن ، قد جاء إلى الدنيا حديثاً عندما أصيب هو ، سيئ الحظ المسكين ، بالسل! لا تدرين ، لا تعلمن! كل ما كان يملكه أنفقه على مرضه فتجاوز أطباء الحارة ، وراحوا يجلبون له الأطباء من الشوارع الفوقانية وحتى من البلاط . . الخلاصة: جلبوا كل هؤلاء . ولكن ذلك لم يأت بأي فائدة . في كل مرة ، أجرة الزيارة العالية ، والوصفات الغالية . ولكن أين؟ عندما يكون الله لا يريد ، من الذي يستطيع أن يعطي الإنسان روحاً؟! الشخص الذي ينبغي أن يموت ، لابد أن يموت . أخيراً أنفق الحاج كل أمواله وممتلكاته على الدواء والعلاج ومات . وترك المسكينة بتول غارقة إلى حلقومها في الديون . وسرعان ما زوجت بتول ابنتها . وما بقي من بساط حياتها جعلته جهازاً وبعثت به مع ابنتها إلى بيت زوجها . وأخذ الدائنون منها بيت سكنها ، مع أن الناس كانوا أكثر رحماً حينذاك . فتركت ابنتها في الدرب ، ورحلت هي بلا خبر . . انفقدت! ولكن بعد سنة أو اثنتين رأتها ابنتي ـ في عرس إحدى زميلاتها في المدرسة ـ ترقص في فرقة هاته الراقصات اللائي يجيئون بهن إلى الاعراس . . » .

سكتت الخالة وتركت الجميع ينتظرن . لم يكن ثمة ، لبضع دقائق ، غير الذهول والصمت والانتظار . وأخيراً تكلمت أختي:

ـ يا خالتي العزيزة، ماذا جرى في الآخر؟

فأجابت الخالة:

ـ لا أدري يا أماه. لابد أن تلك أيضاً إما صارت الآن مثلي عجوزاً لا تسمع، أو أنها لا أدري ما جرى بها. ما أدراني؟ ربما تجاوز الله عن تقصيراتها. . نعم يا أماه! إن كانت ماتت، فليرحمها الله! وإن لم تمت، فليجعل الله أن تفكر ابنتها فيها وتقوم بضبطها وربطها في آخر عمرها».

هوامش

(١) = زواج المتعة ، الزواج المؤقت .

السيدة نزهت الدولة

مع أن السيدة نزهت الدولة قد تزوجت حتى الآن ثلاث مرات وولدت ست مرات، وحتى أنها أرسلت اثنتين من بناتها إلى بيت العريس فصارت جدة، إلا أنها لا تزال تؤمن بأن الشيخوخة والشباب أمران بيد المرء نفسه. ومع أن العقل والزوج والأقرباء والأصدقاء يقولون جميعاً إنها بلغت الخمسين من عمرها إلا أنها قد تشبثت بشبابها بكلتا يديها ولا تزال تطرق هذا الباب وذاك بحثاً عن زوجها الـ «مثالي»:

تذهب مرة في الأسبوع إلى صالون الحلاقة وتجري الـ«مساج» على غضون جبينها وحول فمها وتحت عينيها. وترتب شعرها كما الفتيات حديثات الزواج، يعني أنها ترفعه بالدبابيس والماسكات. تلبس قمصان الـ«أورغاندي» والـ«تافته» بصدور مفتوحة وبأذيال «كلوش»، وتبدل كل يوم زوج قفازات أبيض. تقضي ثلاث ساعات من وقتها كل يوم أمام المرآة. تنام عشر ساعات، وتصرف

بقية وقتها على زياراتها . ويعرف كل الأصدقاء والأقرباء الآن أنها إن جاءت إلى بيوتهم ، وإذا شاركت في أتراحهم وأفراحهم وإذا جلبت زهوراً وهدايا ثمينة من أجل ولاداتهم وزيجاتهم وتبديلهم بيوتهم ، وإذا منحت «فاتحة قدم»[1] لعرائسهم الجديدات فإن ذلك كله من أجل أن تتعرف بإنسان جديد ، يعني برجل جديد ، لأنه لم يكن قد بقي إنسان قط من الأقرباء والأصدقاء ، بعيدين أو قريبين ، ممن لم يتوسط ما لا يقل عن مرة أو مرتين ويعطها عنوان زوج مثالي .

تتمتع السيدة نزهت الدولة بقوام طويل ، وهذا بذاته ليس بالأمر الهين . ومع أن أنفها دقيق جداً إلا أنه . . يعني . . فيه ميل يسير نحو اليمين . طبعاً ، يجب ألا تظنه أعوج . قطعاً ، لو أنه كان أعوج لذهبت على الفور وأقامته بجراحة «تجميل» . كل ما هنالك ، به ما لا يمكن تسميته عيباً ، وإنما هذا الميل البسيط نحو اليمين . صوتها رقيق جداً . عندما تتكلم لا تقطّب قط ، وعندما تضحك فإن حاجبيها وحول فمها لا تتحرك أصلاً . فخمسمئة تومان[2] مصروفاً شخصياً على «الزينة» و«المساج» لا يمكن إهدارها بضحكة تافهة مترهلة! وهي تصبغ شعرها كل أسبوع . وينبغي القول حقاً إن لها تجويفاً نكافياً واسعاً ، وخيراً من ذلك أذنين صغيرتين وظريفتين جداً؛ ولكن من المؤسف أنها مضطرة إلى التضحية بإحدى هاتين الأذنين لعقصات شعرها . إن «تجعدات» شعرها أكثر ترتيباً من الفرشاة التي تمررها على أسنانها كل يوم ، وصحيح أن عنقها طويل أيضاً ـ مرة

أخرى: قليلاً بشكل لا يكاد يُلحظ ـ ولكن من يستطيع أن يفهم ذلك مع المنديل الذي تعقده حول عنقها أو القلائد العريضة التي تلفها لفتين أو ثلاثاً حول عنقها؟

إي نعم. مع أن السيدة نزهت الدولة كانت أصغر أبناء أمها وأبيها، لكنها تزوجت قبل أخواتها الأخريات، وهي نفسها تعترف هذه الأيام مزدهية بأن نفسها منفتحة جداً. إن زوج إحدى أخواتها وزير، وزوج الأخرى انتحر قبل أربع سنوات في مستشفى المجانين. لم تكن السيدة نزهت الدولة قد بلغت العشرين عندما تزوجت. كان زوجها من جهاز وزارة الخارجية، من العوائل المعروفة، وعدا عن ذلك فقد كان صاحب مال كثير. إن أردتم الحق، مع أن الغرام هو ما أوصلهما إلى بعضهما، إلا أن عائلة العروس وعائلة العريس كلتاهما قد أجريتا حساباتهما وتحرت كل منهما عن الأخرى ولم تغوصا في الماء على غير هدى. كان أخو العريس معاون وزير الخارجية، وأبو السيدة نزهت الدولة وزير الداخلية. ومن هنا فقد كان الباب وإطاره متطابقين جيداً.

إي نعم.. ما أن أوشكت السيدة نزهت الدولة أن تتذوق طعم العشق والغرام حتى صار لهما طفل وحل زعيق الطفل وبوقه محل أحاديث أول الحياة المشتركة وضحكاتها ولم يكن طفلهما قد بلغ السنتين حتى كان زوجها قد صار والي مازندران. لم يكن أبو السيدة قد مات بعد، وكان وزير الداخلية، وكان بحاجة ـ من

أجل تدبير وتجميع أراضي مازندران وضم أراضي هناك غير منتظمة الأشكال - إلى شخص متمرس بالعمل وأمين مثل صهره. اضطر الزوجان إلى البقاء ست سنوات صعبة في مازندران. صحيح أن الزوج كان يقوم بكل شيء، وأن كل شيء، من حليب الدجاج إلى روح ابن آدم[٣]، كان في متناول السيدة نزهت الدولة، ولكن الأمر كان قد وصل حداً بحيث أنه عندما كان ميرزا[٤] منصور خان[٥] - زوج السيدة نزهت الدولة - يدخل من باب البيت لا تكون لديه طاقة أن يقبّل السيدة من مفرق شعرها حتى أصابع قدميها، وكان أمر العشق والغرام قد جف في بلاد الغربة، واحتل الأطفال حتماً كل مكان، ولكي تتخلص السيدة من الملل - إذ لم يكن لديها عمل تقوم به - فقد ولدت، بقدر ما استطاعت، أطفالاً. ثلاث بنات وولد آخرين. وصار ميرزا منصور خان شيئاً فشيئاً في البيت أيضاً رسمياً وصار يسلك مع زوجته السلوك نفسه الذي يسلكه مع رئيس شرطة الولاية. صار يخاطب زوجته بيا سيدة ويسأل عن أحوالها بوساطة الخدم واستقل بغرفته وصار لا يدخل غرفة زوجته إلا بعد الحصول على إذنها، والأسوأ من كل ذلك أنه لم يعد يرضى بأن تناديه زوجته بمنصور مجرداً. كان يريد أن يكون في البيت أيضاً، كما هو في كل مكان آخر، «حضرة الوالي». وكان هذا غير قابل للتحمل بالنسبة للسيدة نزهت الدولة، هي التي كانت حساسة جداً وتهوى العشق كثيراً وتحس العار من أن تخرج من البيت فتتزاور مع نساء الولايات من زوجات الرؤساء غير المرتبات اللائي لا يعرفن

مراعاة أصول السلوك، والتي كانت بقيت كل هذه المدة وحيدة وهي تحتاج في بلاد الغربة إلى كل حميمية ممكنة وما كان يسلي خاطرها غير أطفالها!

والأسوأ من هذا أنها كلما مدت رجلها إلى خارج البيت ينبق أمامها فجأة ألف شاك يحملون عرائض مفردات ومثان فيذهبون بصبرها، ولأنها لم يكن لها شأن أصلاً بهذه الأمور فقد كان هذا الأمر بالذات غير قابل للتحمل. ولكن السيدة نزهت الدولة صبرت أيضاً. صحيح أنها كانت دوخت أباها برسائلها لكي يحصل على أمر نقل زوجها، ولكن كتب لها رسمياً أن ضم أملاك مازندران إلى بعضها أهم كثيراً من حياتها العائلية. ولقد فهمت ذلك جيداً هي أيضاً، ولهذا كانت تصبر. وكانت شرعت تنسى طهران واجتماعات نبلائها ومشاغلها وتزاوراتها، عندما استدعي زوجها إلى المركز. والأسوأ من ذلك أنه كان يقال إنه قد غُضب عليه. مع أنها لم تكن تبالي قط، وما كانت لتهتم لهذه الأمور وإنما كان ذهنها مشغولاً بأمور أخرى. بعد ست سنوات من الوحدة والغربة، كانت تجد نفسها بين الأهل والزوج وتدفئ المجالس الرسمية بوصف ابتلاع زوجها عصا[٦] وبضع قصص مضحكة كانت سمعتها عن أهالي مازندران، وتشغل وقتها بالتناجي وتبادل الهموم مع أبناء الخالات وكنات العمات فتتذكر كم أن زوجها غير مناسب وجاف وكم هو بعيد عنها وعن الزوج المثالي الذي تفكر فيه، لاسيما وأن زوج

أختها قد صار لتوه وزيراً. ولم تكن السيدة نزهت الدولة تستطيع أن تتجاهل هذا التفوق ولا تقرع زوجها الذي كان لزم البيت ويقولون إنه معلق من الخدمة، فكانت تعامله معاملة تمضية وقت واختبار.

إلى ذات ليلة، حين انتهى عملهما في الفراش، إذ التفتت إلى زوجها وقالت: «هل ارتحت يا منصور؟»، وبدون أن يخجل الزوج، لم يكذّب خبراً فقال مجيباً: «إن المرء يرتاح حتى في بيت الخلاء». ولقد كان هذا عاصفاً بالصبر حقاً. ولقد اتخذت السيدة نزهت الدولة تصميمها في تلك الليلة بالذات. وعند الصباح تركت بيتها وحياتها ومضت، بعد تسع سنوات من الزواج، مباشرة إلى بيت أبيها. صحيح أن أباها لم يكن هو الآخر يرتاح إلى هذا الصهر المغضوب عليه، ولكنه مهما أصر على ضرورة أخذ الأطفال أيضاً من الأب لم ترض السيدة نزهت بذلك قط. أعطوا الأطفال وأخذوا طلاق السيدة بختمه ومهره.

ربما كانت السيدة نزهت الدولة، في أول الأمر - عندما كانت تتزوج - لم تكن تعرف بعد ما الخصوصيات التي ينبغي أن يتمتع بها زوجها المثالي. ولكنها إذ تطلقت من زوجها الأول الآن وارتاحت، كانت تدري ما الخصوصيات التي ينبغي أن لا تتوفر لدى زوجها المثالي. يجب أن يكون زوجها المثالي شاباً؛ يجب أن يكون ثرياً، ألا يكون يابساً ورسمياً، ألا يكون وقحاً صفيقاً، ألا يكون حمّال الحكومة، والأهم من ذلك كله أنه ينبغي - ما أن يدخل من الباب -

أن يقبّل زوجته من مفرق رأسها حتى أنامل قدمها، ويكون راضياً بذلك أيضاً. ولكي توصل نفسها إلى هذا المثال فقد كانت تسعى إلى أن تكون فتية يوماً بعد يوم. كانت تبدل مشد بطنها كل شهر، وتضع حمالات صدر مختلفة متنوعة توصي فيخيطونها للسيدة في مصانع سويسرا على مقاس صدرها، ولا تتصل فقط بمتخصص شؤون الشعر والزينة وجميع أنواع منتجات (اليزابيث آردن)، وإنما كانت تلازم التلفون كل يوم وكل ساعة تتلقى أخبار آخر تغييرات الموضة، وأي ألوان جديدة للرأس والوجه والشفة والأظفار حلت محل الألوان القديمة. نعم. تذهب إلى كل حفلات السهرة، تقيم ولائم خاصة، تأخذ صديقاتها في أيام العطل بسيارة أبيها الرسمية في نزهات، وبالمهر الذي حصلت عليه من زوجها السابق كان عندها من المال ما كان يمكنها أن تخيط في كل فصل واحداً وعشرين طقم لباس وتشتري كل أسبوع زوج حذاء. بل إنها أصبحت تؤمن بالرقم واحد وعشرين. وكان هذا ذاته أيضاً واحداً من تجارب زواجها ذي التسع سنوات. كان يوم الحادي والعشرين إذ تزوجت وفي مثل ذلك اليوم حصلت على الطلاق وفي مثل ذلك اليوم تعرفت بزوجها الثاني.

كان زوج السيدة نزهت الدولة الثاني ضابطاً طويل القامة أزرق العينين يشد أشرطة القيادة ذات المداليات وهو عائد حديثاً من مأمورية الجنوب[٧]، وله وجه لوحته الشمس وسيصير رائداً بعد

سنة . مع أنه لم يكن لديه وضع عائلي مرتب ومحترم ، ولكن السيدة نزهت الدولة ـ منذ تلك الليلة الأولى ذاتها التي رأته في حفلة نادي الضباط الساهرة ـ كانت قد اتخذت قرارها . كان الأقرباء والأنسباء مخالفين لمثل هذا الزواج . ولكن الأب ـ الذي كان في آخر عمره ويعرف أنه بعد موت الوزير سيصيب النخر والاهتراء بناته في البيت ـ أقام بساط العقد سراً وتقرر أن تذهب العروس والعريس بضعة أشهر إلى (أهواز) ويعودان بعد أن تخفت الضجة . وليس معروفاً من الذي اكتشف ، في هذه الفترة ، وأوصل إلى مسامع الأب ، وتسابق الأقرباء حتى كشفوا أن زوج السيدة نزهت الدولة المثالي له زوجتان أخريان في طهران هذه ذاتها . كان حسن العمل في أن صاحب العلة لم يكن حاضراً وفي غيابه لم تكن ثمة حتى حاجة لأن يتدخل وزير الداخلية رسمياً فيتلفن إلى أحد ما ، وإنما عجائز العائلة تمكن خلال شهر واحد لا أن يكتشفن عنوان بيتي تينك الزوجتين الأخريين فقط ، وإنما عيّنّ حتى مكتبي الزواج اللذين تم فيهما قيد الزيجتين ، وكشفن الأمر كله في كل مكان عندما عادت العروس والعريس من شهر العسل .

ولقد استمتعت السيدة نزهت الدولة خلال هذه الأشهر الثلاثة بحيث أنها لم تصدق هذا الكلام أصلاً حتى أخذنها فأوصلنها إلى واحد واحد من البيوت والمكتب حتى أقنعنها . ولكن مع ذلك لم يكن الزوج مستعداً للتطليق ، كان عسكرياً وعنيداً وقد غرزت

علامات الشجاعة التي بذلها في الجنوب لوناً وطراوة في صدره وثبتته عليه فكان يتصور أن بمقدوره أن يمضي بهذه الأشرطة والشراريب إلى حلبة واحدة مع وزير داخلية البلاد. صحيح أنهم أخذوا هذه المرة أيضاً طلاق السيدة نزهت الدولة بلا ضجيج، ولكن الأوسمة الملونة فعلت فعلها فاحترق مهر السيدة نزهت الدولة.

مع أن السيدة نزهت الدولة خرجت من هذه التجربة أيضاً أكثر تعلماً، إلا أن قعر قلبها كان لا يزال يتمنى ذلك الضابط أزرق العينين حسن القوام شادّ الأشرطة والشراريب، وعدا عن ذلك فهي كانت بلا إرادة في بحثها عن زوج مثالي. كان حديث كل المجالس التي ترتادها هو ما المواصفات التي يجب أن يتمتع بها الزوج المثالي. ولأن هذه الواقعة أيضاً نُسيت سريعاً كما نَسيت السيدات الكبيرات وحموات العائلة هذا الانفلات أيضاً، فقد صارت تذكر في كل المجالس بوصفها امرأة مجربة ذاقت برد الزواج وحره، وكانت عرائس العائلة والصبايا في سن الزواج فيها يستمعن - قبل أن يسمعن شيئاً من أمهاتهن وأخواتهن الأكبر - إلى نصائحها ويستشرنها بوصفها خبيرة في شؤون الزواج.

وإن أردتم الحق فإن السيدة نزهت الدولة كانت تتحرق على الحصول على مثل هذا العنوان، هي التي كانت ترتعب من أن تصير نديمة لعجائز العائلة ولم تكن تريد أن تعد نفسها منهن، هي التي كان بنوها قد تركوها منذ زمن طويل ولم يكن لديها من يرث تجاربها،

كانت مضطرة إلى أن تعد البنات اللائي يشاورنها بالضبط مثل بناتها أو أخواتها وتحدثهن من صميم قلبها أن الزوج ينبغي أن يكون صادقاً حميماً مع الواحدة، وفياً لها، ألا يكون حمالاً للدولة، ألا يكون وقحاً، أن يكون حسن القوام كثير المال، أن يكون من عوائل محترمة، وخيراً من كل شيء أن يكون أزرق العينين. من الطبيعي أنه لم يكن بمقدور السيدة نزهت الدولة أن يكون لها ذلك الاعتقاد بالعلم والمعرفة. هي نفسها كانت قرأت بعض الأشياء على معلم بيتي. وزوج أختها، الذي صار وزيراً، لم يكن على ذلك القدر من الاطلاع. وزوجها الأول، الذي تكشف عن ذلك السوء، كان خريج مدرسة (سان لويس) وقضى سنتين في بلاد الفرنج.

نعم.. لم يكن قد انصرم على الطلاق الثاني شهران أو ثلاثة حتى مات أبوها، بعز وجلال وموسيقى عسكرية ومجلس عزاء في مسجد سپهسالار[8]. وكان الأخوات والأخوة قد انتهوا حديثاً من تقسيم الإرث حين حل شهريور سنة عشرين[9]. كان الزوج الأول للسيدة نزهت الدولة ـ الذي كان مغضوباً عليه في الدولة السابقة ـ وزيراً للخارجية، وامتلأت المجالس وحفلات السهرة بناس محدثي النعمة ما كانوا يعرفون بيد من يسلمون معاطفهم وقبعاتهم، إذ كانوا يعدون أول خادم يظهر أمامهم سفير الدنيا الجديدة. كان أول عمل قامت به السيدة نزهت الدولة هو أنها أخذت منزلاً مستقلاً واشترت سيارة وخصصت أيام الأربعاء للاستقبال وتولت بيدها زمام

الأمور. ولو كانت مكرهة مجبرة، إلا أنها أرسلت وساطة مرتين أو ثلاثاً إلى وزير الخارجية الجديد، وبذريعة رؤية أولادها وأحفادها أخذت تتردد خفية على بيت زوجها السابق وبناتها المتزوجات وتلقي بشباكها. من المؤسف أن أباها مات وإلا لكان رتب الأمور في يومين أو ثلاثة. ولكن الأوضاع تبدلت، وليس موت أبيها وحده وإنما صار لسان جديد يستعمل في المجالس وما عاد الناس معروفين وليس ثمة من خبر عن الأصدقاء القدامى. لم تكن السيدة نزهت الدولة تدري ما جرى. ولكنها كانت تستطيع أن ترى أن أحداً لم يكن يستمع إلى كلامها عن الزوج المثالي. كان الجميع يفكرون في الحرية، في الحصول على الأملاك، في المجلس، في الحصول على جواز قمح وشعير، وأكثر من ذلك كله في حزب وجريدة. في هذه المعمعمة وبين محدثي النعمة هؤلاء بالذات كان أن تعرفت السيدة نزهت الدولة، في مجلس الاحتفال بالمشروطية[١٠]، بزوجها المثالي الثالث.

كان الزوج الجديد للسيدة نزهت الدولة أحد رؤساء عشائر غربي البلاد، الذين تخلصوا حديثاً من السجن والمنفى، وجد استقراراً وجاء إلى طهران يحمل العنوان المحترم لنائب في المجلس. كان رجلاً عريض المنكبين، مفتول الشاربين، له صوت غليظ، ومع أن قامته قصيرة ويبدو ريفياً نوعاً ما ولا يعرف شيئاً من الظرف والرقة وأمثال هذه الأمور، إلا أنه كان شاباً وكان نائباً وكانت

عشيرة بأكملها تصطف وراءه، فكان لابد أن يكون عنده مال. كان هذا زوج السيدة نزهت الدولة المثالي حقاً. في الصيف، الذهاب إلى العشيرة وركوب الخيل وتعليق البندقية في الكتف كالرجال ولبس الجزمة، وفي الشتاء، المشورة في المجالس الليلية مع نواب المجلس والوزراء بشأن الحرية والأحزاب والحكومة.. كان حسن الأمر أن الزوج المثالي الأخير كان يتطابق و«شروط الزمان والمكان» التي تسمع بها السيدة في أحاديث الجميع.

كانت السيدة نزهت الدولة قد جمعت تجارب كثيرة بخصوص الزواج، فهيأت مقدمات الأمر على نحو جيد. كانت قد بقيت حتى الآن تقيم أغلب الأوقات في بيت زوج أختها، الذي كان لا يزال رغم تغير الزمان وزيراً، فكانا يتواعدان هناك، وكان حديث الجميع وما يسمعون: رسمياً ومحسوباً وكل شيء في مكانه. حتى تقرر أن يأتي رئيس العشيرة ذات يوم مع أخته، التي جاءت مؤخراً من العشيرة، فيجلسا ويقوما بتثبيت الموافقات الأولية ويرتبا الأمور مع الوزير وزوجته. وقد فعلا ذلك حقاً، وعندما أنجزا الكلام ولم يعد لازماً أن تخجل السيدة نزهت الدولة من الحضور في المجلس، شرّفت السيدة أيضاً المجلس بحضورها وصار المجلس حميماً.

كانت أخت رئيس العشيرة امرأة فائقة الجمال، لها عينان زرقاوان وشعر أشقر. كان لها قوام فارع وكانت فتية أيضاً، وما أن أرادت السيدة نزهت الدولة أن تحس نحوها ـ بوصفها أخت زوجها

القادم ـ غيرة أو نفوراً ، حتى صارت مفتونة بلطفها العجيب الغريب إذ راحت تحلّي شايها وتضع الفاكهة أمامها وتتحدث عن تجعيد شعرها كم هو جميل وعن الخياطة التي خاطت لها القميص بذلك الجمال وأخذت عنوانها. خلاصة القول أن السيدة نزهت الدولة بقيت مبهوتة مذهولة من كل هذا اللطف والمحبة.

كان هذا الأمر في أواخر الربيع ، وكان قد تقرر ـ حتى يستعيد رئيس العشيرة أمواله المصادرة من الدولة ويستقر في طهران تماماً ـ أن تستأجر السيدة في إحدى نقاط شميران بيتاً حميماً وبعيداً عن الحرارة ، يقضيان فيه الصيف ويعودان خريفاً إلى المدينة ، إذ يكون وضع أملاك السيد قد تعين ويكون قد هيأ بيتاً في طهران . ولم يتشددا بخصوص المهر وما يتعلق به . لأن زوج أخت السيدة نزهت الدولة كان وزيراً ويمكنه ، على أية حال ، أن يعتمد في المجلس على صداقة رئيس عشيرة . مع أن الأخت الشقراء زرقاء العينين كانت قد أبدت تشدداً إزاء مهر المائة ألف تومان ، إلا أن رئيس العشيرة كان سخياً كريماً . حتى أنه وعد أن يطلب سبعة أشخاص ـ رجالاً ونساء ـ من أفراد عشيرته من أجل شغل المنزل فلا يدع السيدة تتعب نفسها بشيء. وأخيراً ، عينا يوم العرس ووضع أحدهما الحلوى في فم الأخرى وافترقا عن بعضهما ببهجة وسرور.

أجرت السيدة نزهت الدولة ـ التي لم تكن تعرف يدها من رجلها سروراً ـ خلال أسبوع واحد بيتها في المدينة واستأجرت بستاناً

كبيراً في شميران ، وانصرفت إلى تهيئة مقدمات زواجها من زوجها المثالي الثالث . استوردت ، بوساطة أحد أولاد أخواتها الذي كان قد ذهب إلى بلاد الفرنجة للدراسة ، طقم بدلة عرس يبلغ طوله واحداً وعشرين متراً . ودعت أربعمئة وواحداً وعشرين شخصاً من الأعيان والوزراء منذ قبل أسبوعين وعقدت اتفاقاً مع إثنين من الفنادق الكبرى في المدينة لضيافة تلك الليلة . وراحت شاحنات شركة (كتيرا) ـ التي كان للسيدة نزهت الدولة ولزوج أختها أسهم فيها ـ تنقل لثلاثة أيام كاملة الدجاج واللحم والخضار والفاكهة والمشروبات إلىَ شميران؛ الخلاصة أنها لم تقصّر في أي مصروف ، لقد وجدت زوجها المثالي أخيراً . كانت تقول لنفسها ولزوجها إن الواحدة إن لم تنفق إرث أبيها في سبيل الحصول على زوجها المثالي ، ففي أي سبيل تنفقه إذن؟

كان حفل العرس بالطبع جليلاً جداً . كانت ليلة مقمرة في أوائل الصيف ، والجو مناسباً جداً . غسلوا منذ يومين كل أشجار البستان بمضخات كبيرة ومدوا بين أغصانها وأوراقها مصابيح ملونة . كانت النافورات تعمل وجلبوا فرقتي موسيقى ، وتتسع «أرضية» الرقص ـ التي خرجت حديثاً من تحت أيدي البنّاء والنجار ـ لمئة وخمسين زوجاً من الراقصين ـ لا الرقاصين . كانوا يصبون الشراب في إجانات حمراء الزهور كبيرة بملاعق مطلية بالذهب في كؤوس مصقولة لها سيقان نحيلة طويلة ، بدلاً من كل شيء كان على الموائد ديك رومي محمر . كان الأرز الحلو[١١] والكافيار أموراً لا يلقي

أحد إليها نظرة أصلاً. نظموا مائدة الأكل على شكل T بحيث كان طوله واحداً وعشرين متراً وجلست العروس والعريس فوق منضدة على كرسيين مشغولين بالخاتم[١٢] شغل أصفهان. افتتحوا العشاء بالنشيد الإمبراطوري، وتبودلت من جانب رئيس الوزراء ورئيس المجلس وعائلتي العروس والعريس خطب تهنئك غرّاء وقدم الحضور أجمعين عدداً من المرات نيابة عن الحكومة والشعب للعروس والعريس وعائلتيهما الجليلتين آيات التهنئة وشربوا كؤوسهم لسلامتهما.

أقيم الحفل بجلال كبير. لم يتجاوز أحد حد السكر ولا تحطم حتى كأس واحدة. كانت المنضدة الكبيرة التي أقاموها في الجانب الأيسر من مدخل البستان مركومة بهدايا الضيوف وباقات الزهور الكبيرة. في تلك الليلة ذاتها عقدت صداقات جديدة، وصب بعضهم أكدار الماضي في صحون الآخرين وكؤوسهم فشربوها وأكلوها، وحتى الاستيضاح الذي كان مقرراً أن يلقى أواخر ذلك الأسبوع على الدولة أبقي مسكوتاً عنه في ذلك الحفل. لم يتبق غير انزعاج واحد، وهو أن لصاً سطا على البيت في تلك الليلة ذاتها. وعندما استيقظ أهل المنزل صباحاً، وجدوا أن كل الهدايا ـ إضافة إلى كل الجواهر والذهب والفضة والحرير المشغول التي كانت موزعة على المناضد والمواقد الجدارية، وزوج السجاد الصغير الذي فرشوه تحت كرسيي العروس والعريس ـ قد ضاعت جميعاً. كان حفل الليلة الماضية قد امتد حتى الساعة الثالثة، فكان من الطبيعي أن يسكر حتى

الخدم في ليلة كهذه على أثر إفراغ فضلات الكؤوس ، وأن يكون من البديهي أنه لم يكن بمقدور اللصوص ألا يستغلوا فرصة كهذه .

ومع ذلك كله ، فقد بدأت حياة العروس والعريس منذ اليوم التالي ببهجة وسرور . صحيح أن زوج أخت السيدة نزهت الدولة طرح الأمر حتى في مجلس الوزراء ، وعلى الرغم من الصداقات المعقودة حديثاً في ليلة العرس ، فقد أوشك زوج أخت السيدة نزهت الدولة أن يستوضح الحكومة ، في المجلس ، عن عدم استقرار الأمن ، ولكن القضية انتهت عند حد استبدال رئيس الشرطة . وزاد رئيس الشرطة الجديد من تعداد مخافر الشرطة في شميران كما زاد من تعداد الدوريات الليلية . وطرد السيد من جانبه كل خدم المنزل الذين كانوا جزءً من جهاز السيدة ، من الطباخ حتى الجنائني ، ووضع بدلهم سبعة من أفراد العشيرة الذين كان قد استقدمهم برقياً . ولكن السيدة نزهت الدولة لم يرف لها جفن . لقد اعتبرت هذه السرقة الكبرى القضاء والبلاء الذي كان مقرراً أن يصيب سعادتها الجديدة . وعدا عن ذلك ، فقد كان العريس من الرقة بحيث لا يتبقى ثمة مجال للتأسف على الأموال المسروقة . لم يكن يترك الزوجة حتى تتحرك من مكانها . كان هو يضع بنفسه المعجون على فرشاة أسنان السيدة . كان هو من يسخن ماء الرشاش والحوض لاستحمامها . كان يعد لها اللُقم . يعقد شرائط ملابسها الداخلية . خلاصة القول إنه أخذ من المجلس إذناً لمدة أسبوعين وأغلق باب البيت أمام الأغيار

وانصرف إلى جزئيات أعمال المنزل بنفسه ولم يدع ـ حقاً ـ الماء يتحرك في فؤاد[١٣] السيدة. أما السيدة نزهت الدولة فقد باعت في هذه الأثناء بيتها الآخر أيضاً وملأت ثانية مكان الأثاث المسروق. كانت كل واحدة من السجاد والأثاث والستائر زينة متحف. كان لكل غرفة راديوغرام وثلاجة ومبردة هواء مستقلة، وكل ما يريده الزوجان عند أدنى نقطة من أيديهما. في نصف شهر العسل هذا كان السيد هو الكل بالكل. كان يشرف على الخدم، يمر بالجنائنية ويراقب زرع الزهور حسب فصولها. ونظم كهرباء البيت وهاتفه وماءه وإيجاره، ونتيجة لمساعدات قدمها في معاملة تجفيف مياه ـ مع إدارة المحفوظات العامة ـ لصاحب البيت، أخذ إيصال استئجار البيت، لمدة ثلاثة أشهر من دون أن يعطياه مالاً، فقدمه هدية على المائدة للسيدة، ولأن إجازته ذات الأسبوعين كانت على وشك الانتهاء، فقد اقترح، على المائدة ذاتها، أن يدعُوَا أخته كي تأتي صيفاً إلى شميران فيكونوا معاً، فوافقت السيدة نزهت الدولة ـ التي لم تكن تعرف حقاً ماذا تفعل بالوحدة اللاحقة والتي لم تكن نسيت من الجهة الأخرى ألطاف أخت زوجها ـ ومنذ اليوم التالي لإجازة السيد صارت كل أعمال البيت في عهدة أخت الزوج. وكانت السيدة نزهت الدولة سيدة حقاً. كانت تقضي وقتها من الصباح حتى المساء أمام المرآة أو في الحمام أو عند مائدة الطعام. وكانوا يجلبون المزينين والمدلكين بسيارة السيدة إلى البيت، وكانت تضع

ـ حسب تعليماتهم ـ ثلاث ساعات يومياً لحماً نيئاً وطماطم على وجهها، ولم تكن تخرج من البيت أصلاً وتعودت أذنها على صوت أخت زوجها الجميل، التي كانت تروح وتجيء قائلة: «بخ! بخ! أي بشرة! أية طراوة! هنيئاً لأخي!» ومئة مرة، بل ألف مرة في اليوم. ولقد صارت السيدة نزهت الدولة شابة حقاً! زوج شاب، عدم القيام بأي عمل، طماطم على الوجه. . . كانت تلتذ حقاً.

مر شهر على هذه الحال. صحيح أن السيد هزل قليلاً. ولكن لم يسبق أن مر على السيدة نزهت الدولة وقت بحلاوة هذا الشهر. منذ اليوم الأول للشهر الثاني من عرسهما بدأ الزوجان في رد الزيارات. كانا يذهبان في كل يوم إلى ثلاثة أماكن، ولكن، وهل كان الأمر ينتهي بتلك السرعة؟! وكان أسوأ ما في الأمر أن السيدة نزهت الدولة تتعب. كان في اليوم الثاني أو الثالث من التزاور أن ذهبا عصراً إلى بيت أخت السيدة نزهت الدولة، التي كان زوجها وزيراً وبقيا ـ تحت الإلحاح ـ هناك الليلة أيضاً. على أية حال، لم يكن ممكناً ألا يكون لوزير ما شغل مع نائب أو رئيس عشيرة، وكانت الأختان وكأنهما لم تر إحداهما الأخرى عمراً بأكمله! يا للكلام الذي كان عندهما لتقولاه إحداهما للأخرى! بقيتا حتى الثانية صباحاً ساهرتين مع القرارات والمواعيد والنجوى والخطط. . ثم نامتا. ولم تكن السيدة نزهت الدولة قد خرجت، صبحاً، من الفراش بعد عندما طلبوا زوجها على التلفون، أن: نعم، مرة أخرى هاجم

اللص البيت. وضعوا أخت السيد في غرفة أغلقوا عليها بابها. قطعوا سلك التلفون وأوثقوا أيدي خدم البيت السبعة جميعاً وأرجلهم وحبسوهم في المخزن وأخذوا كل ما كان في البيت: من السجاد الكبير والشمعدانات والثريات الكبيرة إلى الموبيليا والراديوغرامات والثلاجات. خلاصة القول إنهم جردوا البيت من كل شيء. هذه المرة ليست السيدة نزهت الدولة وحدها بل زوجها أيضاً لم يتحمل فانطوت رجله عند التلفون حتى جلس. كانت العلامة الوحيدة التي تخلفت عن اللصوص أن أثر دواليب شاحنات متعددة بقي على رمل البستان. تعرض رئيس الشرطة على الفور إلى هجوم في الصحافة أن: خلال شهر واحد ترك مرتين بيت أحد نواب الشعب مفتوحاً أمام اللصوص، ويصل مشروع استيضاح جديد في المجلس إلى إمضاء النصاب اللازم، وإذا بوزير الداخلية ـ بعد أسبوع من ليلة السرقة ـ يطلب، بمناورة حاذقة، في قانون من مادة واحدة ـ سحب الحصانة عن العريس الجديد، أي رئيس العشيرة! فداخ من كانوا يعرفون الحساب ولم يعرفوا أكانت تلك سياسة روسيا أو إنكلترا[١٤].. ! بل ما هو منشأ الضجة كلها أساساً.

* * *

والآن ما رأيك في أنه في اليوم التالي للسرقة الأخيرة، جاء إثنان من الخدم السابقين للسيدة نزهت الدولة الذين كانوا جزء من جهازها وطردهم رئيس العشيرة، يسألان عن أخت السيدة نزهت

الدولة وأوضحا سوء ظنهما في رئيس العشيرة وأخته، فانكبت حتى العصر كل عائلة السيدة نزهت الدولة على الحركة واستعانت بالعجائز وراح الجميع يراقبون ليومين متتاليين أخت الزوج الشقراء زرقاء العينين حتى اكتشفوا أخيراً منزلها في شارع عين الدولة، وفي اليوم التالي خدعت إحدى الأخوات العقديات[١٣] العجائز الحاذقات خادمة المنزل بادعاء: «يا بنيتي جعلت فداء لشكللك، الوقت غروب وستصير صلاتي قضاء»، فدخلت ووصلت إلى الماء فتوضأت وأقامت صلاتها إلى جانب الحوض، فتفحصت من خلف الزجاج أثاث السيدة نزهت الدولة ومفروشاتها واحدة واحدة ثم فتحت أخيراً باب المكاشفة مع خادمة المنزل متحدثة عن سوء الزمان وعدم تديّن أهله حتى حازت اطمئنان خادمة البيت واكتشفت أن السيدة صاحبة البيت سيدة شقراء الشعر زرقاء العينين رقيقة جداً ونجيبة وهي زوجة رئيس عشيرة أيضاً. وفي تلك الليلة ذاتها أصدر وزير الداخلية أمراً بأن ينصرف رئيس الشرطة إلى العمل وينهمر أفراد الشرطة على المنزل الجديد لرئيس العشيرة فينقذوا كل أثاث السيدة، ويضبطوا قيداً بكل الأمور وينشئوا ملفاً كبيراً! صحيح أنه لم يتم العثور على أثر لجواهر السرقة الأولى وفضياتها وحرائرها، إلا أن رئيس العشيرة كان يرى في عمل الشرطة هذا نقضاً لحصانته البرلمانية، وكان يمرر مشروع استيضاحه ليحصل على توقيع هذا وذاك إذ قدمت المادة الواحدة المتضمنة سحب حصانته إلى المجلس، استناداً إلى إضبارة ضخمة، وشهادة واحد وعشرين من الخدم وأبناء الحارة. نعم. .

كانت إراقة عجيبة لماء الوجه على وشك أن تقع عندما تحرك مديرو شؤون البلاد فأصلحوا ما بين وزير الداخلية ورئيس العشيرة ، شريطة أن يتم السكوت عن لائحة سحب الحصانة ومشروع الاستيضاح معاً ، ويتم التنازل عن مهر السيدة نزهت الدولة أيضاً ، وفي هذه المرة إذ كانت السيدة نزهت الدولة تتطلق كانت متأكدة من أنها إنما تضحي من أجل اعتبار الحكومة والأمة ، فتتناسى زوجها المثالي .

والآن إذ خرجت السيدة نزهت الدولة من هذه التجربة أكثر تجربة بعد ، فقد كانت تعتقد أن الشيخوخة والشباب بيد المرء نفسه ، وهي ما زالت تطرق هذا الباب وذاك بحثاً عن زوجها المثالي . اشترت مرة أخرى بيتها في المدينة وجمعت فيه أغلى الأثاث والمفروشات . وهي تنفق شهرياً خمسمئة تومان على «مساج» صدرها ووجهها . تبدل لون شعرها مرة كل أسبوع . تلبس قمصان «أورغاندي» مفتوحة الصدر . عندما تتكلم لا تقطب قط ، وعندما تضحك فإن حاجبيها وما حول فمها لا تتحرك أصلاً ، والأهم من ذلك كله أنها توصلت ـ بعد عمر كامل وثلاث زيجات ـ إلى هذه النتيجة ، وهي أن زوجها المثالي يجب أيضاً ألا يكون من محدثي النعمة هؤلاء . ثم أنها جعلت تصدق شيئاً فشيئاً أن المانع الكبير الوحيد في الوصول إلى زوجها المثالي هو العيب الصغير في أنفها ، فكانت تفكر هذه الأيام في أن تذهب وتصلح أنفها بجراحة تجميلية .

هوامش

(١) هدية الزيارة للعروس .

(٢) وحدة نقد ألغيت وبقي اسمها يطلق على كل عشرة من الريال الحالي . والمبلغ المذكور يتجاوز العشرة دولارات في زمان القصة .

(٣) مثل ، معناه واضح .

(٤) ميرزا: لقب احترام أصل معناه «ابن الأمراء» ، لكنه تطور بحيث صار يُطلق على من لا لقب رسمياً له ، بمعنى «أفندي» التركية تقريباً .

(٥) خان: لقب احترام ، يطلق عادة على رؤساء العشائر والإقطاعيين في الريف ، وانتقل إلى المدينة .

(٦) كناية عن تحرك الشخص بصلابة وكأنه منشّى ، عن تعمده إبقاء فاصلة بينه وبين الآخرين .

(٧) حيث جرت تصفية الشيخ «خزعل» ، «أمير» «المحمرة» - خرم شهر الحالية - في أول عهد رضا شاه .

(٨) مسجد عريق فخم ، ملاصق لمبنى مجلس «الشورى الوطني» «القديم» ، فقد كان مسجداً رسمياً تقام فيه أمثال هذه المراسم .

(٩) = النصف الثاني من سنة ١٩٤١ - حين اضطر رضا شاه إلى التنازل عن العرش لابنه محمد .

(١٠) = الدستور .

(١١) الأرز بالكرز ، أو بالمشمش ، أو غيرهما من الفاكهة الحلوة .

(١٢) كساء للخشب بطبقة تُصنع من أخشاب مختلفة وعظام وحجارة ، يسمى في سوريا بالـ«موزاييك» ، وتشتهر به مدينة أصفهان .

(١٣) عدم تحرك الماء في الفؤاد كناية عن الاستراحة التامة وعدم الحركة .

(١٤) على اعتبار أنه لم يكن يجري في إيران أمر إلا بإيعاز هذه أو تلك من الدولتين ، منذ قرون حتى زمان القصة - الحرب العالمية الثانية .

(١٥) قريبتان أو صديقتان ، تقيمان عقداً عليه شهود بأن تكونا أختين في كل الأحوال .

المسلول

عندما خطوت إلى خارج بستان المصح كنت لا أزال أنطوي على أثر من الرعب والفزع السابقين؛ الفزع من دخول مكان مجهول. الفزع الذي كنت احسه في داخلي إذ كنت طفلاً عند الدخول إلى الامتحان.

تواعدت مع صديقي، الذي كان طبيب المصح، على أن أوصل نفسي في الساعة العاشرة صباحاً إلى (شاه آباد). كان ذلك في أوائل شهر (مهر)[1]، وما زال المرضى يعيشون في الهواء الطلق. اعتباراً من قرب الباب ذاك، كانوا قد وضعوا أسرّة خشبية وحديدية مصفوفة، جنباً إلى جانب بعض، على الأرض. كانت حواشي الملاءات البيض الملوثة للحشايا ساقطة فوق التراب، وقد نفذ التراب إلى المظلات فوق الأسرّة، واستقرت فوقها أول الأوراق التي جردها الخريف عن صفصاف البستان السامق كومة كومة. لم يكن خالياً إلا منتصف الممر المكسو بالقار في وسط البستان، الذي كان يمتد إلى ساحة المعرض. كان كل مكان: حول الأحواض،

تحت صف الأشجار، قرب سواقي الماء، الذي مع أنه كان صافياً زلالاً ولا بد أنه كان بارداً إلا أنه لم يكن يثير هوس الشرب، وقرب المباني، على الشرفات والأواوين وكل مكان آخر في منخفضات البستان ومرتفعاته، كانت الأسرة مصفوفة إلى جانب بعضها بعضاً وقد تمدد فوقها المسلولون أو اتخذوا وضع نصف جلوس. وكان هؤلاء جميعاً، عندما نمر إلى جانبهم، ينظرون إلينا بوجوه ذاهلة شاحبة وعيون مريضة واسعة وغائصة. ربما كانت هذه النظرات العجيبة هي ما أثار في قلبي مثل هذا الرجاء شيئاً فشيئاً. لا أدري. ولكن كان لها جميعاً هذه النظرة. في قسم النساء أو الرجال، في القسم العمومي أو الخصوصي، وأي مكان آخر أخذني إليه صديقي الطبيب معه، كان للجميع هذه النظرة ذاتها.

عند أول وصولي، كان صديقي قد قال إنهم حتى الساعة الحادية عشرة يفحصون صدور النساء على الجهاز، وتكون نوبة الرجال منذ تلك الساعة فما بعد. وفي الفرصة التي كانت متاحة لنا طلبت منه أن يجول بي في بستان المصح وأقسامه المختلفة. وها نحن الآن كلانا نمر من جانب صف الأسرّة. وأتيحت الفرصة لي، أنا الذي رأيت بنظرة واحدة الكؤوس المعدنية والدواليب الصغيرة جنب الأسرّة، دوارق الماء مكسورة الحواف وأحياناً الراديوات العاملة على البطاريات، وقليلاً جداً من الكتب وأكثر قليلاً صحفاً ومجلات مصورة، وفي كل مكان قناني دواء وملاءات ساقطة على الأرض، أنا الذي عرفت بنظرة واحدة هذه الحياة المقززة والمؤقتة

للمرضى والذي كنت أحس في داخلي امتناعاً وحذراً تجاه ما رأيت هناك، أتيحت لي فرصة أن أنظر دقيقاً إلى هذه العيون الغائرة والعميقة فكانت لها نظرات عجيبة وقد جذبتني إليها منذ ذلك اللقاء الأول.

لو أنني كنت رساماً وأردت أن أرسم لنفسي تلك الأشكال، أشكال مرضى المصح، لكنت سأضع عينين واسعتين غائرتين مملوءتين ولعاً، فوق كل سرير. لم يكن يُرى وسط كل فراش شيء غير هاتين العينين الحريصتين القلقتين، وغير ملاءات مبقّعة تغطي كامل أجساد المرضى، وأحياناً أيادي صفراء بارزة العظام. ولكن النظرات! كانت حقاً نظرات عجيبة. كنت تمكنت أن أكتشف بين نظرات الناس في الشوارع والأسواق والمحافل التي كنت فيها وشاهدتها، وحتى من بين أنظار الدواب، أشياء كثيرة؛ النظرة البراقة لمقامر عندما يريد أن يخدع خصمه، نظرات شرطة المرور إلى سيارات الأجرة المستعجلة المزاحمة، النظرة التي يلقيها عامل مقهى إلى زبون يدخل حديثاً، النظرة الفضولية والهائمة لعاهرة بقيت تنتظر حتى منتصف الليل زبوناً وراء زجاج مقهى ما، نظرة الشيوخ إلى الشبان، النظرة الطماعة لكلب جائع يلازم باب دكان قصاب، النظرة المتوسلة التي لباعة السوق، نظرة رفيقين افترقا وهاهما يلتقيان حديثاً فلا يدريان من أين يبدأان، النظرة البريئة لبقرة في مرتع، وهي تجتر وكأنها تصغي إلى شيء ما، نظرة رئيس إدارة إلى خادم عجوز لا يستطيع إخراجه ولا يستطيع أن يستل منه عملاً، نظرة الفقراء إلى

الناس الذين يخرجون من باب محل لبيع الحلويات، ورأيت نظرات أخرى كثيرة وعرفتها. ولكن هذه كانت نظرة أخرى. كانت نظرة لم اعرفها بعد، كانت نظرة ربما يتخذها كل المرضى، كل مسلولي المصح.

أمضّتني هذه النظرات إلى حد جعلني أولاً أشيح برأسي مرتين أو ثلاثاً لأهرب منها ولكن أنى أدرت رأسي أجد عينين غائرتين محزونتين تسمران ذلك النظر النافذ ذاته عليّ. ينظرون إليّ كما لو كان نبت لي قرنان. لابد أن الدكتور، أقصد صديقي، كان بالنسبة لهم ـ بصدريته البيضاء والسماعة الطويلة التي في يده ـ عادياً جداً. ولكن أنا، الداخل حديثاً، غير المعروف، الإنسان الذي لابد أن هؤلاء يظنونه سالماً. . آهاه. . وجدتها. وجدت المسألة. لم ينبت لي قرنان. لكن هؤلاء يتصورونني سالماً، غير مسلول. وعند ذاك قلت في باطني لنفسي، ولكن خطاباً لهم: «لا يا أصدقائي! لا. لست سالماً. ربما كنت مثلكم مسلولاً. وإلا فأي أذية عندي أريد أن أوقعها فأجيء إلى هنا؟ لماذا تنظرون إلي على هذا النحو؟ لماذا؟ إن الشفقة التي تخرج من نظراتكم فيها، بالنسبة لي، شيء من الحقد والنفور أيضاً ولا طاقة عندي على هذا. لماذا تنظرون إلي هكذا؟» ثم أنه كان عجيباً أنني لم يزايلني الفزع من نظراتهم فقط، وإنما لم يعد ثمة أثر من ذلك الفزع القبلي. وكان تعاطف ومحبة أيضاً يملآن مكان ذلك الفزع شيئاً فشيئاً. وصرت أسمّر بولع وشوق، مستقيماً في أعينهم، جميعاً؛ نساء ورجالاً، عيني ولا أنظر إلى شيء آخر

قط. ومنذ ذلك الحين كان أن اهتزت أوتار من فرح وسرور في قلبي، في داخل فكري وشعوري.

في قسم النساء، كان ثمة فتيات جميلات أيضاً لم تتمكن بعد الوجوه الهزيلة والهالات حول أعينهن أن تطبع صورة أو تلقي ظلاً على جمال ما قبل مرضهن. حتى أولئك اللائي لم يكن يخشين أن تكون لهن هذه النظرات أيضاً، وكنّ يتملينني بالحرص والولع إياهما، كن ينظرن إليّ، أنا، الإنسان السالم في رأيهن! بذلك الإصرار السابق وبتلك العيون الغائرة الذاهلة المريضة. وكنت أضحك في أدنى فؤادي من بساطتهن، وأعدهن جميعاً يبعد ساعة.

ثم ذهبنا نحو الجانب الأصلي من المصح حيث غرفة التصوير الشعاعي وأدوات ضخ الهواء إلى ما حول الرئتين. من السلم الذي يوصل غبار البستان الناعم إلى باب المبنى، والذي كانت تصطف الأسرّة على جوانبه أيضاً، زحفت إلى أسفل فداخل المبنى الذي كانت غرفه، كالسابق، خالية. وكانت جدران الممرات المزيّنة مغطاة بأوراق تلقن المرء بسلامته. سلامة التعميمات. السلامة على الورق: «تنفس جيداً. كُل جيداً. استرح. لا تتكلم بصوت مرتفع»، وغلبني الضحك. ومرّ بفكري: «يا للمهزلة! لا تستطيع وصفات التعميمات هذه قط أن تعيد السلامة للإنسان» ثم عقدت عزمي.

كانت النسوة لا يزلن جالسات خارج باب غرفة المعاينة. وكان لا يزال ثمة وقت. نساء بشوادر صلاة ملونة، سقط أغلبها

على أكتافهن، ورجال بعباءات المصح الخشنة يقفون جماعات جماعات في الممر ويتكلمون بخفوت. ولكن هنا لم يكن من تلك النظرات. أو ربما أنني تعودت تلك النظرات. كان باب إحدى الغرف مفتوحاً، وكان شخصان يوقعان بلاء على رأس أحد المرضى. لم أفهم أولاً ما كانا يفعلان. واقشعر بدني - تصورت حقاً أنهما كانا ينزلان على رأس ذلك المسكين بلاء. فسألت مريضاً يضع على كتفه عباءة يقف قرب الباب. قبل أن يجيب، برقت فجأة تلك النظرة في عينه. كان برق النظرة من الإبهار بحيث أنني ندمت على طرحي السؤال. ولكنه كان يقول: «يسحبون ماء صدره». قال هذا ولف عباءته حول كتفيه ومضى. كانا يجلسانه، المريض، على مصطبة، ويوكئان صدره من أمام على ظهر كرسي، وقد أوصلا بظهره أنبوبة تسحب ماء صدره وتصبه في زجاجة واسعة الفم كانا وضعاها على منضدة، قرب أيديهما. كان للماء لون زهري، وقد ارتفع إلى أكثر من منتصف الزجاجة. كنت قد زايلتني القشعريرة وتولاني النفور. عاودني ذلك الفزع القديم. هذه المرة، اهتزت أوتار الخوف في قلبي.

ذهبت إلى صديقي الطبيب الذي تركني بمفردي، وعندما علمت أنهم يضخون هواء إلى داخل القفص الصدري، يستحيل بعدئذ على هذا النحو إلى سائل، وأن مرض كل شخص هو بقدر حمرة الماء الذي يستخرجونه من صدره، ارتحت مرة أخرى وذاب

نفوري فخرج على هيئة عرق استقر على بدني. جررت نفسي إلى داخل غرفة وجلست ساكتاً هادئاً على مصطبة اخرى، قرب الغرفة. وبحيث لا ألفت نظر الآخرين، نظرت إلى المريض الذي كان دلّى رأسه أدنى، وراح ينظر إلى قاعدة الكرسي وتلعب يداه بشيء على الكرسي. لم يكن مهتماً قط. كما لو كانوا يدلكونه. جعلني عدم مبالاته أنا أيضاً أكثر راحة واطمأنت إلى أن الأمر لم يكن أمر إيقاعهم بلاء على رأسه. كان شخصان أو ثلاثة من لابسي الأبيض يتلاعبون به. كانت الزجاجة واسعة الفم تمتلئ. كنت غارقاً في النظر وكنت أزرع بزر المحبة في قلبي عندما قال أحدهم في أذني:

ـ أتدري يا سيد.. يستخرجون أحياناً ثلاث زجاجات ماء من صدر الادمي. اول أمس كانت نوبتي. اخذوا من صدري زجاجة ونصف.

قلت:

ـ آهاه! هكذا إذن؟ ويؤلم أيضاً؟

قال:

ـ لا. يخدر. أتدري؟ إن إبرته من الطول بحيث تخيف الإنسان. ولكن الأفضل ألا ينظر الإنسان إليها. إذا لم ينظر أحسن بكثير. لن يخاف شيئاً بعد.

وبزر المحبة الذي كنت زرعته في قلبي حمل سريعاً فملأت سيقانه وأوراقه كل قلبي. كنت أحس نفسي بين أصدقائي. كنت

أرى نفسي في بيتي. كما لو أنني كنت أحيا حياتي. ذاك الذي كان يكلمني كان يضع طاقية نوم ولحية خفيفة لشاب في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين وله آثار لهجة عربية. قلت:

ـ جئت من النجف؟

فسرّ وقال:

ـ كيف عرفت!

قلت:

ـ كنت أدري أي بلاء تجلبه سراديب النجف على رأس الإنسان.

بعد لحظة صمت قال:

ـ إنني الآن هنا منذ سنة ونصف. سيطلقونني في آخر الخريف. أخي وحده يعرف أنني هنا. لم أدع أولئك الآخرين يعرفون..

لم يكن كلامه قد انتهى عندما جاء صديقي، والسماعة في يده، فناداني. نهض وحيا الدكتور. وعندما أردت أن أخرج وراء الدكتور من الغرفة قال:

ـ إن شاء الله، لا شيء هناك.

ومرة أخرى سررت أكثر. من أين علم لماذا جئت إلى هناك؟ لم أكن قد قلت له شيئاً! لابد أنه فهم بنفسه. أو ربما كانت تلك

النظرة في عيني أيضاً ففهم من النظرة؟! . . وكان مذاق اللذة التي أحسستها من هذا التعاطف تحت أسناني حتى مررنا ببضعة دهاليز وبلغنا غرفة المعاينة .

كانت الغرفة منارة بما يكفي لأن يرى المرء أمام قدميه . كان السواد الضيق والمريض للناس المرضى المصطفين في الظلام ، جنب الغرفة ، واضحاً . وفي وسط الغرفة الكبيرة كان شبح غوليٌّ أعوج غير منتظم لجهاز الفحص ينتصب فوق الأرض . لو لم يكن الهواء منقبضاً وكان مع ظلمة الغرفة أيضاً شيء من الروحانية والقدسية ، لكان يبدو بالضبط وكأن الناس مدوا أرجلهم إلى الغرفة المظلمة لمعبد عتيق . أخذني صديقي إلى الجانب الثاني ، عند منزع الملابس وطلب أن أخلع جاكتتي . فتحت رباط عنقي أيضاً . أردت أن أخلع قميصي ، إلا أنه قال أن أتركه ما لم يكن من حرير . وأخذني على ذلك النحو إلى وراء الجهاز الذي أحسست ، في الظلمة ، عظمته . حييت طبيباً كان يجلس على الكرسي الضيق المرتفع للجهاز . وأظلمت الغرفة . وأحسست برودة صفحة الجهاز على صدري . في الظلمة لم يكن يبدو غير وجه الدكتور الملحم في انعكاس النور الأخضر الخافت للجهاز ، الذي كان يعلو وينخفض ويتطلع . ثم سُمع صوته وهو يقول على الدوام: «اليد اليمنى إلى أعلى» ، «نَفَس عميق» ، «ارجع إلى وراء» ، وحتى صوت تنفس الآخرين لم يكن يُسمع أيضاً . في صمت الغرفة وظلمتها ، وفي عظمة الجهاز الذي

كنت أحسه فوق رأسي، كان شيء من الأبهة والقدسية يُحَسّ.
عرقت من الحرارة وكنت على وشك أن أفقد صبري عندما أضاءت
الغرفة ورفع الدكتور رأسه. تناجى مع صديقي بشيء ما ثم قال لي:

ـ ما من شيء. لا يمكن أن يكون الصدر أسلم من هذا.

وأطلقني. ولكن ما الفائدة؟ مع أنه لم يكن ثمة من أمر بعد،
إلا أن تلك النجوى وحدها كانت كافية لي. كانت كل شيء
بالنسبة لي. لو لم يكن ثمة شيء فلماذا همس له؟ وما أن عقدت
رباط عنقي ولبست جاكتتي مرة أخرى حتى أظلمت الغرفة ثانية
وأضاءت وسُمعت كلمات الطبيب المؤاسية ثم خرجت وسألت
صديقي الذي كان في معيتي عن التهامس. ضحك وقال الجملة
المطمئنة نفسها وأضاف:

ـ بشرط أن تدخن أقل. يقول الدكتور إن السجائر خربته.

وبعد ذلك ما استمعت لا لصديقي ولا إلى ذلك الشاب الملتحي
الذي كان يقف بالانتظار خارج الباب. طأطأت رأسي وتهربت
من النظر إلى أي شيء، حتى إلى تلك العيون الحريصة، بنظراتها
العجيبة، إلى أن خرجت من باب المصح. وعندما وصلت المدينة،
وفتحت زوجتي، بخوف وانتظار، باب المنزل أمامي رددت عليها
جملة الطبيب تلك إياها من نفاد الصبر، ولكثرة ما ألحت علي وطلبت
تفاصيل الأمور، أوشكت أن أعاركها أيضاً.

* * *

كانت الساعة الخامسة عندما خرجنا من البيت. اتفقنا أن تذهب زوجتي إلى عيادة الطبيب وتأخذ نوبة فيما أذهب أنا طلباً لتصوير صدري عند المصور الشعاعي ثم ألتقي زوجتي في العيادة. كان شهران قد مرا على يوم شاه آباد ذاك. في هذه المدة ازدادت سجائري، يعني أنني زدتها. وقد فعل لسع برد (شهريار)[٣] الخريفي أيضاً فعله فخرب صدري مرة أخرى وكنت أسعل سعلات من شدتها وضغطها كانت عيناي تبرقان. لم ينفعني لا فقط تلك الجملة المطمئنة لطبيب المصح التي نُسيت منذ اليوم الأول ذاك، وإنما أيضاً أي دواء وعلاج، وأي خدمة ومحبة أدتها زوجتي في هذه المرة. لقد صغت لنفسي يقيناً مسبقاً. عاندت. واستقر همس طبيب المصح ذلك اليوم عميقاً في أذني. واستحال شيئاً فشيئاً إلى ضجة مبهمة لناس مجهولين يشيرون إلي بالأصابع ويهمسون في آذان بعضهم بعضاً بحيث كنت أدرك بصعوبة ما كانوا يقولون: «واه أصيب بالسل.. واه..».

كان السعال قد أقلق فكر امرأتي فراجعنا الطبيب عدة مرات. في البدء، كان نزلة برد فشربتٌ وأقراص ثم انجر الأمر إلى مسارات مقلقة. يعني إلى مواقع باعثة على الأمل. وتقرر أن أذهب فآخذ تصاوير لصدري ولرئتيّ. قبل يومين ذهبت مع زوجتي وتصورت وكان مقرراً أن آخذ التصوير اليوم وأريه للطبيب. لم أكن أريد أن تأتي زوجتي فتطلع على أمور تصوير صدري، وحاججت نفسي: «هذه الإنسانة التي دخلت بصورة كافية إلى ثنايا حياتي ووجودي

ودهاليزهما، ما الموجب لأن تدخل هذه المسألة أيضاً؟». لم أكن أريد ـ إن كان ثمة شيء (يعني كنت متأكداً أن ثمة شيئاً) ـ أن تفهم، وعلى أية حال فقد أطلقتها وذهبت أنا إلى تصوير الصدر. عندما ترجلت من الحافلة أذكر أنني ألقيت سيجارتي في جدول الشارع ودخلت. كان ثلاثة أشخاص أو أربعة يجلسون في الممشى وهواء الخريف البارد ينفذ من شقوق نوافذ الممر. أرثت سيجارة أخرى وفتحت الباب. كانت ثمة أيضاً امرأة شادرية تحتضن طفلها. ألقيت تحية واستأذنت وجلست. بعد بضع لحظات بحثت بأنظاري على منضدة الطبيب عن منفضة سجائر، وبعد أن عثرت عليها تحت مظروف كبير نهضت وبإجازة أخرى تناولتها وجلست. كنت قد جلست لتوي عندما رفع الطبيب رأسه عن الشيء الذي كان يكتب وارتسم ظل من ضحك، على وجهه حديث الحلاقة، الذي تفغ منه رائحة سخرية. ثم حنى رأسه ثانية على يده. لم أرتح. كنت أريد أن يكون لي جواب عليه. وعندما انصرفت تلك المرأة الشادرية وأخذت معها ابنها، سألت:

ـ يا سيدي الطبيب، لماذا جهازكم كبير إلى هذا الحد؟

ضحك ضحكة خبيثة وقال:

ـ لكي يصدّق الناس.

فقلت:

ـ أتتكلم مع الجميع بهذه الصراحة؟

لم يقل شيئاً بعد، وسأل عن رقم إيصال تصويري وعقب هذا انصرف إلى البحث بين الظروف الكبيرة السوداء. كان له مظهر ووضع مرتبان. كأن صدريته البيضاء خرجت لتوها من تحت المكواة، وكان شارباه الصغيران أكثر إثارة من أي شيء آخر. لم أكن قد ارتحت بعد. سألت:

ـ يا سيدي الدكتور، جهازكم بضخامته هذه ما رأيه في صدرنا؟

ـ حالياً لا شيء.

قالها يابسة قصيرة مقطوعة. كان واضحاً أنه لم يعد لديه تحمّل. طوى ما كتبه. وأغلق المظروف الذي وضعه فيه، ووضعه مع ظرف كبير أسود، يحوي تصوير صدري، أمامي، فتناولت قبعتي وانطلقت. ولم يكن جلدي يسعني فرحاً. الفرح من أنني لم أتركه بلا جواب، وأكثر من هذا، الفرح من أنني حصلت على باعث أمل. ومرة أخرى اهتزت أوتار السرور عينها التي اهتزت ذلك اليوم في قلبي في مصح شاه آباد. وفتح الباب أمامي البواب العجوز، فمددت من ذاتي يدي إلى جيبي ووضعت في راحة يده ورقة نقدية صغيرة. لم يسبق أن كانت لي عادة كهذه.

حتى وصولي إلى عيادة الطبيب أردت عدة مرات أن أفتح الظرف. ولكن كلام الدكتور المختصر ذاك كان كافياً لي. وكنت

أخاف أن يكون قد كتب داخل الظرف شيئاً آخر. عندما ترجلت من الحافلة أمسكت ظرف التصوير الكبير، كأنه وسام افتخار، تحت إبطي فصرت أحس حرارة في كل جسدي. كان سلوكي من الفخر بحيث أنني فزعت وخفت أن تراني زوجتي بتلك الحال. ابتلعت فخري واتخذت لنفسي سلوكَ عدم اهتمام وربما باعثاً على الشفقة أيضاً، ودخلت غرفة انتظار الطبيب. نهضت زوجتي مضطربة، واجتازت بضعة نفر كانوا ينتظرون، فأخذت الظرف من يدي ومن دون أن تسأل شيئاً أخرجت التصوير ورازته في النور. لابد أنها كانت تتصور أنهم خطّوا حكم سلامتي بخط النسخ على الصفحة السوداء لتصوير صدري. قلت:

- إنك لا تفهمين منه شيئاً، يا بنيتي العزيزة!

فقالت:

- طيب، ماذا جرى؟

قلت:

- لا أدري. وقد كتب شيئاً للدكتور أيضاً. يقول إنه ما من شيء حالياً.

وقلت ذلك كله ببرود أعصاب، كما لو أن الشيطنة استيقظت في داخلي. قالت زوجتي باضطراب:

ـ يعني أنه بعدئذ . .

وأرادت أن تفتح الظرف . لم أدعها . كان الجميع يتطلعون إلينا . بعضهم بعيون تعبانة ، وبعض بنظرات مستطلعة . جلسنا . لم يكن دورنا جاء بعد . مرت بضع لحظات ازورّت عنا فيها تلك النظرات فدخنت في تلك الأثناء سيجارة أخرى . لم أكن قد سحبت نفسين أو ثلاثاً حتى نهضت زوجتي . أمسكت بيدي فخرجنا معاً . دخلنا زقاقاً فأخرجت زوجتي دبوساً من بين شعرها كي تفتح رأس الظرف . أخرجتِ على عجل مبراة قصبتي[٣] وأخذت الظرف من يدها ففتحت رأسه محاذراً . لم أكن فتحت طية الورق بعد وإذا بها تخطفها من يدي فرحت أتطلع من فوق كتفها . كانت ورقة كبيرة ولم يكتب فيها أكثر من ثلاثة أسطر أو أربعة ، ولقد كبرت هذه الجملة وحدها من السطر الثاني تحت نظري «صار لون سرة الرئة أيضاً داكناً» . وكانت البقية ، لكثرة احتوائها على ألفاظ إفرنجية ، غير مفهومة . ولكن قلقاً كان تكدس في داخلي: «لماذا ضحك إذن؟ لماذا سخر؟ هو الذي كان يعرف ، لماذا سخر؟» ولم تكن ثمة فرصة أكثر من هذه كي أفكر بالطبيب المصور ذي الصدرية الخارجة حديثاً من تحت المكواة . وفيما كنت أنظر إلى الورقة ، إلى الورقة التي صارت لا شيء الآن ولا شيء مكتوباً فيها ولم تطوها يد ، صرت شاطراً فقلت: «يا تنبل! لمَ لم تفتحه قبلاً؟ تنبل!» واهتزت أوتار السرور بمضراب «سرة الرئة» في قلبي ، وانبثعت الحياة في

تلك النظرات، واكتسبت تلك الوجوه الهزيلة والدوارق مكسورة الحواف والملاءات المبقعة، أمام نظري، حياة جديدة، وكان المرضى ينامون على أسرّتهم الخشب والحديد في صف. .

نبهني صوت زمور سيارة كانت تريد دخول الزقاق. كانت زوجتي قد بهتت على الورقة. تناولت يدها وسحبتها جانباً. طويت الورقة وأغلقت رأس المظروف بالاحتياط ذاته، وإذ وجدت زوجتي أن احتمالها انتهى، سألت:

ـ حسناً؟ . .

وكما لو أنها كانت تبكي. فقلت جواباً عليها ببساطة وبلا اهتمام:

ـ حسناً، ما يمكن فعله؟

ووجدت أنها لا طاقة لديها على ذلك. فمضغت الشيطنة بمشقة تحت أسناني وأضفت:

ـ ليس هناك من شيء. نحن لا نفهم يا بنيتي العزيزة. اصبري أنت الآن. . .

ـ ماذا يعني لا نفهم؟ أفلا تعرف الفارسية؟

جعلت في صوتي عقدة وقلت:

ـ ألم أقل لا تفتحيه؟

ثم أضفت على نحو أرق:

ـ أتفهمين أنت؟ أين هي سرة الرئة؟ . .

ولكن في قلبي كان مهرجان. استيقظت أمانيٌّ ومن بين كلمات الرسالة التي كنا فتحناها هيأت دفأً وصنوجاً وراحت تدق وتعزف بحبور. جررت زوجتي معي، ودخلنا بيت الطبيب. كانت غرفة الانتظار ما تزال ملأى. ولكن مريضاً واحداً فقط كان قبل نوبتنا. جلسنا وكنت أحس بما يجري داخل زوجتي. لم أستطع أن أكذب كثيراً، لأنني لم يكن لدي تحمل أن تعاني المشقة كثيراً. وإنني لأذكر أنني، حتى يحين دورنا، قلت لها أشياء وسليت عنها بتطمينات. قرأت في أذنها أنه لو كان ثمة شيء فإنه سيكون خطراً عليها أكثر من غيرها، وعندئذ ينبغي ألا نكون معاً، وإن كنت أنا لا أرضى فليس عليها هي أن ترضى. . وأمثال هذا الكلام. . ثم جاء دورنا. نهضت زوجتي على عجل، وأنا، هادئاً، وراءها، والتصوير تحت إبطي، فدخلنا غرفة الطبيب. ألقينا التحية وجلسنا. كانت الغرفة نفسها والأثاث المرتب اللماع عينه والدكتور السمين بالقميص المفرد، الذي يناسب القصاب أكثر، ذاته الذي في المرتين أو الثلاث التي ذهبت فيها إليه كنت أبحث فوق منضدته عن سكين القصابين الحادة الطويلة. وضعت التصوير على منضدته وجلست. سأل الطبيب عن حالي، وأخرج التصوير ووضعه على زجاجة معتمة لمسلاط ضوء كانت قريبة من يده. ثم أطفأ ضياء الغرفة كثير النور،

وفحص التصوير على ضياء كان يشع من تحت الصفحة السوداء. كان مشخصاً عظام الترقوة والأضلاع والتفافها إلى وراء، وظل من العمود الفقري وعظام أخرى لا أعرفها. تذكرت أنني سبق أن عرفت مرات عدة أمام المرآة هذه العظام نفسها من تحت جلدي، وتعرفت بكل واحد منها. وهل كنت أختلف كثيراً عن هذا الهيكل؟ ثم تذكرت ذلك اليوم عندما تعريت أمام جهاز تصوير الأشعة وفي البرد المثير للقشعريرة الذي أحسسته ألصقوا صفحة الجهاز بصدري فعذبوني. كان جهاز التصوير أكبر بكثير من جهاز المصح، وتذكرت أنني سخرت في أثناء النفور الذي أحسسته أكثر من البرد من كل عظمة جهاز التصوير ـ الذي كان طوله خمسة أمتار أو ستة وكان يرتفع حتى السقف وقد ثُبتت أرجله الضخمة كأرجل عفريت إلى الأرض. وسألت نفسي: أفلا يمكن أن يصنعوا جهازاً أصغر من هذا؟. ثم تذكرت أنني ألقيت هذا السؤال على الطبيب المصور أيضاً، في اليوم الذي أخذت فيه التصوير. وذاك الجواب الذي قدمه! ثم أدركت أن المسألة الأساسية ليست في تصوير صدر الإنسان وعظامه المحطمة وساقيه. الأساس هو إخافته أو تأميله. وفهمت لماذا وجدت ذلك اليوم غرفة معاينة المصح مثل المعابد العتيقة حيث يقف تمثال الإله الأكبر وسط صمتها وظلامها، محاطاً بأتباعه وكهنته، على قدميه. ولماذا سارعت أنا، مثل مؤمن أو زائر منهار، بقلب مملوء أملاً إلى حضرة المعبود.

ولكن ذلك كان جهاز تصوير ذلك الطبيب المكوي ، ماكنة التعذيب أو العفريت المؤذي المثير للنفور ، لم يخلف فيّ غير الخوف والرعب ، غير النفور والبرد . ربما كنت أصبت في ذلك اليوم بالبرد أيضاً واشتد سعالي . ولقد ذكرت هذا الأمر للطبيب الذي كان قد أنار للتو مصباح منضدته وكان يتحدث إلى زوجتي . مرة أخرى كان الحديث يدور عن السجائر وكانت زوجتي تشكو . قلت لنفسي لابد أنه سيكرر الآن بالضبط تلك الجمل الباعثة على الاطمئنان وسيصدر تعليمات بشأن السجائر . أردت أن أسأل بعض الأشياء عن الظرف الذي جلبته له وما ورد فيه . ولكن لم تكن ثمة حاجة إلى السؤال: فقد كنا قرأناه . وفي لحظة واحدة طرأ على فكري أن أقص عليه قصة فتحه ولكنني صرفت النظر . يعني أن الدكتور كان من السلامة ومن كثرة السمنة والحمرة والبياض بحيث تأسفت أن أصير حميمياً معه . إنه ينفع شغل القصابة . وقررت ألا أكلمه كلمة واحدة بعد . ولكن الدكتور كتب شيئاً ووضعه في ظرف ، وقال:

ـ هو الآن خارج تخصصي . يجب مراجعة طبيب متخصص .

وسلم الورقة بيد زوجتي ، وأضاف:

ـ كتبت هذا للتعريف . إنه طبيب يبعث على الثقة .

تفاجأت بشدة وتعجبت ، وتساءلت زوجتي مرعوبة:

ـ كيف يا سيدي الطبيب؟ يعني حقاً . . ؟

قطع الدكتور كلامها وطمأنها قائلاً:

ـ لا يا عزيزتي ما من شيء. أنا أيضاً أستطيع معالجته. ولكن الأفضل أن تذهبوا إلى أخصائي.

زايل اللون وجه امرأتي فأمسكتها من تحت إبطها حتى نهضت. عندما أردت التوديع تقدمت فضغطت يد الطبيب ـ الذي كان لا يزال جالساً وراء المنضدة ـ بإحكام وشكرته من صميم القلب، وعندما خرجنا من الباب لمت نفسي لماذا كنت عاملت الطبيب بذلك السوء وشبهته على الدوام بالقصابين.

* * *

أسبوعاً كاملاً تركت رسالة تعريف الطبيب نائمة في قعر جيبي، وكلما سألتْ زوجتي أذهبت إلى الطبيب أم لا كنت أقول إنني لم أجد عيادته أو ذهبت ولم يكن موجوداً أو حكت أكاذيب أخرى. ومرة أخرى زدت سجائري وكان السعال لا يزال شديداً وهارشاً وكنت في الليل أهدئ صدري بالبخار ومائع حب السفرجل حتى أنام. كنت أخاف أن أذهب عند هذا الطبيب الجديد الذي ما كنت أعرفه. خاصة وأنني أجريت تحقيقات عنه وعلمت أنه طبيب بارز، وأن أكثر أصدقائي ومعارفي ـ عندما كنت أحدثهم بمظهر غير مهتم بقصة خراب صدري وأطلب تعاطفهم ـ يذكرون اسم هذا الطبيب إياه. وكلما كنت أسمع اسمه من معرفة جديد كان خوف أكثر من السابق يجد طريقه إلى قلبي فأزداد هرباً من مراجعته.

في هذه المدة لم أكن قط بفكر صدري. في الفصل والبيت والزقاق والسوق كنت أسعل من الكثرة حتى ينقطع نفسي. أروي قصصاً عن خراب صدري، وبمجرد أن ينقطع سعالي أوُرث سيجارة. حتى في الفصل كنت أدخن. وأحرق قلوب الجميع على حالي، وربما أجعل الآخرين عصبيين مني. حينما تجلس زوجتي، تبكي. تحدثت عن تصوير صدري وعن سرّة رئتي التي صارت معتمة، وقالت إنني أصبت بالسل وأبكت الأخريات وبحثت عن حل، وعندما سمعت بذلك سررت على نحو خبيث. ثم عندما رأت وعلمت أنني لم أراجع الطبيب بعد صارت عصبية وتشاجرت معي أيضاً. وانتبهت ذات مرة أن كل أهلها وأهلي ومنسوبيها ومنسوبيّ قد انصرفوا إلى الجد. يجيء الرجال للسؤال عن الصحة، ويتقدمون بحلول ويتعجبون لمَ لم أراجع الطبيب. ويوصي العجائز والعمات بأدوية منزلية ومنعوني من المضاجعة. ولأنهم كانوا يخجلون أن يذكروا الأمر بصراحة، كانوا ينازعون حتى يبينوا قصدهم. واشترى أبي عشرين فرخ دجاج وأرسلها كي آكل إثنين يومياً. وصار ذلك كله لي تسلية جديدة.

صرت مركز كل هذا الركض والسعي والحركة. في الخواطر التي لابد أنها كانت نسيتني، استقريت ثانية. كنت أرى وجودي أوسع وأكبر وأشمل من أيام سلامتي، ومن كل هذا السرور كنت أنشرح. مع أنني كنت أدخن كثيراً، إلا أنني كنت آكل جيداً أيضاً.

عطلت دروسي ثلاثة أيام أو أربعة وبقيت في المنزل. لم أكن أمارس أي عمل. أجلس في مكان واحد أو أتمدد، أدخن السجائر وأنتقد زوجتي وأتلاعب، أكثر من كل شيء، بحشد الفراخ الذي كان قد ملأ باحتنا الصغيرة المستأجرة ويروح إلى كل مكان ويعبث بكل شيء، حتى أن أحدها سقط في المرحاض واختنق فأحرق قلبنا. ولكن الفراخ كانت كثيرة جداً. ولقد جذبني نشاطها وحيويتها كثيراً بحيث أنني أوشكت أن أنسى كل شيء؛ لا موت ذلك الفرخ فقط، وإنما نسيت حتى سعالي أيضاً.

أخيراً، وضعنا ذات يوم سبتٍ القبعة والشال، وأمسكت زوجتي بيدي فأخذتني إلى الطبيب. كانت قد عثرت على العنوان مسبقاً، وأخذت وقتاً، فلم تترك لي أي عذر. وضعت تصوير صدري، بالضبط مثل ورقة الامتحان التي ينبغي تسليمها للمعلم، تحت إبطي وانطلقنا. لم يعد ثمة خبر عن ذلك الغرور؛ كان تواضع تلميذ مدرسة ظاهراً في سلوكي كما كنت أحمل شيئاً من تلك الرهبة السابقة. الرهبة من دخولي مكان غير معروف. الارتعاب الذي كنت أحسه عندما كنت طفلاً من دخول جلسة الامتحان. هذه المرة كنت أعرف مقدماً وأحسست أنه ينبغي عدم المبالغة في الأمور. كنت أدري أنه ينبغي تلقي القضايا ببساطة. إما ستصير وإما لن تصير. أو.. ولكنني لم أكن أمضي إلى غير هذين الإثنين. كان خطاب التعريف بيد زوجتي عندما أدخلنا البواب إلى الغرفة.

لم يكن ثمة غرفة انتظار. أو لأننا أخذنا وقتاً مقدماً فقد تم أخذنا إلى غرفة الطبيب مباشرة. كانت غرفة صغيرة نظيفة. لم تكن مفروشة. كانت منضدة الطبيب مثلثة في آخر الغرفة. كانت النوافذ مغطاة بقماش أسود ومسلاط الضوء الصغير الذي جنب يد الطبيب مستعملاً حائل اللون. وكان جهاز فحص صدر ينتصب في جانب الغرفة. كان الجهاز من الصغر بحيث أنني تعجبت. وتصاعد الميل في صدري أن أدفع الجهاز وأوقعه. حتى عندما كانت زوجتي تجلس اتكأتُ عليه فأحسست أنه تحرك. لم يكن بقي في ذهني أي أثر عن ذلك الغول المائل المعوج والمعبد العتيق. لم يكن ثمة شيء غامض موجوداً. لم يكن شيء مخيفاً أو باعثاً على الأمل. كانت أجهزة مختلفة لقياس الضغط وموازين مختلفة في زوايا الغرفة وأنحائها، على المناضد والرفوف. في داخل الدواليب الزجاجية كانت وسائل جراحة وماسكات ومقاصّ براقة مصفوفة، كانت بالضبط مثل دكان بقالة. على ذلك النحو حميمياً وبسيطاً. حتى المصباح لم تكن له ظلة فكان عارياً.

عندما دخل الدكتور من الباب كان بيده سيجارة. كان إنساناً متوسط الطول، أصلع الرأس. كانت ياقته مفتوحة. لم يكن يشبه طبيباً قط. حتى أنه لم يذهب إلى خلف المنضدة. جلس إلى جانب زوجتي وأخذ منها الورقة، ثم ألقى علي نظرة وأنا واقف أعبث بتصوير صدري. أردت أن أعطيه التصوير، فقال إنه لا حاجة إلى

ذلك ، ولقد أشبه ذلك تماماً بماء بارد أريق على رأسي! كل ما كان قد تبقى من مبالغة وخوف ورجاء غُسل بهذا الماء وغاض . وعندما طلب الطبيب خلعت لباسي ووقفت إلى الجهاز ، كنت وحدي . لم يعد معي أي شيء . ولم يكن يرافقني أحد . نظر أولاً إلى حلقي بجهاز صغير ووضع مرآته على جبينه ، وفيما أنا فاتح فمي وقد انغرز أنبوب الجهاز إلى آخر أنفي كانت الضحكة لا تريد الفكاك عني . ثم لف شريطاً حول عضدي وقاس ضغط دمي . ثم ذهب فأطفأ ضياء الغرفة فصوت الجهاز . كان يخرخر . يحدث صوتاً غير متوقع من حجمه ، كان دخان سيجارة الدكتور يعذب أنفي . لم يعد ثمة أثر للضوء الأخضر . أصدر تلك الأوامر نفسها وعاين صدري من أمام ومن وراء ثم انقطع صوت الماكنة . في الظلمة سمع صوت الدكتور يمضي فيدير مصباح النور .

كانت زوجتي قد زايل اللون وجهها . أو أنها كانت تبدو كذلك لأننا خرجنا من الظلمة حديثاً . ولكنني أنا كنت مسلطاً على نفسي . كان كل شيء قد انتهى بالنسبة لي . تمزقت الذريعة وانهارت جدران الأمل والرجاء على رأس المعبد العتيق والغول .

لم يتكلم الطبيب بشيء عن السجائر . أعطاني نوعي شربت أشربهما ودهناً أفركه بصدري ولفظ أيضاً بضع شتائم مقذعة على الطبيب المصور الذي بالغ إلى ذلك الحد . ولكنني لم أكن أستطيع أن أتحمل كل هذا الانكسار . مرة أخرى ذكرته بتصوير صدري

الذي كان ملقى في زاوية، وقرأت «سرة الرئة المعتمة» على أذنه. ضحك. وأشار إلى الجهاز فلزمت الصمت. وإلى أن لبست ملابسي ونهضت زوجتي، بقيت ساكتاً مهموماً. كانت زوجتي تتكلم مسرورة مبتهجة، وتطلب تعليمات طعامي ثم شكرت الطبيب ودياً لأنه طمّن بالها، وانطلقت. أمسكتني من تحت إبطي فخرجنا من الباب.

وعندما وصلنا الشارع، أحسست للتو بالظرف الأسود والكبير لتصوير صدري تحت إبطي. كان يشبه بالضبط نتيجة رسوب أعطوها بيد تلميذ مدرسة.

هوامش

(١) الشهر السابع في التقويم الفارسي، يبدأ في ٢٣ أيلول وينتهي في ٢٢ تشرين الأول.

(٢) قضاء غربي طهران، يتبعها إدارياً.

(٣) هي قصبة الخط التي يستعملها الخطاطون. وتكون مبراتها شفرة قصيرة رفيعة.

امرأة فائضة

«. . كيف كان يمكنني ، بعدُ ، أن أبقى في بيت أبي؟ عندما كنت في ذلك البيت كأنما وضعوا حيطانه على قلبي . أول أمس فقط وقع هذا الحادث ، ولكن هل استطعت أن أبقى دقيقة واحدة في بيت الأب خلال هاتين الليلتين؟ أتظنون أن النوم زار عينيّ؟ أبداً . تقلبت حتى الصباح في فراشي ورحت أفكر . كما لو لم يكن فراشي الدائمي . لا ! كان كالقبر تماماً . طفحت روحي . نازعت فيه حتى الصباح وفكرت . عبر فكري ألف خيال سيئ . ألف خيال سيئ . كان الفراش هو الفراش نفسه الذي نمت فيه سنوات . والبيت هو البيت ذاته الذي كنت طبخت في مطبخه كل يوم ، زرعت في جنينته كل ربيع زهور شب الليل ، غسلت عند حوضه تلك الصحون والأطباق ، كنت أعرف متى تعتم نافذة مجرى مائه وأنك إن لففت حنفية مخزن مائه يميناً تفلت فتدور في فراغ . لم يختلف أي شيء . ولكن أنا كنت أختنق . كما لو أن كل شيء اختلف بالنسبة لي . في هذين اليومين لم أذق قدح ماء واحداً . مسكينة أمي إن لم تصب

بالشلل ستكون تلك بطولة منها. قام أبي أول أمس فقط فذهب إلى (قم). كلما وقع أمر سيئ يذهب إلى قم. يأكل أخي نفسه ولا ينطق حرفاً أصلاً لا معي ولا مع زوجته ولا مع أمي. كيف يمكن للمرء ألا يفهم أن وجوده ذاته هو باعث كل هذه العذابات؟ كيف يمكن ألا يحس الإنسان نفسه في بيت ما بأنه فائض؟ كيف كان ممكناً ألا أفهم؟ لم أعد أستطيع الاحتمال. اليوم صباحاً إذ شربوا شايهم وانصرف أخي، لبست أنا أيضاً شادري وانطلقت.

لم أكن أدري أساساً أين أريد أن أذهب. على غير هدى، انطلقت في الأزقة وهربت من ذينك اليومين الجهنميين. ولم أكن أدري ما كنت أريد أن أعمل. مررت من مقابل بيت خالتي. وكان مقام السيد إسماعيل على طريقي أيضاً. ولكنني لم أكن أرغب قط أن أدخل. لا في بيت خالتي ولا في مقام السيد إسماعيل. ماذا سيعالج ذاك؟ وعلى هذا النحو طررت السوق، حسّن صخب السوق حالي ففكرت قليلاً. كلما فكرت وجدت أنني لم أعد أستطيع أن أعود إلى بيت أبي. بنزع الاعتبار هذا؟! بهذا الافتضاح؟! بعد أن أكلت خبزه أربعاً وثلاثين سنة وأقمت في زاوية بيته؟! كنت أمضي وأفكر. لماذا يجن الإنسان حقاً؟ لماذا يلقي بنفسه إلى خزان الماء؟ أو لماذا يلتهم الأفيون؟ لا جاء الله بذلك اليوم.

ولكنكم لا تدرون ما مر بي ليلة أمس وليلة أول أمس. كنت أوشك أن أختنق. جئت عشر مرات كل ليلة إلى الباحة. مضيت

عشر مرات إلى سطح البيت. كم بكيت؟! الله يعلم. ولكنٍ، هل ارتحت؟! حتى البكاء لم يرحني. لمن يقول الإنسان هذه الأشياء؟ إن لم يقل الإنسان هذا لأحد، ينفجر فؤاده، كيف يمكن تحمُّل أنه بعد البقاء أربعاً وثلاثين سنة في بيت الأب ـ بعد أربعين يوماً ـ إعادة الواحدة وإلصاقها بلحية الأب؟ الآن إذ يقول الناس هذا الكلام، لمَ لا أقوله أنا؟ ثم يا ربي أنت شاهد: إنني غير مقصرة. ما تقصيري؟ لم أرد أن يشتري لي حتى زوج جوارب. هو نفسه الذي لا يعرف الله كان يعرف كل شيء عني. كان يعرف كم عمري. ولقد رأى مرة أيضاً رأسي ووجهي. كان أبي قال له إن الرؤية مرة واحدة حلال. وكان يعرف أمر شعري أيضاً. ثم، أية باقة ورد كان هو نفسه؟! إنسان متراخ سيئ التركيب ملتح. بتلك النظارة السميكة وعقدها المعدني. وبذلك الأنف الضخم في وجهه. إلهي إن سامحته أنت فأنا لا أسامحه. أنا لم أكن قد توسلت إليه. هو نفسه يعرف كل شيء أيضاً. فلماذا إذن أوقع هذا البلاء برأسي؟ لماذا تسبب لي إذن بهذه الفضيحة؟ إلهي لا تسامحه! هو نفسه الملعون جاء إلى أبي أربع مرات ووضع قدميه في فردة حذاء واحدة[1]. ليلعن الله الباعث والمسبب. هو الملعون كان الباعث والمسبب.

سمع في الإدارة وصفي من أخي. ثم قام بنفسه بكل الأعمال. كان يأتي إلى أبي أيام الجمعة، ويجريان اتفاقاتهما. إلى أن تقرر أن يأتي بعد جمعة ويراني نظرة واحدة. إلهي أنت نفسك

شاهد! حتى الآن إذ أتذكر تلك الدقيقة وتلك الساعة يرتجف بدني. أتذكر عندما كان يرقى السلّم، ووقع قدميه إذ يعرج وصوت عصاه إذ تقرقع على البلاط، كأن قلبي يريد أن ينخلع من مكانه. كما لو أنه يضع رأس عصاه على قلبي. واه، لا تعلمون أية حال كانت حالي! جاء فذهب مباشرة إلى الغرفة. داخل غرفة أخي التي كانت غرفة ضيوفنا أيضاً. كان أخي إلى جانبه بضع دقائق. ثم نادى عليّ أن أجلب ماء، وخرج هو بذريعة جلب سجائر.

كنت قد أعددت الشرابت وتركته جاهزاً. ألقيت شادري على رأسي ووضعت الشرابت في الصينية وجئت. كانت غرفتي وغرفة أمي جنب غرفة أخي. شجعتني أمي. فقد كانت ترى كيف زايلني اللون. وإلى أن وصلت باب غرفة الضيوف، انقضى نصف عمري. لم تكن المسافة أكثر من أربع خطوات. ولكنها استغرقت عمراً بأكمله. لم يكن أبي في البيت. وكان أخي أيضاً قد نزل إلى أسفل عند زوجته كي يجلب السجائر وأمي واقفة بباب الغرفة وتوالي القول بصوت خفيف: «اذهبي يا بنيتي العزيزة. اذهبي على مشيئة الله». ولكن، هل كانت قدمي تتقدم؟ عندما وصلت إلى الباب كانت طاقتي قد نفدت. لكثرة ما ارتجفت الصينية في يدي فرغ نصف كأس الشرابت. وما كنت أدري ما أعمل. هل ألتفت كي أصحح وضع الشرابت أم أواصل المضي قدماً؟ كان جذر شعري قد

تعرق. أثلج بدني. كان قلبي ينخلع من مكانه. يا إلهي! لو أنه لم يتكلم ما كنت سأفعل؟

كنت لا أزال أراوح في مكاني عندما ارتفع صوته. الملعون شرع يقول: «يا سيدة إذا كنت تخجلين فيمكن أن أجيء إليك أنا العبد لله». إلهي أنت نفسك شاهد! عندما تم كلامه سمعت مرة أخرى وقع قدمه العرجاء وهي تنجر على السجادة، وجاء ففتح الباب. تناول يدي وسحبني على مهل إلى الداخل. حتى الآن عندما أذكر تلك الدقيقة يكويني معصمي. كما لو وضعوا سواراً من نار حول معصمي. سحبني إلى الداخل. أخذ الصينية من يدي فوضعها على الطاولة. أجلسني على الكرسي وجلس هو قُبالتي. كنت أفكر عساه لا يخلع شادري أيضاً عن رأسي؟! ولكن لا. لم يكن عديم الحياء إلى ذلك الحد.

لا سامحه الله. كان شادري لا يزال على رأسي. وعندما كنت أجلس، أذكر أنني جمعت أطرافه إلى صدري ولكن رأسي ووجهي وعنقي كانت ظاهرة. كان وجهي قد حمي ولا أدري أي حال كانت لي عندما فتح الكلام مجدداً فقال: «يا سيدة! الله نفسه سمح بذلك». ثم نهض ودار حول كرسيي. وجلس مرة أخرى. علمت لماذا يفعل هذا. فحميت أكثر، ولم أدر ما أقول. لقد كان واجباً أن أقول شيئاً كي لا يظنني خرساء. مهما فكرت لم يرد على خاطري شيء. كيف يمكن لفتاة مثلي - لم ترَ أحداً في

بيت أبيها غير أخيها، وقد كانت تغطي وجهها عن كل الرجال الآخرين، ولم تكلم غير النسوة الغريبات، وفي الحمام أيضاً أو في السوق ـ عندما تلتقي رجلاً غريباً أن لا ترتبك وتضيع نفسها؟ أنا لم أكن من بنات المدارس، من فتيات هذه الأيام النّوريات اللائي خبرن ألف رجل. ورجل غريب أيضاً جاء خاطباً. أصابني البكم حقاً. ومهما أكلت نفسي لم أجد شيئاً أقوله. ولكن الله نفسه جاء لنجدتي فجأة. وعيني مسمرة على الطاولة، تذكرت الشربت. قلت مضطربة: «لا يسخن الشرابت يا سيد»، ولكنني لم أستطع أن أقول سيد على نحو صحيح. انفقد الماء من أدنى حلقومي فتركت كلامي ناقصاً. ولكن إذ مضت يده نحو كأس الشرابت تجرأت أكثر وقلت: «أترغب في سيجارة يا سيد؟» وقفزت خارجة من الغرفة. وآه ما كانت حالي! لو أن أخي لم يكن في البيت، واضطررت أن آخذ له السجائر بنفسي؟! ولكن لينصر الله شبابه. أي أخ طيب! لو لم يكن هو عندي ما كنت سأفعل؟ عندما رأى حالي وأنا أهبط السلالم مذعورة، قال: «ما بك يا أختاه؟ ماذا جرى؟ أفلا يتزوج كل الناس؟» وصعد هو نفسه إلى فوق وأخذ له السجائر. وانتهى الأمر. كانت هذه هي المرة الأولى التي رأيته ورآني فيها. الله نفسه شاهد أنني عندما كنت في الغرفة كنت أتمنى أن يحدث ما يجعله يفهم بنفسه أنني أضع على رأسي شعراً مستعاراً. ولكن، هل استطعت أن أتكلم؟ حتى تلك الكلمة الوحيدة التي كنت قلتها جعلت روحي تصل إلى شفتي. وفيما بعد، عندما استعدت حواسي أفهمت أمي

بالمسألة. قالت: «ليس مهما يا بنيتي. سيصلح أخوك الأمر». لقد كنت أعرف أننا لو لم نُفهمه الأمر من البدء فليس هناك من فائدة. فإنني سأصير زوجته، فكيف يمكن أن لا يعرف أنني أضع شعراً مستعاراً؟ ومادام سيعرف أخيراً فلماذا لا نُفهمه من الأول؟ لقد كنت أعرف أنه لو عرف الأمر في بيته فإنه سينبذني في ظرف أربعة أيام. ولكن، ماذا فعل الآن إذن؟ وانظر إليّ، كم كنت قلقة من ذلك الأمر! إلهي! لو أنك عفوت عنه، فإنني لن أعفو. ما الذي فعلتُه؟ بم احتلت عليه بحيث عاملني على ذلك النحو؟ كنت مستعدة أن يُبقيني سنة، وفي هذه السنة أقوم على خدمة أمه وأخته. لكنه لم يقبل. كنت أدري أن الناس يجلسون ويقولون إن فلانة عادت، بعد أربعين يوماً، إلى بيت أبيها. لو أنني بقيت في بيته سنة، فإن ذلك بذاته شيء كبير. لا تظنوا أن قلبي يريده، ها! لا والله. بذلك الشكل والهيئة التي عسى أن يأخذوهما إلى المغتسل، وبساقه الشلاّء تلك. ولكن كان ممكناً أن ألقي له جرواً! ثم بعد انتهاء سنة، فالله كبير. رضيت بذلك كله كي لا آكل خبز أبي مجدداً. لقد تعبت. إن الاستيقاظ صباحاً، على مدى أربع وثلاثين سنة، في بيت واحد والنوم في ذلك البيت إياه! ثم أي بيت؟ سنوات مديدة لم يقع فيه خبر، لا تزاور، لا عرس ولا، ليخرس لساني، عزاء. بعد أن تزوج أخي وأقيم عرس، كان الخبر الجديد الوحيد في بيتنا هو صخب ليالي الماء التي كانت أيضاً شيئاً ما. وتلك أيضاً كانت مرة

في الشهر. حتى الصحون والكاسات في زقاقنا ما كانت ترنّ. لا تعرفون ماذا أقول. لا أريد أن أقول إن بيت أبي كان سيئاً، ها. لا، أبي المسكين. ولكنني قد تعبت. ما يمكن عمله؟ لقد تعبت. كنت أريد، يعني، أن أكون سيدة بيتي.

سيدة بيت! ولكن أمه وأخته كانتا سيدتي البيت. كنت راضية بأن أكون خادمتهم جميعاً على أن يقيني سنة. ولكنه لم يفعل. إنني أدرك الآن لماذا أعطى أكثر من نصف المهر نقداً. لقد كان جعل مهري سبعمئة وخمسين توماناً لا غير. أعطى خمسمئة منه نقداً. ولقد اشترينا به كله وسائل وأثاثاً فسيّرت أمي أربع قطع جهاز. وبقيت مئتان وخمسون توماناً أخرى في ذمته. قال، عندما أعادني إلى بيت أبي، إنه سيسددها عندما تنقضي العدة. إنني أفهم الآن كم كنت حمارة! أتظنون أننا تشاجرنا؟ أو تعاركنا؟ أو أنني قلت سوءً أو غلطت بحيث أنه أوقع على رأسي هذا البلاء؟ حاشا لله! في هذه الأربعين يوماً لم يخرج صوتنا من الغرفة حتى ولو مرة واحدة. لا صوتي ولا صوته هو ابن المحروق سيئ التركيب! ولكنني منذ البدء عندما رأيت أنني ينبغي أن أنام مع أم زوجي ارتعش أدنى فؤادي. أتعرفون؟ إن المرء يحس بعض الأمور. كنت أرى أن ضجة ستقوم، فكنت أداري كثيراً، مضطرة. صدقوني أنني صرت مسكوكة تافهة. الناس لا يعاملون خادماً هكذا. كنت قد عشت أربعاً وثلاثين سنة في بيت أبي بعز واحترام وصرت الآن خادماً

تجلب الماء وتقدمه لأم الزوج وأخت الزوج. ولكن مع ذلك لم أعترض. مع ذلك كنت راضية. إنهما أصلاً لم تأتيا إلى زواجنا، حتى. دعوناهما، ولم تجيئا. وهذا ما خرب الأمر. كون زوجي كان الكل بالكل وهو الذي بحث التفاصيل ووافق عليها، وكون أمه وأخته لا شيء. هو نفسه كان يقول: أمي وأختي لا شغل لهما بأموري. ولكنه يكذب. وهل يصير هذا؟ إن الأم تعطي عصارة روحها لابنها، فكيف يصير ألا تبالي بأموره؟ وأخيراً أيضاً، الله نفسه الشاهد، كانت أمه وأخته هاتان هما من جعلاني أمامه عملة رديئة. كان عرسنا مختصراً جداً. العقد وحفل العرس معاً. كان أخي قد أخذ مسبقاً وسائلي وجهازي ورتّب البيت. البيت، ماذا أقول! فيه غرفتان فقط. رتبوا واحدة منهما بجهازي. مساء، عندما تناولنا العشاء، سلمونا يداً بيد ونقلونا.

واه! لا يريد فؤادي قط أن أذكّر نفسي بتلك الليلة. لا أعادها الله! فرح بهذا القصر! لا أذكر إلا أنه عندما انتهى العقد، جاء ليقبل وجهي وكنت أنظر إلى وجهه ذي النظارة. قال في أذني: «من أجل إعلانك الموافقة أوصيت لك على شعر مستعار جميل، يا روحي!»، ولا تعرفون بأي حال صرت. لابد أنني كنت سأفرح. أفرح لأنه عرف بالأمر وتغاضى عنه ومع ذلك كله رضي بي. ولكن كان كما لو كانوا يقرعون بمكبس في داخل دماغي. كنت أتمنى أن أمد يدي فأقلع من تحت النظارة عينيه المغموصتين. ابن المحروق قبيح التركيب. وهل كان الوقت قحطاً ليوقعني في هذه المخمصة

عند العقد؟! يا إلهي، عساه لا رأى خيراً من عمره! أصلاً لم تنزل لقمة عشاء من حلقومي، وكان دمي يفور. ولو أنه لم يقل ذلك الكلام في الزقاق الذي كنا نمشي فيه، فلا أدري إلى أين كان أمرنا سيصل. لأنني لم أكن أعي حالي. ولكن الله كان في نجدته. يعني في نجدتنا.

في الزقاق إذ كنا نتجه إلى بيته قال لي في وسط الطريق: «لا أريد أن تفهم أمي وأختي الأمر. أتعرفين لماذا؟»، وبدون إرادة اشتهيت أن أقبل وجهه. ولكنني تمالكت نفسي. كل البغض والحقد اللذين انعقدا في قلبي ذابا، كما لو أن محبته استقرت في قلبي بهذه الكلمة. ليأخذه غسّال الموتى! إنني الآن أخجل من نفسي أن انخدعت به على ذلك النحو. كم فرحت! ومنذ ذلك الوقت أيضاً كان أنني أدركت. ولكنني تجاهلت الأمر. عندما يكون زوج الواحدة مسرور الفؤاد، كيف يمكن للواحدة أن تفكر بالسوء؟ لم أهتم. ولكن منذ صباح اليوم التالي بدأ الأمر. في تلك الليلة بالذات ذهبت أقبل يدي أمه. هو نفسه قال لي أن أشكو أن: لماذا لم تأت إلى عرسنا؟! وأنا أيضاً، فيما كنت أقبل يد أمه، قمت بشكايتي. واه! واه! لا رأيتم يوماً سيئاً، لم تخجل قط، وقالت في وجهي أنا العروس الجديدة ووجه ابنها: «لا أهوى قط أن أرى وجه الكنة التي لم أحضر عقدها. أتفهم؟ لست مأذوناً بعد أن تأخذ يد هذه التافهة وتأتي بها إلى غرفتي». هكذا بالضبط. إلهي، فلتقع على لوح المغتسل! أترون؟!

منذ تلك الليلة الأولى كان أمري عاطلاً. الكلبة العجوز! ولكنه هو أبدى قدراً من اللطف ودللني إلى حد أنه أخرج كل ذلك من فؤادي. انقضت تلك الليلة على أي حال. أصلاً، كيفما كانت الليالي فإنها كانت تنقضي. كان المهم النهارات، إذ زوجي غير موجود وكنت أبقى وحدي مع كافرتين. كان زوجي يشتغل في مكتب توثيق عقود. في النهارات، حتى الظهر إذ يعود وفي الاعصار حتى المغارب إذ يأتي إلى البيت، كانت عندي جهنم. لم أكن أذهب حتى باتجاه غرفتهما أصلاً. كنت أؤدي عملي وحيدة فريدة، وأسعى ألا أخرج من غرفتي قدر المستطاع. كنت أرتب غرفتينا. أكنس الباحة كلها. أغسل الأوعية. وكان هو نفسه قد أمر أيضاً بألا أذهب إلى بيت أهلي. ولقد رضيت أنا الحمقاء بذلك أيضاً. ولكن بعد انقضاء أسبوع رضي، من كثرة ما أصريت، بأن نذهب معاً مرة كل أسبوعين، في ليالي الجمعة، إلى بيت أبي. نذهب فنتناول العشاء ونعود من أجل النوم. وقد جعلت المرة كل أسبوعين، فيما بعد، مرة أسبوعياً.

ولكن مع ذلك لم أكن أجرؤ في النهارات أن أضع رجلاً خارج البيت. ولم يكن عندي عمل هناك غير مرة في الأسبوع إلى الحمام، الذي كان واجباً. في الأصباح كان هو نفسه يشتري ما يلزم ويعطينا إياه ويروح. كان مصروفنا منفصلاً. لنا نحن على حدة، ولأمه وأخته على حدة، يشتري اللحم والخضار ومواد

الأكل، يعطيها عند باب البيت ويروح. وكنت قانعة حتى الظهر في أنه لا يأتي إلى البيت خالي اليدين. عندما كان يأتي مساء كان يمر بغرفة أمه وأخته فيسأل عن أحوالهما وفي بعض الأحيان، إن كان شايهما حاضراً، كان يجلس فيشرب قدح شاي ثم يأتي عندي. كان السيئ في الأمر أن البيت ملكهما. يعني أنه كان ملك أمه. وفي الأسبوع الثاني أجبرتاني على أن أغسل أوعيتهما. ولقد رضيت بذلك، ولو أن صوتاً يند عن جدار فإنه لم يكن يندّ عني. ولكن، أكان يمكن كف لسانيهما؟ عندما لم يكن زوجي موجوداً كانتا توجهان ألف انتقاد، تغمزان وتلمزان ألف مرة. تأتيان فتمران من أمام باب غرفتي فتغمزانني بأن عندي شعراً مستعاراً وأن وجهي مجدور وأن عمري أربعون سنة. ولكن، أية باقة ورد كان ابنهم؟ وقضية الشعر المستعار هذه كانت ما أفسد الأمر أخيراً. كيف كان يمكن إخفاؤه عنهما؟ من خوفي أن يفهما كنت أذهب إلى حمام حارتنا القديمة ذاته، ولكن ذات يوم كانت أمه قد جاءت وسألت الدلاّكة. وبأي حيلة؟! تظاهرت بعدم المعرفة وإظهار الشفقة على زوجي لأنه أخذ امرأة عجوزاً بائتة مجدورة الوجه. وليلعن الله هاته الدلاكات. ويحتمل أن تكون أعطتها خمسة قرانات زيادة ففتحت لها باب المناجاة وحدثتها بقصة شعري المستعار، وسخرت مني أيضاً.

إلهي، لا تغفر لهما. ما الذي فعلته أنا لكل أولئك؟ أي مكان ضيّقتْ عليهم سعادتي المنكوبة وهذا الزوج قبيح الشكل الذي صار نصيبي؟ لماذا يحسدون؟ الله يعلم ما قالت. في اليوم التالي روت لي ذلك حاملة ماء الحمام. لقد قلدتني أيضاً كيف أخلع لمّتي وأضعها على ركبتي وأفرك عليها الصابون وأمشطها. طبيعي أنني لم أذهب إلى ذلك الحمام مرة أخرى. ولكنني لم أقل شيئاً أيضاً. غسلت رأسي وبدني بنفسي، ولم أعد إلى هناك. كيف يمكن النظر إلى وجوه هذا النوع من البشر؟ على أية حال، كان المقدور قد وقع، وعرفتا ما كان لا ينبغي أن تعرفا.

اسودّت أيامي بعدئذ. لليلتين أو ثلاث عندما كان زوجي يعود كان يبقى في غرفتهما مدة أطول. وفي ذات ليلة تعشى هناك وعاد، ومع ذلك لم يندّ صوتي، حقاً كم كنت حمارة! أصلاً، كنت كما لو أنني ارتكبت إثماً. كما لو أنني كنت أنا المذنبة، كما لو أنني كنت قد خدعته بشأن اللمة! لم أكلمه كلمة واحدة، ثم أن ذلك لم يكن كل ما هناك. وبعدئذ أجبرني أن نوحد مصروفنا ونذهب صباح ومساء إلى غرفتهما، لنتناول عشاءنا وغداءنا. ولم يعد الطعام ينزل بلعومي هيّناً. يا إلهي، كم كنت حمارة! أوقعوا كل هذه البلايا على رأسي ولم يندّ عني صوت! لماذا لم أفكر أساساً؟ لِمَ لم أجبر زوجي على أن ينفصل عن أمه وأخته؟ كنت مستعدة أن أعيش في إصطبل، ولكن أن أكون وحدي.

ليصر على رأسي التراب! إذ وضعت كفاً على كف وتحملت كل ما حمّلوني إياه. كان كله تقصيري. عشت أربعاً وثلاثين سنة في بيت أبي ولم أتعلم غير طريق المطبخ والحمام. لمَ لم أتعلم أن أجد فناً وصنعة في هذه الأربع والثلاثين سنة؟ أن أتعلم القراءة والكتابة؟ كان يمكنني أن أوفر شهرياً بضعة قروش وأشتري بالأقساط، مثل بتول خانم ابنة عمي، ماكنة زنكَل[٢] بالأقساط وأقوم بالخياطة لحسابي. كانت بنات الجيران يذهبن إلى مصنع الجوارب، وبعد انقضاء سنة تشتري الواحدة منهن ماكنة جوارب ولا يستخرجن خبزهن فقط، وإنما يهيئن بأنفسهن جهاز عرسهن، وفي الأخير يحمل جهاز الواحدة منهن عشرة حمالين، كم سعى أخي أن يعلمني القراءة والكتابة! ولكن أنا الغبية! أنا التي ليغطي التراب رأسي! كان كله تقصيري. الآن أفهم. خلال هذين اليومين لم أكن أفعل غير التفكير في هذه الأمور فجاءت إلى رأسي كل هذه الأفكار السيئة. أقمت أربعاً وثلاثين سنة في زاوية منزل أبي ونصبت عزاء لمّتي. أقمت عزاء قبحي. أقمت عزاء عدم تزوجي. وهل كل النساء قرص شمس[٣]؟ ما عيب كل هؤلاء الناس الذين يضعون لماً؟ وهل كنت وحدي مجدورة الوجه؟ كان ذلك كله ذنبي. جلست واستمعت إلى لوم أمه وأخته وغمزهما. كثيراً ما تركته يذهب يجلس إليهما ويسمع كلام السوء عنّي. حتى سقطت من نظره. سقطت من نظره، وأي سقوط! في الليلة الأخيرة عندما جاء من غرفة أمه، لم

يخلع لباسه، ووقف هناك عند الباب وقال: «أفلا تحبين أن تذهبي إلى بيت أبيك؟»، فانهار فؤادي للتو.

قبل ليلتين كانت الجمعة، وكنا قد ذهبنا معاً إلى بيت أبي وتعشينا هناك، ففهمت للتو ما الأمر. حزرت. قلت: «كما تشاء»، ولم أقل شيئاً آخر. جلست ساكتة على ذلك النحو، ورتقت جواربه. مرة أخرى سأل، ومرة أخرى أجبته الجواب ذاته. وأخيراً قال: «قومي نذهب يا روحي. انهضي نذهب فنسأل عن الأحوال». عجباً لي أنا الحمارة التي كنت ما أزال أؤمل نفسي بأنه ربما كان الأمر غير ذلك. عقدت البقجة. ألقيت الشادر على رأسي وانطلقنا. في الطريق لم ننطق بكلمة، لم أقل أنا شيئاً ولا هو. لم نكن تناولنا عشاء. كانت القدر على الموقد وكان ينبغي أن أصب أنا وآخذه إلى غرفة أمه فنتعشى معاً. ولكن القدر كانت على النار عندما انطلقنا. كان فؤادي قلقاً جداً. كما لو أنني كنت أدري أي بلاء يريد أن يُنزل على رأسي. ولكنني مع ذلك بقيت أتجاهل. لم يكن بيتنا بعيداً جداً.

عندما وصلنا ـ عندما كنت أدق الباب ـ كانت لي الحال نفسها التي كانت عندي ذاك اليوم وراء باب غرفة الضيوف، وجاء هو نفسه فأخذ بيدي وسحبني إلى الداخل. وربما كنت أسوأ حتى من ذلك اليوم. أرتجف من رأسي حتى قدمي. جاء أخي وفتح الباب. وأنا، ما أن وقع نظري على أخي، كما لو نسيت كل هموم الدنيا. نسيت أساساً ما كان هناك. تغاضى أخي عن كل شيء. حيا وسأل

عن الأحوال ودخلنا. وتجاوزنا الدهليز أيضاً. وعندما بلغنا الباحة كانت زوجة أخي في الباحة وأطلت أمي من نافذة الغرفة العليا كي ترى من القادم وكان هو يأتي من ورائي. عندما بلغنا منتصف الباحة توجه المكروه إلى الجميع وقال: «هذه فاطمة خانمكم. أودعتْ في أيديكم. لا تدعوها تعود بعد». وما أن أوشكت أن أصرخ «لكن ماذا جرى؟ أنا لا أبقى. لا أتركك هكذا». حتى كان قد قفز برجله الشلاء تلك الدهليز وأغلق باب الزقاق خلفه.

وانفجرتُ، فيما أنا أصرخ «لا أبقى. لا أتركك»، في بكاء لا ينقطع. وأوصلت أمي المسكينة، مذعورة، نفسها إلي وأخذتني إلى أعلى وراحت تسأل: ماذا جرى؟ وكيف كان بمقدوري أن أقول لهم إن شيئاً لم يحدث؟ لا شجار، لا كلام ولا مقال، لا قول ولا سماع؟ عندما هدأ بكائي قلت إنني تشاجرت معهم. سببته وشتمت أمه وأخته مقذعة، وزعمت وادعيت. وكله كذب! كيف كان يمكنني أن أقول إنه لم يجر شيء، وأن ابن المحروق المنكوب هذا حملني وجاء بي، باليسر نفسه الذي كان أخذني به، إلى بيت أبي وتركني؟ ولكن الأمر كان قد انقضى. كان الرجيل الكريه قد انصرف. وفي اليوم التالي أيضاً ذهب إلى إدارة أخي وأفهمه أنه طلقني وعندما تنتهي عدتي سيسدد بقية مهري. وقال أيضاً: أرسلوا أحداً كي يجمع وسائل وأثاث فاطمة خانم ويأخذها. أترون؟ كانت أمي تدري أيضاً أن كل القضايا من تحت رأس أمه وأخته.

ولكن كيف كان يمكنني مع ذلك أن أبقى في بيت أبي؟ كيف كان بمقدوري؟ ذانك اليومان اللذان قضيتهما هناك كانا بالضبط كما لو أنني كنت في السجن. ليتني كنت في السجن. هناك أقلاً لا يذوب الآدمي لرؤية أمه وأبيه فيغيض في الأرض. لا يخجل إلى هذا الحد من نظرات زوجة أخيه. حيطان بيتنا التي كنت آنس بها كثيراً، كأنهم وضعوها فوق قلبي. كما لو أن طاق الغرفة وضعوه على رأسي. لم أشرب قدح ماء ولا نزلت لقمة طعام من بلعومي. أمي المسكينة! لو أنها لم تصب بالشلل فتلك بطولة منها. والمسكين أخي الذي كان بالتأكيد لا يهضم أن يذهب فيجلب وسائلي وأثاثي. ولا كان يمكنه أن يقوم بعمل آخر. إن ذلك الرجيل الكريه يشتغل هو نفسه في مكتب توثيق ويعرف كل الطرق والأساليب. لم ينم في مكان يجري من تحته الماء(٤). من أين تعرفون أنه لم يوقع هذا البلاء عينه على رؤوس ألف تاعسة أخرى؟ ولكن لا. ما من ابنة محروق حمارة أكثرة حمرنة وأتعس مني. وقولوا ما تشاؤون عن أمه وأخته اللتين ما انفكتا تعيّرانني أن: بيت فلان وفلان ذهبوا يخطبون لابنهم! ولكن أية ابنة محروق كانت حاضرة أن تعيش مع هاتين الكافرتين ابنتي المحروق؟ غيري أنا التي ليهيلوا التراب على رأسي؟ التي جلست واضعة كفاً على كف حتى هدموا كل حياتي على رأسي؟

١٩٥٠

هوامش

(١) كناية عن العناد .

(٢) المقصود سنكَر (Singer) الإنكليزية التي كانت مشهورة تلك الأيام .

(٣) مضرب المثل عند الفرس لجمال الوجه ونصاعته .

(٤) جريان الماء من تحت النائم كناية عن الغفلة ، فصاحبنا إذن يقظ .

زوج أمريكي

ـ فودكا؟

ـ لا. شكراً. لا أتحمل الفودكا. لو كان وسكي فذلك شيء. مجرد نقطة في الكأس فدى ليدك. لا. لا أتحمل الماء أيضاً. أعندك صودا؟ وا أسفاه! إن عادات ذلك القذر الكلبية قد أثرت فيّ أيضاً. لو أنك تدري كم يشرب الوسكي بالصودا! إنني طالما كنت في بيت أبي، لم تكن شفتاي قد مستا الخمر. فأبي لا يشرب حتى اليوم. أي مشروب كان. كلا، ليس مؤمناً متديناً. ولكن، تعرف، لم يكن ذلك مألوفاً في عائلتنا. ولكن أول شيء علمني إياه ذلك القذر هو إعداد الوسكي. عندما يعود من العمل، ينبغي أن يكون وسكيه بالصودا في المجاز في يده. قبل أن يغسل يديه. وهل كنت أعرف ما الذي كان يفعله بتينك اليدين؟! عندما لا يكون موجوداً في البيت، كان يركبني أحياناً هوس أن أطري شفتي بوسكيه. طبيعي أنه في ذلك الوقت لم تكن

ابنتي قد جاءت بعد. وكنت أفقد أعصابي من الوحدة. ولكنني لم أكن أرتاح. كان يحرق حنجرتي بشكل سيئ. ومهما حاول هو أيضاً أن أشاربه، لم يُجدِ ذلك نفعاً. ولكن عندما حبلت كان يصر على إعطائي الجعة لأشرب، أنْ: هذه جيدة لحليبك. ولكن الوسكي لم أتعوده حتى الآخر. ولكن في ذلك اليوم الذي علمت فيه ما شغله، شربت الوسكي، بلا إرادة، صرفاً. ثم صببت كأساً لنفسي وأخرى لتلك البنت صديقته. أي خطيبته السابقة. فقد كانت هي التي جاءت وأعلمتني، فجلسنا معاً نشرب الوسكي ونتناجى. وهات يا بكاء. تصور أن تكون الواحدة حاملة الشهادة الثانوية، تكون جميلة ـ ها أنت تراني. . ـ ويكون أبوها محترماً، ويكون خبزها وماؤها منتظمين، وقد درست اللغة الإنكليزية ـ وفي أية حال لم تكن مضطرة للاستجابة لكل رجل ـ ثم هكذا؟!. . وهل يمكن التصديق؟ كل هؤلاء الشباب الدارسين الذين يملأون البلاد. كل أولئك المهندسين والأطباء. . . ولكن أولئك المغبرين لا يكفون عن الذهاب ويأخذون نسوة أوربيات أو أميركيات. . يأخذون ابنة ساعي بريد حارتهم، أو البائعة في مخزن البقالة الواقع في طريقهم، أو خادمة مركب الأسنان التي وضعت ذات مرة قطناً في أسنانهم. وتعال وانظر أي سلوك وأي تظاهر! كما لو كانت سوزان هايوارد أو شيرلي ماك لين أو اليزابيث تايلور. دعني أقص عليك: ليلة أول أمس، رأيت واحدة من هاته الفتيات. تزوجت

قبل شهرين من فتى إيراني، وقد جاءت إلى هنا قبل خمسة عشر يوماً. أبرقوا لزوجها أن تعال فقد صرت نائباً. أخبرني صاحب بيتنا كي لا تبقى نزيلته الخارجية وحيدة، ويكون إلى جانبها من تعرف لسانها فتناجيها. كان ذلك بالضبط في الأسبوع الماضي. البنت بتينك الكلمتين التكساسيتين اللتين تتكلمهما. . لا. لا تضحك. إنني لا أمزح. إنها تفتح فمها من السعة بحيث حدث ولا حرج. كانت أظفارها لا تزال غليظة. كان واضحاً أنها تغسل يومياً تلالاً من الصحون. وتعرف ما كانت تقول؟ تقول: لقد جئنا فجلبنا لكم التمدن وعلمناكم كيفية عمل المصباح الغازي وماكنة غسل الملابس. . ومن هذا الكلام. كان بيّناً من يدها أنها لا تزال تغسل في تكساس الملابس في الطست. ثم هذه الادعاءات! كانت ابنة راعي بقر. لا من أولئك الذين يُكتشف النفط في أراضيهم فلا يعودون يسلّمون حتى لله. لا. من أولئك الذين يرعون شياه الآخرين. طبيعي أنني لم أقل لها شيئاً. ولكن رجلاً كان في المجلس طلع بإنجليزيته المكسرة فقال لو كان التمدن هو ما تقولين فلتأخذه تلك الشركة التي ترسل جنابك بعد ماكنة غسل الملابس إلينا بوصفك تحفة. طبيعي أن البنت لم تفهم. اضطررت أن أترجم لها. وعندئذ، بدلاً من أن ترد على ذلك الرجيل، اتجهت نحوي قائلة لابد أنك كنت سيئة الأخلاق أو محبة للشجار بحيث طلقك زوجك. بهذه الصراحة. ولكي أخفف حدة كلام ذلك الرجيل

وأخرج البنت من وحدتها، افتتحت الكلام وقلت لها إنني كنت في أمريكا وكان عندي زوج أمريكي وأنني تطلقت. أتدري ما قالت؟ قالت إن هذا ليس عيباً. ما من عمل هو عار. . لابد أن عائلته خدعتك كي لا يصل إرثه إلى طفلك. أو لابد أنك كنت سيئة الأخلاق، ومثل هذه الأمور. كما لو لم تكن، أصلاً، قد وصلت حديثاً، كانت هي المدعية أيضاً! طيب، إنه معلوم. كان زوجها عضو مجلس. لو أن هؤلاء المغبرين لا يذهبون فيأخذون هاته السائبات، فإن فتاة مثلي لا تذهب فتتوسل بكل الوسائل. . لا، فدى ليديك. لا تعطني كثيراً. إنه يخرب حالي. بطن جائع و. . وسكي. هذا القليل في قعر الكأس يكفي. لو أن ثمة قطعة جبن أيضاً، ليس سيئاً. ممنونة. أوه! هذا جبن؟ لماذا إلى هذا الحد أبيض؟ وكم هو مالح! مال. . مال أين؟ ليقوان؟ أين ليقوان هذه؟ . . لا أعرفها. أعرف الهولندي والدانماركي. لكن هذا النوع. . أصلاً لم أكن أحبه. هذا الذي بالفستق أفضل. شكراً! طيب، ما كنت أقول؟ نعم. تعرفت عليه في نادي الأمريكان. كان مضى عليّ سنة وأنا أحضر دروس اللغة، أنت تعرف كم هي مزدحمة. عندما أخذت الشهادة الثانوية، سجلت اسمي لامتحان المسابقة. ولكن، أنت تعرف بين عشرين وثلاثين ألف شخص، كيف يمكن للواحدة أن تُقْبَل؟ لهذا السبب قال أبي ادخلي صف لغة، لتنشغلي بشيء أولاً ولكي تتعلمي لساناً خارجياً أيضاً. وحينئذ

كان هذا القذر معلم الصف. طويل القامة. حسن التركيب. شعر أشقر. أمريكي كامل. ويا لطول يديه. تغطي دفتر التكاليف بكامله. حسناً. أعجب أحدنا بالأخرى. منذ البداية. وكان مؤدباً جداً أيضاً. دعاني أولاً إلى معرض رسم. ثم إلى نادي عباس آباد الجديد. هو من أولئك الذين يرسمون أجساداً بلا رؤوس، أو يضعون الألوان كومة جنب كومة، أو يرسمون وسادة باسم إنسان ويضعون قدحاً على رأسه، أو بقعتي قهوة وسط مترين من قماش. وكان قد دعا أبي وأمي أيضاً، اللذين كانا يحسان فرحاً كبيراً. ثم عاد بنا بسيارته إلى البيت. ويا للآداب! فتح باب السيارة بنفسه، ومن هذه الأعمال. وفي الليل، استقامت الأمور. ثم دعاني إلى حفلة رقص. أحد أعيادهم. أظنه كان (يوم الشكران). أواه! كيف لا تعرف؟ أمريكا في كفة وعيد الشكران في كفة. هو اليوم الذي تخلص فيه الأمريكان من آخر الهنود الحمر. طبيعي أن أبي وافق. ولمَ لا يوافق؟ إذ لم يكن عندي خارج الصف من أتمرن معه، وليس في اللغة من فائدة إن لم يتمرن المرء. ثم اتفقنا أن أدرّسه الفارسية. بالطبع خارج الفصل. كان يأتي مرة في الأسبوع إلى بيتنا لهذا الغرض. تواعدنا. ولا تدري أي حفل كان. كانوا قد ثقبوا القرع في أماكن العينين والمنخرين والفم. وأشعلوا ضياء في داخله. ويا للرقص. والآن إذ صرت أفهم الإنكليزية قليلاً لم أكن أبقى وحيدة في المجلس. ماضٍ! خاصة وقد كان ثمة كثرة

من الإيرانيين . ولكن حتى تلك الليلة لم أشرب الجعة مهما أصر . وكأنه فرح لذلك بالذات . لأنه عندما أعادني وأوصلني إلى البيت ، قال لأمي: أهنئك على أن عندك مثل هذه البنت . وقد ترجمت ذلك بنفسي . فلقد صرت الآن مترجمة كاملة العيار . كنا على ذلك النحو معاً ثمانية أشهر . ذهبنا معاً للتجذيف ، إلى السينما ، إلى المتحف ، إلى السوق ، إلى شميران وشاه عبد العظيم والكثير من الأماكن الاخرى ، التي لم يسبق أن رأيتها . إلى أن دعانا ليلة الميلاد إلى بيته . وأنت تعرف ليلة الميلاد . كان أبي وأمي هناك أيضاً . وكذلك ففر . ألا تعرفه؟ اسم أخي؟ فريدون . كانوا قد أرسلوا له ديكين روميين مطبوخين من لوس أنجلس نفسها . . أواه؟ فماذا تعرف إذن؟ ذلك المكان الذي فيه هوليود أيضاً . ليس معنى هذا أنه وحده من أرسل له . إنهم يرسلون لهم جميعاً إلى طهران . الرومي والجعة والسجاير والوسكي والشوكولاته . . حدث ولا حرج . صدقني ، كنت راضية بأن يكون قاتلاً ـ لصاً ومجرماً ـ عضو عصابة ـ ولكن لا يكون ممن يمارسون تلك الأعمال . فدى ليديك: قطرة أخرى من ذلك الوسكي . كما لو أنه ليس أمريكياً . . إنهم يشربون الـ«بوربون» . له طعم التراب . نعم ، هذا اسكتلندي . مرتب مشذب جداً . مثل الإنكليز أنفسهم بالضبط . طيب ، ماذا كنت أقول؟ نعم . في تلك الليلة خطبني رسمياً ، وعلى مائدة الطعام . وأنا المترجمة . أليس ذلك ظريفاً؟ لم يسبق أن تزوجتْ

واحدة على هذا النحو. قطع أولاً الديك الرومي، ووضعه في صحوننا. ثم فتح الشمبانيا. صب لأبي وأمي. صب للجميع. طبيعي أن ماما لم تشرب. ولكن بابا شرب. وأنا أيضاً بللت شفتي. في البدء كانت حادة وحامضة. ولكن لما ذهبت حدتها، بقيت حلاوتها. ثم خاطبني قائلاً قولي لبابا إنني أخطبك. أصر أن أتكلم جملة فجملة وببطء وإلخ. . أنه قد أتم خدمته ـ أنه معفو من الضرائب ـ أنه ليس مريضاً ـ أنه يتقاضى ١٥٠٠ دولار مرتباً شهرياً وهو B ـ صنف دمه ـ وليست عليه أقساط. وأن أمه وأباه في لوس أنجلوس، ولا يتدخلان في شؤونه، وما إلى ذلك. أبي كان راضياً منذ الليلة الأولى. هو نفسه قال لي: انتبهي يا بنيتي العزيزة، إن واحدة من ألف فتاة لا تصير زوجة لأمريكي. هذا ليس مزاحاً. يعني أنهن لا يقدرن. ولا يزال قوله هذا في أذني. ولكنك أنت نفسك تعرفين. أنت التي ينبغي أن تعيشي مع زوجك. ولكن اطلبي منه مهلة أسبوع كي تفكري. وقد فعلنا ذلك. طبيعي أنه منذ البدء كان الأمر منتهياً. كانت العائلة كلها تعرف. ومرتين أو ثلاثاً أيضاً دعوات وولائم ومثل هذا النوع من الأمور، ويا للحسد. ويا للتباهي بالبنت، ولهذه القضية بالذات. زعلت علي كل بنات الخالة وبنات العم. لقد قال أبي حقاً. لم يكن الأمر مزاحاً. كانت كل البنات يتمنينه. ولكن صاحبنا خطبني أنا. وهل كان ثمة معنى في أن أضحي وأقدم ابنة أخرى بدلاً عني؟ في هذا الخضم لم يكن

ينق غير جدتي. كانت تقول عندنا في العائلة كاشي، أصفهاني وحتى بوشهري. نعرفهم جميعاً. ولكن لم يكن عندنا أمريكاني. ما نعرف من. عريس لا تستطيعين أن تذهبي عند عائلته ولا تستطيعين أن تفهمي عمله وشؤونه من جيرانه. . وأمثال هذا الكلام من كلام العجائز. حتى أنها لم تحضر عقدنا. قامت فذهبت إلى مشهد كي لا تكون حاضرة. ولكن أنا نفسي كانت الدنيا لا تسعني. كنا قد أخبرنا محرر عقود من المعارف. كان كل أفراد العائلة وبضعة أشخاص أمريكان حاضرين. ويا للتصاوير لسفرة العقد. وقد صور أحد أصدقاء زوجي أيضاً فيلماً. ولكن يا لهؤلاء الأمريكان! لقد كانوا يريدون أن يفهموا كل شيء. كانوا يأتون فيحاصرونني بالأسئلة. يعني أنني الآن عروس، ولكن هل يفهمون؟ - ما اسم هذا؟ - قند - لماذا يحكونه على هذا النحو؟ - ما المكتوب على الخبز؟ - من أين يأتون بالسذاب؟. . ولكن مهما كان، فقد مضى. وفي ذلك المجلس إياه استخدموا اثنتين من فتيات العائلة بعنوان سائقتين لإدارتهم. جعلوا المهر مائة ألف تومان. وقال كلمة لا إله إلا الله عند سفرة العقد ذاتها وبأية مشقة! ويا للضحك الذي ضحكناه على كيفية قوله لا إله. . . كي يصير العقد شرعياً، زعماً. وعمله؟ طيب، كان معلم لغة إنكليزية. وكتبت فيما بعد في القبالة أنه حقوقي. وكان إثنان من موظفي السفارة شاهديه أيضاً. ولقد كان يمكنني - بهذه الكذبة التي قالها -

أن أرميه في السجن. وأن أطالب بالخسارة أيضاً. كان بمقدوري في الأقل أن أجبره أن يضع، علاوة على الأربعمائة الدولار التي يعطيها الآن لتغطية نفقة ابنتي، ستمائة فوقها. ولكن ما الفائدة؟ لم تعد عندي أصلاً الرغبة في رؤيته. لم أكن مستعدة أن أقضي ساعة واحدة معه. وكان هذا ما جعله يرضى أخيراً بأن يعطيني الطفلة، وإلا فبموجب قانونهم كان يمكنه أن يحتفظ بالطفلة. طبيعي أنني تنازلت عن مهري فليأخذه المغتسل هو وماله. لو كنت تعلم من أي طريق كانت أمواله تأتي! وهل يمكن أن يصير هذا المال عقداً ذهباً ويشد إلى العنق؟ أو شراء لحم وأرز وأكلهما؟ كلامنا هذا نفسه قالته تلك الفتاة ذلك اليوم أيضاً. صديقته السابقة. يعني صاحبته. خطيبته.. ما أدراني! كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي رأيتها. كانت قد جاءت بالطائرة مباشرة من لوس أنجلوس إلى واشنطن. واستأجرت من المطار سيارة فجاءت مباشرة إلى بابنا. كان قد مضى علي عامان كاملان في واشنطن. لم يأتِ أي خبر من عائلته. كان يقول إن الطريق بعيد، وإن كل امرئ مشغول بشؤونه، وما إلى ذلك. وأنا أيضاً كنت مرتاحة أكثر، بدون رئيس متسلط، كنت أرسل أحياناً رسالة. أو كانوا هم يرسلون، وأرسلت لهم أيضاً صورة ابنتي. كما أرسلوا هدية ميلاد الطفلة. وأرسلنا تصويرها عندما أكملت السنة فلم نسمع منهم شيئاً حتى جاءت تلك الفتاة. حيّت وقدمت نفسها. بأدب بالغ سألت أفلا

تنزعجين من الوحدة؟ وبخ بخ يا لجمال الطفلة وما إلى ذلك.
وكنت ألهي نفسي بغسالة الملابس التي كان أحد أجزائها قد تعطل.
بدون تردد جاءت لمساعدتي. صلحناها وأدخلنا الملابس فيها وذهبنا
فجلسنا فانفتح همّ فؤادها. قالت إنها كانت خطيبته عندما أخذوه
إلى الحرب الكورية. وعندما انتهت الحرب لم يعد إلى لوس
أنجلوس. يأخذ شغلاً في واشنطن هذه. والله وحده يعلم أي
كوارث أنزلوها برؤوس شباب الناس، بحيث أنهم عندما يعودون
يقبلون أمثال هذه الأعمال! فسألت: أي شغل؟ تعجبت بالغ العجب
لأنني لم أكن أعرف بعد ما شغل زوجي. اتضح، وطبعاً هو ليس
عاراً. ولكن أفراد عائلته جميعاً تركوه بسبب شغله هذا. ومهما
قال لهم، لم ينفع.. وكنت أغلي في داخلي مرتعبة من أن يكون
جلاداً. أو مأمور غرفة الغاز أو الكرسي الكهربائي. فحتى أمثال
هذه الأعمال يمكن حشرها بشكل ما بين الأشغال الحقوقية. ولكن
شغله ذاك؟ عندما ذكرتْ اسمه، اسودت الدنيا في عيني. بحيث
نهضت الفتاة نفسها وذهبت نحو البوفيه وأخرجت زجاجة وسكي
وصبت كأساً سلمتها بيدي وصبت لنفسها أيضاً وواصلت
المناجاة.. عنه إذ كان الخطيب الثالث الذي يذهب من يديها على
ذلك النحو. قتل أحدهم في الحرب الكورية. والثاني في فيتنام.
وهذا هكذا ظهر. كانت تقول ليس معلوماً أصلاً لماذا يأخذ أولئك
الذين يعودون أمثال هذه الأشغال العجيبة الغريبة. أو يصيرون

حمقى ومجانين وسراقاً وقتلة . . وعلي أنا التي لم أستطع حتى الآن أن أعرف ما شغل زوجي! وأنني أنا التي لم تكن ابنة خادمة أو بنتاً لقيطة أو يتيمة . كنت ذات شهادة ثانوية وعندي أم وأب وأمثال هذا الكلام . . نعم ، فدى ليديك . واحدة أخرى ليست فكرة سيئة . ولم يأت ضيوفك أيضاً . . يجف حلقومي على نحو سيئ . كان السيئ في الأمر أن البنت كسبت لنفسها مكاناً في قلبي . كانت جميلة رشيقة ومرتبة ونظيفة . وتقول إن لها سبع سنوات في لوس أنجلوس إما تبحث عن زوج أو عن نجومية السينما . ثم قمنا معاً فنشرنا الغسيل ووضعنا ابنتي في عربتها في مؤخرة السيارة وذهبنا إلى محل شغل زوجي . فأنا أيضاً لم أكن لأصدق . وما لم أر بعيني فلا فائدة . ذهبنا أولاً إلى دائرته . حيينا ، ثم سُئلنا ما أمركما وأية تصاوير لأية متنزهات وأشجار وخضرة . لو لم يكن المرء يعرف ما شغل المحل ، لظن أنهم يبنون في داخله بيتاً لشهر العسل . وكل شيء وفق خطة وأبعاد ومقاييس ، والأنابيب والمقابض ذوات الطرفين وباقة الورد فوقها ومن أي خشب تريدون . والقماش الذي ينبغي أن يغلف به وأية مراسم . والعربة التي يجلبها المرء وذات كم حصاناً ، أو إذا رغبتما فنجلبه بالسيارة فيكون أرخص ، والسؤال عن نوع السيارة ، وكم شخصاً يلزمون للتوديع وما أجرة كل منهم كي يعينوا حد الأحاسيس ويعرف كل منهم من يمثل من الأقارب وبأي لباس وفي أية كنيسة . . أنا أقول شيئاً وأنت تسمع

شيئاً آخر. ولقد تركوا في إدارتهم أكواماً أكواماً من الدفاتر والكبريت والمناديل الورقية كمواد دعاية. وعليها صور وأوصاف وقد طبعت عليها جمل مثل «النوم الأبدي في المخمل» أو «المتنزه الفلاني نسخة طبق الأصل من الجنة»، وأمثال هذه الأمور. كان الموظفون يحاصروننا: هل تريدون مفرداً أم عائلياً؟ لكم شخص؟ وأنه سيكون في نفعكم إن هيأتم عائلياً إذ يصير أرخص بنسبة خمسين بالمائة. وأننا نعطي بالأقساط أيضاً. . وأنا التي كان فؤادها يقارب الانفجار حقاً، لم أكن أصدق أصلاً أن زوجي في هذا الشغل. فلقد قال: حقوقي!

أخيراً عرفنا بأنفسنا وأخذنا عنوان محل شغل زوجي. لا على شكل فاضح بحيث يشمون، وإنما على أنها. . نعم. . أخته وأنها جاءت من لوس أنجلوس وينبغي أن تعود عصراً، وأن عندهم شغلاً واجباً وأنا لم أكن أعرف أين محل عمل زوجي اليوم. . وخرجنا. وذهبنا إلى محل عمله. وأنا لم أصدق حتى رأيته من وراء صف أشجار القيقب. . كان قد شمر عن ذراعيه وهو يرتدي ملابس عمل وراح يذرع الأرضية الخضراء ويضع علامات على زواياها الأربع، ثم يشغل المعول الكهربائي ويثقب حول المحل، ويذهب إلى الآخر بجانبه. عندئذ يجيء شخصان أسودان، فيقتلعان النجيل قطعة واحدة عن الأرض، ويضعونه في شاحنة صغيرة، ثم يعود زوجي ويثقب الأرض مجدداً بالمعول ويُخرج ذانك الأسودان ترابها

ويأتيان به ويفرغانه في شاحنة أخرى. وعلى هذا النحو يذهب زوجي إلى أسفل ويأتي إلى أعلى. ثم واحد من ذينك الأسودين. ولكن الثلاثة كان لباسهم من اللون نفسه. وبأية دقة كانوا يعملون! لم يكونوا يدعون ذرة تراب واحدة تضيع هدراً وتسقط على النجيل في الأطراف، وكنا نحن الاثنتين نجلس على وضعنا الأول ونتفرج نصف ساعة من بين ثنايا القيقب جنب الشارع ونبكي شاهقتين. وكانت تمر من جانب سيارتنا الشاحنات تحمل التراب والنجيل إلى الخارج، أو تُخرج صناديق جديدة يصفُّونها على الأرض، منتظرين اكتمال الحفرة. كانت الأيام نفسها التي يجلبون فيها الجنود من فيتنام. مجموعة مجموعة. يومياً مئتين أو ثلاثمائة. وعجيب كم كان عليهم ازدحام: غير مجموعة زوجي كان ثمة أيضاً عشر مجموعات أو اثنتا عشرة تعمل. كل مجموعة في أحد جوانب المتنزه. ويا له من متنزه! اسمه آرلنغتون. لابد أنك سمعت باسمه. عاصمة واحدة لأمريكا وآرلنغتون واحد. مشهور في الدنيا كلها. أصلاً ثمة أمريكا واحدة وآرلنغتون واحد. يعني أن ذلك قالته لي الفتاة ذلك اليوم. منذ زمان حروب الاستقلال، اشتهر هذا المكان. «كندي» هنا أيضاً. الذي يذهب الناس لزيارته. وله حرس شرف، يجري استبداله، وبأي طقوس! من هذا الجانب إلى تلك النهاية نجيل، وهضبة مستوية، وحول كل قطعة نجيلٌ وأشجار وممرات قيقب، وفوق رأس كل شخص علامة بيضاء من حجر وعليها اسم

الشخص وتفاصيله. والعقداء هنا والرواد في ذلك الجزء والجنود العاديون في ذلك الطرف. تقول البنت: انظري! بتسلسل الأقدمية العسكرية ذاك. أنا أقول شيئاً وأنت تسمع شيئاً آخر. تقول: كل سعينا نحن الأمريكان ينتهي بآرلنغتون هذا! ويا لفؤادها المشحون! سبع سنوات انتظار وثلاثة خطّاب ضائعين وأرتني مكان ذينك الآخرين أيضاً ومحل كندي وذلك المكان الذي يجري فيه تبديل حرس الشرف، ثم عدنا. لم تكن عندي طاقة للتفرج على أي شيء. وتناولنا الغداء أيضاً في الخارج. وذهبنا بعد ذلك إلى السينما. راحت الطفلة تصرخ باكية، وحتى لم أفهم ما جرى. وفي الرابعة عصراً أوصلتني إلى باب البيت وذهبت. كانت قد أخذت تذكرة ذهاب وإياب بتخفيض فكانت مضطرة أن تعود في اليوم ذاته. أو تدري ما كانت آخر كلمة قالتها؟ قالت: لكثرة ما كان عندهم من حروب مع تلك العوالم نسوا عالمنا..

وعندما عاد زوجي عند المغرب من الشغل طرحت الموضوع معه. يعني أنه عندما ذهبت البنت.. بقيت أفكر أو أتصل بالإيرانيين والإيرانيات من معارفي مستشيرة. تذكرت أولاً ذلك اليوم الذي أخذني فيه مصراً إلى مسكَر آباد(1)، قبل عرسنا. بالضبط كما لو كنا ذاهبين لزيارة متحف كَلستان. لم أكن حينئذ أدري أصلاً ما هي مسكَر آباد وأين تقع. قلت لو أنه لم يكن موجوداً لبقيت أجهل الكثير من أماكن طهران هذه. وفي ذلك اليوم أيضاً

لم أكن أعرف. كان سائق إدارتهم يعرف. وكنت أنا مترجمة زعماً. وراح يوالي الأسئلة عن رسوم التكفين والدفن. ولم أكن أدري. السائق أيضاً كان أرمنياً فلم يكن يعرف رسومنا. لكنه مضى فجلب أحد بوابي مسكَر آباد الذي راح يتكلم وأترجم أنا. لم أكن أفهم حينذاك أصلاً ما كان غرضه من كل تلك الأسئلة. ولكنني أتذكر أن جدتي جعلت من تلك المسألة ذريعة للنقّ استياءً. أن: ما معنى ذلك؟ رجيل لا يصلي، جاء لخطبة ابنة الناس فيأخذها ويذهب بها إلى مسكَر آباد؟ أتذكر ذلك اليوم، أنه كان ثمة فيما عداه أمريكي آخر معه، وإذ ترجمت لهما توضيحات البواب، طلع ذلك الآخر فقال لزوجي أنت ترى أنهم حتى لا يستعملون صندوقاً. إن لف قطعة قماش لا يحتاج استثماراً. كنت أعرفه، كان مستشار مؤسسة الميزانية والتخطيط. وكما لو أنهما كانا اتفقا أن يتكلما مع المؤسسة بهذا الشأن. وانظر إلي، التي لم أكن أفهم في تلك الأيام تلك الأمور. أتذكر أنهما فهما في ذلك اليوم أننا لا نضع في الصندوق، شرح لي أنهم يزوقون كما العروس والعريس ويضعون في الصندوق، وإذا كان عجوزاً نضع قطناً داخل الفم ونجعد الشعر وأن ذلك كله يقتضي صرفاً. ولقد نقلت تلك الأحاديث على العشاء ذلك اليوم لجدتي التي انزعجت وشرعت تنق. ثم تركت - حين العقد - وذهبت إلى مشهد. ولكن أفهمتُ؟ قل لي أنت. فتاة ابنة عشرين سنة، ويدها الآن في يد خاطب أمريكي ووسيم وذي

مال ومحترم. وهل يبقى بعد ذلك موقع للشك؟ ثم ما شأني أصلاً بشغل مسكر آباد؟ سيستغرق وقتاً طويلاً حتى أفكر، مثل جدتي، بهذه الأمور. وعندما كنت في واشنطن، كان يحدث أحياناً أنه عندما يعود من العمل عصراً كان يدردم أن السود يجرّون شغلنا من أيدينا. وأتذكر أنني سألت مرة وهل للسود أيضاً حق القضاء؟ فأنا حتى الآن كنت أتصور أن «لوير» تعني: قاضي أو حقوقي أو أمثال هذه الأمور التي لها علاقة بالعدلية. على كل حال، عندما دخل من الباب وأعطيته وسكيه بيده، صببت كأساً لي أيضاً وجلست في مواجهته وطرحت المسألة. كنت قد عزمت رأيي، وأجريت كل مشاوراتي. قالت إحدى صديقاتي الإيرانيات في الهاتف إن من الواضح أن هؤلاء يفعلون أمثال هذه الأفعال جميعاً. ولكل البشرية. فقلت لها هل تيسر الوقت لك الآن لرفع الشعارات؟! طبيعي أنني كنت أدري أن قلبها مملوء. كانوا ألغوا جوازها. لم يكن لها حق العودة ولا حق البقاء. وكانت تعمل على ترك التابعية لتصير من تابعية مصر. فلم يكن ثمة مجال لأقول لها لو أن الأمر هكذا فلماذا بقيت أنت في أمريكا؟ وواحد آخر، وهو شاب وسيم تمنيت مرات عدة لو كنت زوجته، أتدري ما قال؟ قال: إيه. . أتصور أنك تشتاقين لمباهج أمريكا! عيناً. أو تدري ما كان شغله هو نفسه؟ لا شغل له. كل ما هنالك أن امرأتين أمريكيتين وضعتا عينيهما عليه. لا تتصور أنني سكرانة أو تتصور أنني أتواقح. كانت إحدى المرأتين معلمة،

والأخرى مضيفة طيران. وكانت كل منهما تمتلك بيتاً. وكان ذلك السيد الشاب ثلاثة أيام في هذا البيت وأربعة أيام في ذلك. يتسلْطن. لا يدرس، لا دخل له ولا تأتيه عملة خارجية. ولكنه كشيوخ الخليج بالضبط. يصر على الإيرانيين فيأخذهم ويباهيهم ببيته وحياته كما لو لم يكن هذا العمل قبيحاً. . نعم.

هكذا يصير أنني في الثانية والعشرين أو الثالثة والعشرين يجب أن آخذ يد ابنتي وأعود. ولكن مع ذلك ليرحم الله أباه. عندما أغلقت الهاتف، وجدته يدق، رفعت السماعة وإذا بشاب إيراني آخر يعرف عن نفسه. قائلاً: نعم، إنه صديق ذلك الشاب ويدرس القانون وإن فلاناً قال له إن مشكلة طرأت لي فماذا يمكنه أن يفعل. . . من هذا الكلام. رجوته فجاءني. جلسنا نصف ساعة وبحثنا تفاصيل القضية واتخذنا قراراً، ومن هنا فقد كنت مطمئنة وعندما جاء زوجي، كنت أدري ما أريد، جلست حتى الساعة العاشرة، شربت معه الوسكي كأساً بكأس وأفهمته أنني لن أبقى بعد اليوم في أمريكا. ومهما أصر من أين علمت لم أكشف له شيئاً. كان يتصور أن أباه وأمه، أو أخواته وأخوته صدرت عنهم ملعنة. وأنا بدوري لم أقل نعم ولا لا. ومهما أصر على أن نذهب في جولة تلك الليلة، أو نذهب إلى السينما أو إلى ناد ونحل القضية غداً، لم أرضخ. عندما قلت له كلامي الأخير، ذهبت إلى غرفة طفلتي وأرتجت الباب من وراء وسقطت كالعفريت. كنت سكرانة

تماماً حقاً. كما أنا الآن بالضبط. وفي الصباح ذهبنا إلى المحكمة. والظريف أن القاضي كان من. . قال إن هذا أيضاً شغل كبقية الأشغال، وإن هذا لا يصح سبباً للطلاق. قلت له يا سيدي القاضي لو كانت لك بنت وهل كنت تعطيها لآدمي كهذا؟ قال: يؤسفني أنني لا بنت عندي. قلت: كيف بالكنة؟ قال: عندي. قلت: لو أن كنتك جاءت غداً وقالت إن زوجي الذي كان أولاً معلماً إذا به الآن يقوم بهذا الشغل، أو أنه كذب أصلاً. . فتدخل زوجي وقطع كلامي. لم يكن يريد أن ينكشف موضوع الكذب. نعم، على هذا النحو كان أن وافق. ووقع أيضاً على ورقة نفقة ابنتي وأخذت منه هناك نفقات العودة. نعم. على هذا النحو كان أننا نحن أيضاً تزوجنا بزوج أمريكي. فدى ليديك! كأس أخرى من ذلك الوسكي. ليس معلوماً لماذا لا يأتي مدعووك!. . ولكن. . يا للغفلة!. . عسى ألا تكون تلك البنت. . حفرت أمام قدمي على هذا النحو؟. . أعني صديقته. . ها؟

هوامش

(١) منطقة في جنوبي طهران، كانت فيها مقبرتها الرئيسة.

إثم

كانت عشية قراءة الروضة الأسبوعية عندنا. وقد كنست ورششت بالماء إلى سطح البيت وفرشت فراش النوم، كانت السماء قد أظلمت. وقد جاء المستمعون للروضة. كانت باحتنا ـ التي نفرش محيطها الداخلي صيفاً بسجاد المماشي، ونصفُّ أصصنا على نحو مرتب حول حوضها ـ تمتلئ. عندما ينتهي شغلها، كنت أجلس في الظلمة عند حافة السطح أتفرج على الباحة. عندما كان الوقت صيفاً ونحن نقرأ الروضة في الباحة، كانت تلك عادتي. تلك الليلة أيضاً تفرجت مدة طويلة على الباحة. كنت أجلس على نحو يجعل رأسي وجسدي في الظلام وأتفرج في ضياء الباحة على الناس الذين يقْدمون واحداً واحداً ويجلسون في أماكنهم الاعتيادية. مازلت أتذكر جيداً. ما زال ذلك الشيخ عندما يبكي يظنه المرء يضحك. جاء وجلس في مكانه المعتاد، إلى أدنى من كرسي قارئ الروضة. كنت وأختي دائماً ما نضحك على صوت بكاء هذا الشيخ.

وتعاركنا أمي وتعض ظاهر كفها وتحملنا على الاستغفار. وكان ثمة آخر لا يغطي وجهه عندما يبكي. ولا يخفض رأسه أيضاً. الجميع يفعلون ذلك. كما لو أنهم يخجلون أن يرى أحد آخر دموعهم. ولكن هذا لم يكن يخفض رأسه ولا يضع يده على وجهه. فيما يقرأ قارئ الروضة، كان هو ينظر أمامه ويجري الدمع، بلا صوت، على وجهه الذي يحمل لحية ملح ـ فلفلية قصيرة. وفي الآخر أيضاً عندما تنتهي الروضة، يذهب إلى الحوض، ويلقي على وجهه ماء. ثم، فيما يبلل وجهه، يشرب شايه، ويذهب. لم أكن أدري ما يفعله في الشتاء عندما نقرأ الروضة في غرفة البيت الرئيسة. ولكن في الأصياف، في كل ليلة كنت أراقب فيها بساط الروضة من حافة السطح، كان الأمر كذلك. لقد أولعت بهذا الشخص. وعندما كنت بمفردي، لم أكن أبكي على صوت بكائه، بل أحمل غصة. ولكن في كل مرة أكون مع أختي الخبيثة هذه، كانت تنفجر ضاحكة فتضحكني أنا الأخرى. وحينذاك كانت أمي تصير عصبية. لم يكن له مكان معين. في كل ليلة يجلس في مكان. كنت أرتاح بشكل خاص لبكائه إذ كان بلا صوت. ولا يهتز كتفه. كان يجلس مستقيماً، لا يتحرك، ويسيل الدمع على وجهه وعلى لحيته الملح ـ فلفلية، التي يظهر البلل عليها حتى لي وأنا فوق السطح. في تلك الليلة أيضاً جاء، وذهب فجلس مستقيماً في مواجهتي، على الحصير. لم

يكن سجاد ممراتنا يغطي كل الباحة، فكنا نفرش في أحد الأطراف حصيراً. كان الجانب الأدنى من الباحة قد امتلأ. وكانت رفيقاتي يجلسن في أول المجاز. وقد وقف ساقي ليالي الروضة إلى ذاك الطرف، في الظلمة، وراء الأصص يصلي، وكنت أسمع صوته إذ يصلي بصوت مرتفع. كم كنت أهوى أن أتمكن أن أصلي بصوت عال. لكم كانت أمنية عجيبة! منذ أن تعلمت إقامة الصلاة، أتذكر ذلك تماماً، ولقد بقيت هذه الأمنية في قلبي ولم أكن أتصور أن تتحقق هذه الأمنية. وفي الآخر لم تتحقق. بالنسبة لبنت، بالنسبة لامرأة، لا ينبغي أن تصلي بصوت عال قط، كيف يمكن لهذه الأمنية أن تتحقق. هذا قلته. بقيت مدة أتفرج على داخل الباحة ثم عندما عاد أبي من المسجد أيضاً، سحبت نفسي سريعاً عن حافة السطح ونهضت. لم يكن ضرورياً أن أنظر بعد لأرى ما سيحصل. وما سيفعل الناس. وعندما يأتي أبي، لم أكن أراه. عندما ينترك صوت نعليه داخل الزقاق فوق المجاز، ثم تدق طقطقة كعبيهما على أرضية المجاز، كان ذلك ينبهني إلى أن أبي قد جاء. ومن ورائه كنت أسمع أيضاً صوت بضعة أزواج من الأحذية الأخرى على آجر أرضية المجاز. وكان أولئك مؤذن مسجد أبي والمريدون الآخرون الذين يعودون مع أبي من المسجد. صرت أعرف أن أبي عندما يعود سيخلع نعليه في تلك الزاوية، لصق الجدار، وسيقف بضع دقائق على السجادة التركمانية

الصغيرة، التي يفرشها تحت قدميه، وينهض كل من كانوا جالسين حول الباحة وداخل الغرف يشربون الشاي ويدخنون الأركيلات، احتراماً له، ثم يجلسون معاً. لم يكن لازماً أن أرى ذلك. كنت أعرفه كله. كان ذلك الوقت أواخر الصيف، وربما كان صيفي الثالث الذي أجيء فيه في كل ليلة روضة ـ عندما أفرش أفرشة النوم ـ إلى حافة السطح وأتفرج على داخل الباحة. فاجأتني أمي مرتين أو ثلاثاً. فيما كنت مشغولة بالتفرج، صعدتْ السلالم وعندما وصلتْ إلى وراء ظهري، نادتني بصوت خافت. فقفزت عن مكاني خائفة خجلة، ووقفت أمام أمي ساكتة، وعاهدت نفسي في باطني ألا أجيء بعد إلى حافة السطح. ولكن أيمكن هذا؟ وهل كان ممكناً لفتاة في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، كما كنت حينذاك، أن تصغي إلى مثل ذلك الكلام؟ سبق أن قلت هذا. عندما جاء أبي، قفزت عن مكاني وذهبت نحو الفراش. كان الجيد في الأمر أن أبي لم يكن يدري بعد أنني أجلس في ليالي الروضة على حافة السطح وأتفرج على الرجال. لو كان يعلم لكان ذلك سيئاً. كنت متأكدة أن أمي لن تأتي قط، ليس أنها لا تفضحني أمامه فقط، بل وكانت دائماً تلزم جانبنا. وإنني أتذكر جيداً مشاجرتها مع أبي بشأن شراء شادر صلاتي. كان الفراش مبسوطاً. برد هواء المساء، وعندما جلست على الحشية ـ التي لم تكن لي وحدي بل كنت أنام عليها مع أختي ابنة السبع سنوات ـ وجدت الجو بارداً جداً. لكم كنت

أتذكر جيداً! وهل رأيتم قط الإنسان عندما يتذكر أحياناً شيئاً يحبه كثيراً، بأية سرعة ينساه؟ ولكن في بعض الأوقات أيضاً كم تثبت هذه الوقائع الصغيرة في ذاكرة الإنسان! لكم بقي كل ما جرى تلك الليلة في ذاكرتي! ومازلت أذكر أيضاً أنني لم أعر بالاً لابنة الجيران ـ التي كانت قد جاءت تفرش فراشهم ونادتني من الجدار الحاجز. تظاهرت بالنوم ولم أرد عليها. أنا أيضاً لا أدري لماذا فعلتُ ذلك، ولكن حشيتي كانت من البرودة بحيث أنني لم أرد أن أتزحزح عنها. ثم بعد أن نزلتْ ابنة جيراننا، نهضتُ فجلست على فراشي، بأية أشياء كنت أفكر! فجأة انتبهت، فكرت في أنني منذ مدة كنت أتمنى أن أذهب متسللة فأتمدد على فراش أبي. لم أكن قد تجرأت بعد على أن أنام عليه. كنت لا أريد إلا أن أتمدد عليه. كنا نفرش فراش أبي وحده في الجانب الآخر من السطح، وكنت وأمي والأطفال نتام في هذا الجانب وفراش أخي، الذي كان يكبرني بسنتين في ذلك الجانب، في آخر صف فراشنا. ما أن خطر هذا التفكير على رأسي، حتى خجلت كالسابق من نفسي، فحرفت نظرتي عن فراش أبي. ثم أنني لأتذكر جيداً أنني نظرت مدة إلى السماء. ولقد نطّت نجمتان أو ثلاث. ولكن لم يكن ممكناً. نهضت فذهبت ـ بطيئة بطيئة ومحنية، كي لا يقع رأسي في نور مصابيح الباحة ـ إلى الطرف الآخر، ووقفت جنب فراش أبي. فراشه وحده عليه ملاءة. أتذكر جيداً أنني كل ليلة عندما كنت

أفرش فراشه: عندما كنت أحرك حشيته وأضع الوسادة فوقها وأجمع اللحاف في أدناها، كانت عنده ملاءة بيضاء وكبيرة نمدها فوق ذلك كله ونسوي أطرافها. كان بياض ملاءة أبي يخطف النظر في الظلمة، ويثير هذا الفكر في رأسي كل ليلة. كان يثير بي الهوس كل ليلة. هذا الهوس في أن أتمدد فوقها بضع دقائق، نصف ساعة. خاصة في ليالي الرابع عشر عندما يكون ضوء القمر أنصع بياضاً، ويكون كالجليد. كم كان هذا الفكر يؤذيني! ولكنني حتى تلك الليلة، لم أكن جرؤت على القيام بذلك العمل. لا أدري ما كان المانع. فلم يكن ثمة من يراني. وحتى لو رآني أحد، لا أدري ما الأمر السيئ في هذا العمل. ولكن كلما وقعت هذه الفكرة في رأسي كنت أحس اضطراباً. يحمى وجهي. تحترق شفتاي وأنضح عرقاً وأكاد أسقط على الأرض. أبقى مترددة قليلاً ثم سرعان ما ألملم نفسي وأهرب نحو فراشنا وأسقط على فراشي. ذات ليلة، كم أذكر ذلك جيداً! كنت أبكي أيضاً. ثم استولى علي الضحك من عملي هذا ولم أقل حتى لأختي، لكن كم كان بكائي تلك الليلة مضحكاً! عندما سقطت على فراشي، بكيت زمناً وكنت بين النوم واليقظة عندما صعدت أختي ونادتني أن العشاء قد برد. في تلك الليلة أيضاً عندما فكرت بذلك، انزعجت أولاً على ذلك النحو. كنت أحلم كل ليلة ببياض فراش أبي، ولكن هل كنت أجرؤ على الاقتراب منه؟

لكن لا أدري كيف تجرأت تلك الليلة. وقفت زمناً عند فراشه وأمعنت النظر في ملاءته البيضاء وحشيّته الطويلة ثم أيضاً لم أفهم ما الذي جرى إذ جازفت دفعة واحدة وألقيت نفسي على فراش أبي. كانت الملاءة باردة باردة، ولقد تجمد ظهري إلى أسفل قدميّ إلى حد أنني حتى الآن عندما أفكر في ذلك أحس لذة. وربما كان من الخوف والخجل - ارتعبت بحيث جمدت. ولكن وجهي كان ساخناً، وقلبي يدق بشدة كما لو أن مَحْرماً قد رآني. مثل تلك المرة عندما كنت أمشط شعري ودخل أبي من الباب فارتعبت خوفاً وخجلاً ولكن خجلي لم يدم طويلاً. دفأ ظهري. توقف عرقي ولم يعد وجهي ساخناً. وغلبني النوم وأنا على تلك الحال، ممددة على ظهري فوق فراش أبي. كان أخي يذهب إلى المدرسة وأنا وحدي التي أساعد أمي في أشغال البيت. أنهكني تعب الشغل والفراش الذي فرشته، ولا أدري ما الذي جرى فحلمت تلك الليلة بالعفريت. كلما أفكر في تلك الليلة، أذوب حتى اليوم خجلاً ويقف شعر بدني. لم أفهم بعدئذ ما جرى. كل ما هنالك أنني عندما استيقظت رأيت لحاف أبي مسحوباً إلى صدري، وكما لو أن شخصاً نام جنبي. واه! لا تدرون في أي حال صرت! يا إلهي! تحركت بهدوء، ولكن بسرعة، وأردت الانقلاب على جنب. ولكنني تركت حتى هذه الحركة على النصف وتيبست وبقيت على ذلك النحو. كان بدني كله انتقع عرقاً وقد صار ساخناً ساخناً

وفكي يرتجف. أخرجت قدميَّ شيئاً فشيئاً من تحت لحاف أبي وضممتهما إلى صدري. كان أبي يدير ظهره لي وقد تمدد على جانب. كان قد وضع يده تحت رأسه وأخذ يدخن. وكنت أرى - أنا التي لم أستطع الاستدارة على جانب - دخان سيجارته الذي يرتفع عالياً من فوق رأسه. لم يكن نور المصابيح يرتفع من الباحة. ولم يكن ثمة صوت أيضاً. فقط كان صوت الصحون والكاسات يأتي من سطح جيراننا، الذين يتعشون في وقت مبكر وفوق السطح. وآه، كم نمت! كيف غلبني النوم! كان فكي لا يزال يرتجف وما كنت أدري ما أفعل. أقوم؟ كيف أقوم؟ أبقى نائمة؟ كيف أبقى نائمة جنب أبي؟ كنت أتمنى أن ينهدم سطح المنزل ويأخذني مع انهياره. حقاً، في أية حال كنت! في عمري هذا الذي يبلغ أربعين سنة، لم تكن لي هذه الحال حتى مرة واحدة كي لا يراني أبي، عندما يدير وجهه، في فراشه. كنت أتمنى أن أصير دخاناً - كدخان سيجارة أبي، الذي يصعد إلى السماء ولا يباليه أبي - وأصعد إلى السماء. ولا يراني أبي، نائمة - هكذا، بلا حياء - على فراشه. واه، ما كانت حالي! كان الهواء يصطدم شيئاً فشيئاً بقميصي الذي انتقع عرقاً، شيئاً فشيئاً. ولكن، هل كنت أجد الجرأة لأن أتحرك من مكاني؟ كنت بقيت على تلك الحال. لا على ظهري ولا متمددة على جنب. وقد أبقيت نفسي بشكل ما، أنا نفسي لا أدري كيف. ولكن أبي كان لا يزال ظهره نحوي وقد

تمدد وراح يدخن سيجارته. في بعض الأحيان عندما أتذكر هذه الليلة، أرى أن أبي لو أنه لم يتكلم أخيراً، فما الذي كنت سأفعله؟! كما لو لم تكن لدي القدرة على أي نوع من العمل، وكنت سأبقى حتماً حتى الصباح على تلك الحال وأتيبس من البرد أو الخوف أو الخجل، ولكن أبي تكلم أخيراً، وفيما كان مبسمه في فمه، قال من بين أسنانه:

- بنتي! هل صليت؟

لم أكن قد صليت. كنت قد صعدت منذ أول المساء. ولم أنزل إلى تحت بعدها. ولكن حتى لو كنت صليت، كان لا بد أن أكذب في الجواب على أبي فقلت إنني لم أصل. لقد كان هذا، بذاته، طريق هروب ويمكنه أن ينقذني. ولكن حالي كان ضائعاً من يديّ، وقد أذابني الخوف والخجل إلى حد أنني لم أعرف ابتداءاً ماذا قلت جواباً على أبي. ولكن، إذ فكرت فيما بعد تذكرت: كما لو أنني قلت جواباً: «نعم صليت».

ولكن هذا السؤال والجواب منحني أخيراً وسيلة أن أنهض في طرفة عين وأتناول حذائي وأهبط السلالم إلى تحت. كما لو أن سؤال أبي اقتلعني من مكاني. حقاً ألقيت بنفسي إلى أسفل على السلالم. وعندما رأت أمي، في الإيوان، لوني ووجهي الشاحبين، استولى عليها الخوف، وسألت:

ـ لماذا شحب لونك هكذا؟

وعندما قلت لها، أتذكر جيداً أنها أشاحت بوجهها سريعاً عني وقالت فيما هي تنزل عن الإيوان:

ـ طيب يا بنت! فأنت لم ترتكبي كبيرة!

ولكنني ـ حتى تناولت عشائي وأقمت صلاتي ـ كنت لا أزال أفكر ويعروني الخجل من شيء آخر. كما لو أنني كنت ارتكبت إثماً، إثماً كبيراً. كما لو أن فراش أبي كان رجلاً محرماً وقد رآني. كنت أفهم هذا الأمر من ذلك الوقت بشكل أو بآخر. ولكنني إذ أفكر الآن، أجد أن الخوف والرعب اللذين تملّكاني آنذاك، أن الخجل الذي ذوبني، كان خجل امرأة نام إلى جانبها رجل محرم. وعندما صعدت إلى فوق، بعدئذ، مرة أخرى وتسللت بهدوء إلى فراشي وسحبت اللحاف إلى أذني، أتذكر جيداً أن أمي كانت تجلس جنب أبي وتقول:

ـ لكن، أعلمت حقاً كم خافت ابنتك؟ تتصور أنها قامت بمعصية كبيرة.

ولم يضحك أبي، ولا قال شيئاً. كل ما هنالك أن صوت النفس الذي سحبه من سيجارته كان طويلاً جداً وممتداً، ومنه استولى عليّ النوم.

قريباً من مرزون آباد

عندما جعلني صوت باب الغرفة أفز من النوم ، كنت أحلم بامتحان آخر السنة الذي ينبغي أن أستوفيه من تلاميذي . كان رفيق سفري قد صحا قبلاً . كان مفتاح مصباح غرفتنا مُداراً على ذاته وعندما جلس صاحبي عرّف الرجل الرفيع والمرتب ، الذي كان دخل الغرفة مع حارس يحمل بيده بندقية ، عرف نفسه على هذا النحو:

ـ العبد لله حسن نوري؛ مفتش شرطة شاهي[1] .

كنا قد وصلنا شاهي في الساعة الثامنة ، وأخذنا غرفة في هذا النزل لليلة واحدة. وكنت قد غلبني النعاس تواً . كانت الأحكام العرفية معلنة في المدينة ولا يُستبعد قط أن تتم مزاحمة المرء في هذا الوقت من الليل . جلس المفتش على الكرسي الوحيد في الغرفة الذي كان صاحبي قد أشار له نحوه. وفي اللحظة عينها وقف الحارس حامل البندقية باليد وراء فراش صاحبي. وبدأ مفتش الشرطة ، من دون أن يعتذر لمزاحمته سيئة التوقيت هذه ومن دون أية مقدمة:

ـ الاسم الشريف لحضرتكم؟

ذكر صاحبي اسمه ولزم الصمت فسألني المفتش:

ـ كان السيدان مسافرين معاً؟

فأجبت:

ـ نعم.

ـ متى شرفتم بالقدوم من بابُلْسر[٢].

ـ الليلة بالذات، في أول المساء.

ـ إلى أين من الطريق كنتما مع فرد الجندرمة أحمد علي كيا كلاهي؟

فقلت:

ـ لم يكن معنا أحد كهذا.. واستغرقت في التفكير.

وقال صاحبي، الذي كان أسرع مني في التنبه:

ـ ربما كان يعني ذلك الشخص.. فأضفت:

ـ حقاً، كان فرد جندرمة مسافراً معنا. ولكنه لم يذكر لنا اسمه بالطبع.

قال مأمور الشرطة:

ـ هو نفسه. إلى أين كان معكم؟

ـ إلى رأس الكيلومتر ٩ ، حيث انثقب دولاب سيارتنا، ترجل ومضى. قال إنه يريد الذهاب راجلاً حتى مرزون آباد[٣].

قرّب مأمور الشرطة مقعده من سريري. كان واضحاً أن عينيه اللتين حرمتا من النوم متعبتين جداً. كان يبقي أجفانه مفتوحة بالقوة. قدمت له سيجارة، وولعت له الثقاب أيضاً فأرّث سيجارته، وقال:

ـ نعم هو. ولكن لماذا ذهب راجلاً.. ألم تفهما؟

قلت:

ـ قال إن عنده شغلاً فورياً وإنه مضطر للذهاب سريعاً.

وأضاف صاحبي:

ـ أوصى السائق أن يتوقف في الطريق عندما نلاقيه ويجعله يركب. ولكن السائق لم يتوقف. فالجندرمة لم يكن يعطي مالاً.

ـ ألا تذكران عنه شيئاً آخر؟

غرقت في التفكير. فاتجه صاحبي نحوي وقال:

ـ تلك البنت..؟

فقلت:

ـ صحيح، عندما انطلق، ما أن قطع عشرين خطوة حتى بلغ فتاة ريفية فذهبا معاً ولم نرهما بعد ذلك.

نقّل الحارس ـ الذي كان يقف في الزاوية البعيدة ـ بندقيته من يد إلى أخرى. واتجه منشرحاً إلى مأمور الشرطة قائلاً:

ـ هاه.. الفتاة نفسها!

وسألني مأمور الشرطة، الذي لم يكن اقتنع بعد.

ـ أيمكنك أن تقول ما كان شكل الفتاة؟

ـ ماذا أقول عن شكلها.. كان على رأسها باقة علف. وكانت تنورتها قرمزية. ككل فتيات الريف.

وخرج من حنجرة الحارس صوت. كما لو كان غص بضحكة أو بشيء آخر لم أميزه. وكما لو أن مأمور الشرطة ارتاح، فقد قال:

ـ هي ذاتها. وحمل سيجارته نحو فمه.

لم أكن عرفت بعد ما المسألة. كنت أظن فقط أن رفيق سفرنا الجندرمة هرب أو أن أحداً قد ضربه أو قتله. أردت أن أسأل أمراً، ولكن أسئلة مأمور الشرطة المتتالية لم يكن لها انتهاء. فاضطررت أن أدع الأمر كي أسأل في النهاية.

وكأن مأمور الشرطة قد عثر على نقطة انفراج في أقوالي، فسأل بصوت خفيض ولكن بسرور:

ـ ثم.. ثم؟..

ففكرت ثانية قليلاً ثم قلت:

ـ عولج ثقب إطار السيارة فانطلقنا، عندما مضينا كيلومترين أو ثلاثة بلغنا رفيق سفرنا الجندرمة وهو يمضي مع تلك الفتاة إياها. أنا نفسي رأيتهما. كانا يسيران على جانب الجادة.

وسأل:

ـ كان ذانك الشخصان بمفردهما؟

تعجبت. كانت أسئلة مسيخة وعجيبة. ثم قلت:

ـ لا. كان فتى ريفي وراءهما أيضاً.

فالتفت إلى الحارس المرافق له وبالسرور الطفولي لطفل عثر على لعبته المفقودة قال:

ـ أترى يا عباس؟ ذاك الصبي نفسه الذي جاء فبلّغ، ها..

ثم سألني:

ـ طيب.. ألا تذكر أين كان ذلك؟

فقال صاحبي:

ـ أذكر، كأنما قرب پنير كلا.

وأيدت قول صاحبي. لم يكن مأمور الشرطة قد شبع، فسأل ثانية:

ـ ألا تذكر شيئاً آخر؟

قلت:

ـ لا.

وتنفست الصعداء. وقال صديقي الشيء نفسه، وعندما أرادا الانصراف قلت وأنا أواجهه:

ـ لابد أن حدثاً مهماً وقع. هل تسمح أن أسأل أنا أيضاً سؤالاً؟

وقدمت له سيجارة أخرى. فقال بهيئة سعى لأن تكون ضاحكة:

ـ تفضل.

وجلس ثانية. فقلت:

ـ وهل جرى لهذا الجندرمة شيء؟ هرب، قُتل، ماذا جرى؟

ضحكا كلاهما، وقال:

ـ لا يا سيد. حضرة السيد الجندرمة أخذ تلك الفتاة ذات التنورة الحمراء ذاتها فهربا معاً.

عندما سمعت هذا انشقت عيناي عجباً. قفز صاحبي عن تخته إلى أسفل وقال بلا إرادة:

ـ ما تقول؟

حافظت على برودة أعصابي وقلت:

ـ هكذا إذن؟! . . أتعرف لم كان ذاهباً إلى مرزون آباد؟ هه! كانت عنده مهمة إلقاء القبض على شخص آخر. شخص آخر غرر في مرزون آباد هذه بفتاة أخرى!

فضحكا كلاهما، وأرادا الانصراف عندما سألت ثانية:

ـ لم تقل كيف علمتم بالخبر. . ؟

ـ أم الفتاة، مع الصبي إياه الذي رأيتماه خلفهما، أخبرا مركز مرزون آباد عند المغرب. كان الصبي يقول إنهما أودعا باقة العلف عنده ومضيا هما بسيارة حمل إلى القرية. وقالا للفتى إننا تعبنا. ولقد تعذبنا نحن كثيراً حتى استطعنا أن نستعلم من شخص آخر أو شخصين، منذ المغرب حتى الآن إذ أخبرتْ مرزون آباد بابُلَ(١) وشاهي، فتشنا جميع السيارات التي وصلت إلى شاهي. حتى الآن إذ وجدنا كما.

ثم أطفأ سيجارته ونهض. ودّعا، واعتذرا كثيراً وذهبا. ووراءهما قفز إلى الغرفة صاحب فندقنا ـ الذي كان تصور أنهما

جاءا مبعوثين من إدارة الأحكام العرفية لاعتقالنا ـ وقال بلهجة أبوية وواعظة:

ـ أرأيتما أيها السيدان؟ لا يصح المزاح في كل مكان. لم يكن عبثاً أنني أصررت على أن تكتبا اسميكما وعنوانيكما الحقيقية في سجل الفندق. لماذا يهيئ الإنسان لنفسه وجع دماغ بلا موجب؟ لا يصح الهزل مع الأحكام العرفية. الآن، ما أصل المسألة؟

طمّناه أن لا علاقة للأمر بالأحكام العرفية وفندقه، وعرّفت بنفسي ورفيق سفري على أننا الأخوان «مزلقان تپه إي» وأن دفتري نفوسنا يحملان أرقاماً ثُمانية. وعندما انصرف ضحكنا بضع دقائق ثم أطفأنا المصباح ودخلنا فراشينا.

لم يحل النوم على عيني حتى الثانية بعد منتصف الليل، وفيما أنا مطروح على فراشي أنظر من النافذة إلى سماء شاهي الصافية وأذني مركزة على ضجة المعمل البعيدة التي أثارت فيّ خواطر مرة، كنت أرتب في ذهني ذكريات أحداث الطريق، وكنت أبحث عن مسألة وراءها. عن هذه المسألة: أني واتت الشجاعة رفيق سفرنا الجندرمة كي يفعل هذا العمل؟ كيف جعل الفتاة ترضى وغرر بها وهرّبها؟

كانت المسألة الوحيدة التي لم أفكر بها حتى ذلك الوقت هي أن رفيق طريقنا الجندرمة غرر بتلك الفتاة وأخذها وفرا معاً. كنت

حتى ذلك الوقت أنظر إلى كل الوقائع التي وقعت في طريق بابلسر إلى بابُل نظرتي إلى كل الوقائع العادية الاخرى، ولم أكن أجد اي شيء مثيراً للاهتمام فيها كي أحتفظ به في ذاكرتي وأدوّنه. لا، مرة واحدة عندما قال رفيق سفرنا الجندرمة، في السيارة ونحن قادمون، إنه يبحث عن شاب أخذ فتاة من أهالي مرزون آباد وهربا معاً، فكرت مع نفسي: «يا للقصة الجميلة التي يمكن إنشاؤها من هذه الواقعة الغرامية!» ولم يكن ثمة غير هذا، على طول الطريق، ما يستحق الذكر عدا الشكول العادية لرفاق سفرنا المازندرانيين، بأنوفهم الدقيقة وجباههم الخفيضة وطفل العائلة رفيقة سفرنا المطروح تحت ثديي أمه يواصل الصراخ.

ولكن بعد أن استخرجت رأس هذه الواقعة وأساسها من محققي شرطة شاهي، تعجبت كثيراً حقاً. لأنه لم يكن يبدو على الجندرمة رفيق سفرنا قط أن بمقدوره أن يتجرأ مثل هذه الجرأة ويخدع ابنة فلاحين فيهربان معاً. كان امرأ ربما في الخامسة والثلاثين وعادياً جداً لم تكسُ وجهه أمارات جندرمة مضبوط إلا عندما رفع في منتصف الجادة يده لحافلة مارة. يعني أن صوته صار محكماً وأن يده ارتفعت بحزم. على نحو كان واضحاً منه أن الحافلة لو لم تتوقف فإنه كان مستعداً أن يسحب بندقيته ويثقب إطاري دولابي الحافلة الخلفيين. إن كونه ذكر محل ولادته لرفيق سفري (الذي كان سأله من أية مدينة هو) على نحو كاذب، جعلني على نحو خاص

فريسة للتعجب أكثر. لأنني فكرت مع نفسي أنه لا توجد حاجة لجندرمة مسلح ببندقيته، وفي مبعدة الطريق بين بابلسر وبابل، لأن يكذب. وهو الذي أبدى مثل هذه الجرأة فغرر بفتاة قروية وهرّبها معه، هو الذي أبدى مثل هذه الشجاعة، لماذا كذب؟ كان الجزء المثير للاهتمام في هذه الحادثة أن هذا الجندرمة نفسه كان يبحث في مرزون آباد هذه ذاتها عن فتى غرر بفتاة فهربا معاً. كان هذا الجزء من القصة هو ما أثار فضولي.

في عصر ذلك اليوم إذ انطلقنا، لم يكن في السيارة المتهالكة التي استأجرناها غير شخصين، كانا زوجين مازندرانيين مع طفلهما العاوي ورجل رفيع يعتمر قبعة فرنسية اشترط أن يدفع، عند وصوله إلى ما قبل پنير كلا، خمسة عشر ريالاً. لم نكن قد ابتعدنا كثيراً عن بابلسر عندما رفع جندرمة وسط الجادة يده. توقفت السيارة. زحزح الجندرمة بندقيته على كتفه، تقدم، ثم قال:

ـ أتأخذني إلى مرزون آباد؟

أفهمه السائق أن أجرته تصير توماناً، وأضاف الجندرمة بكلام معسول ومتملق:

ـ طبيعي أنني أدفع. طبيعي أن أدفع أجرتي.. لمَ لا أدفع؟..

وقفز صبي السائق إلى أسفل. فتح الباب الخلفي فركب الجندرمة. كنت أجلس لصق السائق وصاحبي لصقي. وعلى المقعد الخلفي صار يجلس الآن مع الجندرمة أربعة أشخاص. وقد وقف صبي السائق ـ الذي كان فتى ضئيلاً أشوه الشكل ـ على الركاب وكنت أفكر راجياً ألا تفلت يده فيسقط المسكين على الجادة!

لم نكن مضينا غير بضع خطوات عندما تكلم الجندرمة بتلك النغمة الهادئة إياها:

ـ وهل يأخذون من رجال الأمن أيضاً أجرة؟ في أي مكان من الدنيا يوجد مثل هذا القانون؟

فقال السائق، فيما هو يوالي انتباهه على الجادة أمامه، على نحو قصير وبلا اهتمام:

ـ حتى من رئيس الشرطة نأخذ. ما الفرق بالنسبة لنا؟

فأجاب الجندرمة، الذي كان لا يزال يعتبر نفسه رجل أمن:

ـ لكن الشرطة غير الأمن. رجال الأمن ينفعون المرء.

لم يكن لدى السائق ما يقول له. دردم بصوت خافت ولزم الصمت. وأجبت أنا عن السائق:

ـ يا صاحبي لا يقولون عن هذا «نفعاً». إن من واجب رجال الأمن أن يهتموا لآلام الناس.

ولكزت بمرفقي خاصرة السائق، وضحك هو على نحو لم ينتبه له صاحبنا.

ـ كلامك المعتبر صحيح. طيب، أنا أيضاً كنت أمزح.

قال الجندرمة الذي يسمي نفسه رجل أمن هذا وأغمد ذيله. ولكي لا تبقى كدورة في الجو قلت:

ـ طبيعي أنني أنا أيضاً أمزح، وإلا فأنت تعرف خيراً مني.

وانتهى الكلام عند هذا الحد. وعندما مضينا كيلومتراً آخر تكلم الجندرمة ثانية فقال:

ـ حقاً أية أوجاع دماغ يرتبون للناس هذه الأيام. عليّ الآن أن أذهب فأعتقل شاباً خدع فتاة مرزون آبادية وفرّ معها..

ومن دون أن يتعجب أحد أو يسأله شيئاً بهذا الخصوص واصل من نفسه:

ـ كانت أم البنت قد جاءت اليوم إلى موقع بابلسر. كانت تشكو أنه حمل ابنتي بالقوة وأخذها. عندما سألناها، اتضح أنه سبق وخطب ابنتها أيضاً. ولكن المرأة الحمقاء قالت لم نكن أنا وأبوها راضيين أن نعطيه ابنتنا. حقاً أية أوجاع دماغ يعدون للناس. أنا ذاهب من أجل التحقيقات المحلية. لو اتضح أن الفتى أخذ الفتاة

بالقوة سأسلمه سيسلخون جلده. ينبغي سلخ جلود هذا النوع من الآدميين.

وقلت، وأنا أواصل من زجاجة السيارة الأمامية مراقبة حصباء الطريق التي تتقدم نحو عجلات السيارة:

ـ أهه! ليست بالمسألة المهمة. فتى أراد فتاة فمضيا لشأنهما. ينبغي الذهاب والدعاء لهما أن يسعدا.

تكلم الرجل النحيل الذي كان اتفق على أن يدفع خمسة عشر ريالاً إلى منتصف الطريق، وقال:

ـ لكن، يا سيد ربما يكون أخذها بالقوة؟

وقال صاحبي:

ـ هاه! هذا أمر آخر. لو أنه أخذها بالقوة.. لو أنه أخذها بالقوة فالأمر أمر آخر.

وذُكر كلام كثير بعد هذا البحث مما لا أذكر. عند الكيلومتر ١٠، على مقربة من پنيركلا، كبح السائق السيارة كي يترجل ذلك الرجل النحيل. قفز صبيه أسرع إلى أسفل. تناول الخمسة عشر ريالاً التي أخرجها الرجل من كيسه الدبيت ذي الشريط، وعندما أراد أن يركب مرة أخرى، مر بالعجلتين الخلفيتين وانتبه إلى أن إحداهما قليلة الهواء. أخبر السائق. فنزل هو أيضاً. جلبا مضخة

الهواء. ضخا بضع ضخات، وعندما فهما أن الإطار مثقوب أنزلانا نحن أيضاً ونشرا بساط معالجة الثقوب وانهمكا بالعمل. وأخذ زوج المازندرانية، التي كان طفلها قد هدأ لتوه، أيضاً يساعدهما. فوجدنا أنا وصاحبي وقتاً نتحدث فيه قليلاً مع الجندرمة. .

كان رجلاً متوسط القامة، لوحت الشمس وجهه وغضنته، يرتدي ملابس عسكرية مرتبة نظيفة. كان قد حلق لحيته حديثاً. لابد أنه لم يبلغ الأربعين من عمره بعد ويسعى جاهداً أن يتكلم بفارسية طليقة. إما لأن تلك كانت عادته، وإما لأنه التقى شخصين من طهران، لم يكن يريد أن يلحق به الفشل. كان قد ألقى بندقيته على نحو معكوس على كتفه فيما كنا نتمشى. ومع أنه كان قال إن مهمته آنية، إلا أنه لم ينزعج قط من تعطل السيارة أو يبدي فظاظة، بل شرع ـ على العكس ـ يروي لنا قصة ليلتهم البارحة في الطريق على هذا النحو.

ـ منذ ليلة البارحة حتى الآن هذه هي المرة الثانية التي نلاقي انثقاباً، ليلة أمس في الساعة الثانية عشرة، في منتصف طريق چالوس(٢)، أدنى من كَدوك، انثقب إطار سيارتنا الجيب. بقي سائقنا في كرج. كان نقيبنا يقود السيارة ثم اتضح أنه لا يفهم شيئاً من أمور الميكانيك. ولم تعد بيدنا حيلة بعد. كنا نتمشى في الجادة عندما لاحت شاحنة ليلاند عائدة لشركة النفط في الطريق الصاعد. أمر حضرة النقيب فوقفنا في منتصف الجادة صفاً. كنا ـ معه ـ خمسة

أشخاص. كنا جندرمة جميعاً. وقف المسكين مضطراً. مهما بكى لم ينفعه. قال له حضرة النقيب عليك أن تعالج ثقب إطارنا كي ندعك تذهب. طيب، ماذا كان يمكن أن يفعل؟ توسل المسكين كثيراً. ولكن نحن لم نكن أذنبنا في شيء. حضرة النقيب بالغ التشدد. خلاصة القول إن المسكين اضطر فجلس يعالج الثقب. وعندما انطلقت السيارة كانت السماء قد أضاءت قليلاً..

عندما بلغ هنا، لم يعد صاحبي يطيق صبراً فقطع كلامه بفظاظة:

ـ ولم تفكروا قط في أن المسكين سيغرَّم ويصير بائساً؟

واتجه نحوي قائلاً:

ـ حقاً كما لو أن الأمر بدأ مجدداً..! لابد، سيوقفون مرتبه لهذا الشهر. ولكي يفهم الجندرمة جيداً أضاف وهو يتجه إليه:

ـ ينبغي أن تصل سيارات الشركة إلى محطة الوقود في رأس الساعة. إذا تتأخر فإن سائقها يغرَّم.

ولزم الصمت. وكنا نحن أيضاً صامتين. ولم يكن أي ندم أو انفعال يلوحان على هيئة الجندرمة. مضى صاحبي بضع خطوات، واستدار ثم سأله من أهل أية منطقة هو، فقال:

ـ من أهل الأهواز(٤)، من منطقة ناصري والأهواز.

مرة أخرى سأل صاحبي كم سنة له وهو يخدم الحكومة. فأجاب بهيئة من يريد أن يظهر غير مبال:

ـ أية خدمة. بالنسبة للحكومة لا فرق في كونك تجلب الماء أو تكسر الكوز. اية خدمة؟ لي سبع عشرة سنة وأنا رجل أمن. . وسكت.

سأل صاحبي متعجباً:

ـ إنك تعرف هذه الأمور جيداً، فلماذا إذن قمت بأعمال حمير السخرة؟

ـ ماذا أقول. أوشكت ثلاث مرات أيضاً أن أصير عريفاً. ولكن مرة أخرى. . ماذا أقول كي تصدق أخيراً أن جاهلاً يمسك بتلابيب الجميع. . . في المرات الثلاث صرت جندياً عادياً مرة أخرى. وحتى الآن أيضاً. . .

لم أستمع إلى حديثهما. بدأت أتمشى وانتبهت إلى المزارع من حولي. حل المغرب. انحدرت الشمس ولكن الأفق كان لا يزال مضيئاً ولم تكن الغيوم قد اصطبغت بالأحمر بعد. عندما راح نور الشمس ولم يعد مرئياً، صار يشع من بين الغيوم حزمة حزمة على السماء وتشبه الأشعة النورانية ذات الهالة التي يرسمونها حول رؤوس الأولياء. على جانب الطريق هناك، في المكان الذي انثقب فيه إطار سيارتنا ونصبوا تحتها رافعة، كانت مزرعة يحيطها سياج

من الأغصان الجافة والعيدان. عبرت من فوق السياج حيث لم يكن تبقى غير الأعمدة المغروسة في الأرض. كان رجل وصبية يجزان العشب وسط المزرعة. كان واضحاً جداً من هيئة الفتاة ومظهرها أن أربع سنوات مرت على صيرورتها جاهزة للزواج. كنت واقفاً إلى جانب السياج وأتملى في عملهما. كانا يقتلعان بمجرفتيهما العلف الوحشي ويكومانه بعضه فوق بعض، فكانت كومة كبيرة من العلف الوحشي تنتصب جنبهما. كانت الفتاة تغطي شعرها بمنديل رأس رمادي وتلبس تحت تنورتها القصيرة الحمراء سروالاً أسود طويلاً. وكان قميص جذعها قصيراً جداً. هبطت عن السياج وتمشيت مرتين أو ثلاثاً على طول المزرعة ذاتها في الجادة. ومن وراء السياج كانت حواسي تراقب الفتاة وحركاتها حين الشغل.
جاءت حافلة كبيرة، كان مكتوباً على زجاجتها الأمامية بخط كبير وجميل «بريد»، بسرعة ومرت، وعندما استقر نقع الجادة وغبارها، ووضعت منديلي في جيبي، رأيت الفتاة ـ التي كانت تعبر السياج بمشقة وحزمة علف على رأسها ـ تأتي إلى هذا الطرف. لم أكن بعيداً جداً عنها، كانت تمسك بيدها اليمنى حزمة العلف على رأسها وقد نفرت الحافة التحتية لقميصها إلى أعلى، فكان ما تحت بطنها، فوق التنورة الحمراء، ظاهراً قليلاً. وكانت فتحة صدرها مفتوحة أيضاً ويمكن رؤية ما بين ثدييها الكبيرين والمتدليين قليلاً. كانت ساقاها عاريتين وحاجباها المعقودان أسودين. عندما عبرت

السياج وأدركت أنني كنت أراقبها بعيني الوقحتين ، فتحت زاويتي منديل رأسها وغطت ما فوق صدرها وفتحة قميصها ، وواصلت طريقها. اجتازتني وبقيتُ مدة أنظر إلى السروال القصير والاسود ، الذي كان يرتفع وينخفض ، مرتباً مثيراً للهوس ، إلى كل جانب مع حركة ظهرها . ولم أنتبه طول هذه المدة ما إذا كان شخص آخر يرى هذه المشاهد أم لا .

عندما صرفت النظر عن هذه المشاهد وعدت ثانية إلى صاحبي ، كان حديثه مع الجندرمة قد انتهى . كان السائق قد وضع لتوه لصوقاً على ثقب الإطار الداخلي عندما كان الجندرمة رفيق سفرنا قد هيأ نفسه للانطلاق . ألقى بندقيته مقلوبة على كتفه . واتجه إلى السائق قائلاً:

ـ سيدي السائق أنا ذاهب . عملي فوري . إن بلغتموني وسط الطريق ، دعوني أركب .

ومضى . تنهد السائق الصعداء ارتياحاً وقال:

ـ جيد جداً .

ورأيناه ، أنا وصاحبي ، يبتعد سريعاً ثم أوصل نفسه إلى تلك الفتاة الريفية التي كانت قد ابتعدت حتى الآن مائة خطوة ، وصار يمشي إلى جانبها خطوة خطوة ثم ، في بضعة الدقائق التي خلت فيها الجادة ، سمعنا زمزمة صوتهما التي تجلبها الريح .

تمشينا مرة أخرى لبعض الوقت في المزارع المجاورة وعندما عدنا كان شغل معالجة الثقب قد انتهى وكانوا يملأون الإطار هواء. أرّث زوج تلك المرأة المازندرانية، الذي كان يساعد السائق، سيجارتين، وضع إحداهما في فم السائق وقال على نحو نسمعه نحن أيضاً.

ـ فهمت؟. . الأحمق يقول إنه أهوازي، الرُجيل قروي لا أكثر. من أهل كياكلا. أعرفه أنا نفسي.

وعلك السائق شيئاً كالشتيمة هامساً ثم لزمنا الصمت جميعاً. كان المغرب قد حل. ولم يكن أفق المغرب منيراً جداً، عندما انطلقنا. وكان السائق لم يعد يفكر في الوقوف كي يركب الجندرمة.

* * *

لم أكن أستطيع بعد أن أصدق حقاً أن وقائع كهذه قد وقعت. إن استجواب مأمور شرطة شاهي إيانا ليلاً، لقاءنا بذلك الجندرمة في طريق بابل، قصة المأمورية التي أرسل فيها لتوقيف شاب مرزون آبادي، كانت تضيع بين ذكرياتي عندما ذكّرني بها جميعاً خبر جريدة في اليوم التالي ليوم مجيئنا إلى طهران. لم يكن في ذلك الخبر إشارة إلى أن الجندرمة رفيق سفرنا قد تمكن أن يبدي مثل هذه الشطارة. ولم أكن قد استطعت أن أقنع نفسي بعد أن أفكر في صحة ما حول القسم الأخير من هذه القصة وأصدّق أن الجندرمة

رفيق طريقنا أخذ تلك الفتاة وفرّ بها. إن اللافت للنظر هو نص هذا الخبر الذي يؤيد في الأقل قصة مأمورية ذلك الجندرمة. وعندما أقرأ هذا الخبر فإنني في الأقل لا أستطيع التشكيك في أنني التقيت في طريق بابل شخصاً كهذا. إن هذا الخبر هو ـ بقليل من الزيادة والنقصان ـ القصة عينها التي رواها لنا الجندرمة في الطريق:

«بالأمس، خطف أحمد أوجاغيان فتاة، تسمى حليمة خاتون، من بابلسر واتجه نحو طهران. إن لحليمة خاتون خطيباً. ولكن عشقها لأحمد أوجاغيان تسبب في قطع خيوط خطبتها وحركها، عن رضا ورغبة، مع هذا الشاب نحو طهران..».

هوامش

(١) مدينة في محافظة مازندران .

(٢) ميناء في مازندران .

(٣) = قرية مرزون .

(٤) مركز محافظة خوزستان ـ جنوبي غربي إيران .

صبغة زهرية

لم يستطيعا أن يبقيا في جوار الولي قاسم أكثر من ثلاثة أيام. في صباحِ اليوم الرابع شدت هاجر مرة أخرى بقجتها، ورفعت مؤخرة كِيوتها[1] الجديدة التي كانت اشترتها - عندما أرادا المجيء إلى هذا المصيف - بأربعة تومانات[2] ونصف من السوق، وانطلقت مع زوجها عناية الله.

كان عصر ذات يوم من أواسط الأسبوع. كانت الشمس تغوص وراء الجبل، وتستقر حرارة الهواء.

سارت المرأة وزوجها، متسللين، حتى تجريش[3]. هناك صعدت هاجر حافلة المدينة. واتخذ زوجها، وصندوق العرض الزجاجي معلق بعنقه، طريق نياوران[4]. كان يريد أن يتجول هناك بضعة أيام. في هذه الأيام الثلاثة التي بقياها في الولي قاسم، لم يتمكن أن يبيع حتى مصيدة فئران واحدة.

ربما كانت هاجر في الخامسة والعشرين. لا يستدعي شكلها اهتماماً. ولكن زوجها كان راضياً بها. كان عناية الله بائعاً جوالاً. هو نفسه يقول إن له اثنتي عشرة سنة يمارس البيع تجولا. ولم يتمكن من تدبير صندوق عرض زجاجي إلا في أواخر الحرب. ومنذئذ، كان يدلق بساطه فيه، يعلق حزامه الجلد إلى عنقه، وكان له ـ كما يقول ـ حانوت ململم وكان مرتاحاً من دفع الإيجار. كان ذلك يوفر له أكبر سرور. ولم يكن يأمل، في أي وقت، أن يكسب من شغله أجرة شهرية فوق إيجار بيته البالغ خمسة وعشرين توماناً.

كانا قد تزوجا منذ سبع سنوات. ولكن الله لم يلطف بهما بعد فبقي كانونهما مطفأ[٥]. كانت هاجر مطمئنة من نفسها. ولم تكن تستطيع أن تعتبر زوجها مقصراً. لم يخطر على بالها قط أنه يمكن أن يكون زوجها مقصراً. لم تكن مستعدة أن تتهمه حتى في قلبها بأية تهمة أو توجه له أي افتراء. وكلما كانت تفكر في هذا الأمر كانت تقول:

ـ لماذا أغسل ذنبه[٦] بلا مبرر؟! فأنا لست ربه. هو يعرف، وربه..

نهبت الحافلة، كالبرق، جادة شميران تحت عجلاتها نهباً، وما أن أرادت هاجر أن تفكر بالنذور والتوسلات التي قامت بها، خلال هذين اليومين أو الثلاثة في الولي قاسم، من أجل الحمل،

حتى كانوا وصلوا المدينة. ترجل بضعة أفراد في موقف شاه آباد. وشدت هاجر أيضاً، وراءهم، شادر صلاتها[7] حول وسطها ونزلت من السيارة. هي أيضاً لم تفهم لماذا. توقفت بضع دقائق هناك حيث ترجلت:

ـ أوه! لماذا نزلت؟

لم يكن لها في أي وقت عمل في شاه آباد، ولكن مهما يكن، فهي قد ترجلت، كما أن السيارة قد ذهبت، فلم يكن ثمة من مجال للعودة. كان من حسن الطالع أنه كان لديها مال فكة، وكان بمقدورها أن تركب حافلة في التوپخانه[8] وتترجل في خاني آباد.

غامرت وانطلقت. كانت تعرف لاله زار. أرادت أن تتسلى. وضعت البقجة تحت إبطها، شدت الشادر بإحكام أشد حول وسطها ومضت هابطة. في الخطوات الأولى ذاتها، تصادمت سبع مرات؛ كانت بقجتها تعارض المارة، فكان الجميع يميلون أبدانهم ويجتازونها مدردمين خازرين، ويمضون.

عندما وصلت أول زقاق مهران، كانت قد داخت. هناك أيضاً كان مزدحماً. ولكن لا أحد يعبر سريعاً. كان الجميع يتجمعون حول بسط الباعة ويساومون. فأمالت هي أيضاً طريقها وتوقفت عند بساط فتى حافي القدمين.

راز الفتى هيكلها بلمحة واحدة، وعاد ينشغل بعمله ثانية. كان ينقّل زجاجات أصباغ الأظفار، ويعيد ملء ما تناقص منها. كان الفتى قد صبغ حتى أظفار أصابع قدميه الحافيتين، فكانت الحمرة الصارخة لا تزال ظاهرة من تحت الطين والتراب اللذين يغطيان قدميه.

لم تكن هاجر تعرف أنه يمكن شراء صبغ الأظفار بهذه السهولة من الباعة الجوالين. تنهدت بخفوت وتمنت في فؤادها لو أن زوجها يضيف صبغة الأظفار أيضاً إلى بساطه كي تتمكن - كما تخطف كل أسبوع دزينة دبابيس من بساطه - أن تحصل مرة في الشهر أيضاً على صبغة أظفار.

حتى الآن، لم تكن قد وضعت على أظفارها صبغة. ولكن كلما كانت تمر من جانب سيدة أنيقة، أو تدعى إلى أعراس محلتها للخدمة، كانت تتأمل عن كثب صبغات أظفار السيدات. لم تكن تدري لماذا، ولكنها لاحظت أن السيدات يستخدمن صبغات مختلفة الألوان لأظفارهن. وكانت قد أحبت الصبغة الزهرية. لم تكن تحب اللون القرمزي. كما أن البنفسجي أيضاً كان ثقيلاً جداً ينفع العجائز.

من كل معدات الزينة، لم يكن لديها غير وعاء غلي الوسمة، وملقط شعر وعلبة أحمر خدود. كان وعاء الوسمة وعلبة الأحمر

بقية أسباب جهازها، وقد اشترت ملقط الشعر من توفيرها. ولم يكن إعداد الصباغ الأبيض عسيراً جداً. فقد كان الباعة الغجر يصيحون على الأبواب دوماً.

ولقد رغبت، بهوس، بأحمر الشفاه أيضاً، ولكن أحمر الشفاه كان غالياً جداً، وعدا عن هذا فإنها كانت تعرف أيضاً كيف تجعل شفتيها زهريتين بأحمر الخدود. كانت تخلط قليلاً من أحمر الخدود بالفازلين الذي اشترته لدهن ظاهر كفيها الجافين، اللذين كانا يتفطران على الدوام، وتمسحه على شفتيها. كانت قد فعلت ذلك ثلاث مرات حتى الآن. لم يكن طعم أحمر الشفاه هذا مقبولاً جداً، ولكن ذلك لم يكن ليهمها كثيراً. كان الدم الذي يتدفق إلى وجهها من إحساس جمال شفتيها المصبوغتين يدفئها كثيراً ويحملها على الوجد والسرور البالغ شديداً بحيث أنها كانت تنسى كل شيء..

على نحو لا تسمح لأحد بأن ينتبه، نظرت إلى أظفارها قليلاً. مع أن يدها كانت قد تشوه شكلها، ولكن لم تكن فيها أظفار شوهاء. كانت جميعها بيضاء، طويلة وعديمة النقص. كم كان جيداً لو أنها استطاعت أن تقرضها وتبْردها! هنا، تذكرت جارتهم، محترم؛ زوجة السيد عباس السائق. تذكرت وضعياتها الصباحية التي ترضي كل أهل الحارة، فسدّ الحسد والغصة حلقومها والتف الوجع في أدنى قلبها...

كان الفتى يملك كل وسائل الزينة. كان في بساطه أشياء لم تستطع هاجر في أي وقت أن تعرف فيم تنفع. كان هذا غير عجيب بالنسبة لها. كان ثمة في العالم كثير من الأمور التي لا تخطر على بالها، ومما يثير دهشتها أن تعرف كيف تسنى لصبي بهذا الصغر بساطاً بهذا الاتساع؟! من أين جاء بكل هذا المال؟!

لم تكن تعرف قيمة بضائع بساطه. ولكنها كانت واثقة من أن كل صندوق زوجها الزجاجي المملوء بالأشياء الصغيرة ليست له قيمة عشر من زجاجات أصباغ هذا الصبي.

مرة أخرى تمنت لو أن زوجها كان أيضاً بائع أصباغ أظفار، فالتفتت إلى الصبي.

لم تكن سنه كبيرة كي تخجل منه. تقدمت قليلاً. نقلت البقجة تحت إبطها. أطلقت زاوية الشادر التي كانت أمسكتها بأسنانها، وسألت عن أسعار صبغ الأظفار واحداً واحداً.

لم تفكر في أي وقت أنها ستكون صاحبة مثل هذا المال، وإلى أن وصلت البيت، كانت تكرر على الدوام:

ـ أربعة وعشرون هزاراً[٩]؟!. . أربعة وعشرون هزاراً!. .

لابد أنه لو ساومت لخفض قراناً[٩]. . لا؟. . وعندئذ يصير بكم وعشرين. . ؟ ما أدراني؟ حتى ذاك من أين أجيء به؟. .

* * *

كان الوقت قبل ساعتين من مغرب يوم صيفي ساخن. كان بائع كاسات وصحون يحمل بعناء ـ صاباً العرق ولاهثاً ـ حمل كاساته وصحونه في منعطفات زقاق ضيق خال. وكان ينادي أحياناً:

ـ هاي كاسة صحـ. . حـ. . حن! كاسات همدان[١٠]! أكواز شرب الماء!

كان متعباً جداً. ينادي بعصبية. وفي كل عشرة أقدام يضع حمله الثقيل على الأرض ويمسح عرق جبينه بكم سترته الممزق. يجدد أنفاسه ويعيد حمل حمله الثقيل على كتفه. وفي كل مرحلتين أو ثلاث من هذا الحمل أيضاً، عندما يكون قد طوى طول زقاق، كان يقعد جانباً وعندما تتاح له الفرصة يعمّر چُپُقاً[١١] ويغوص في الفكر.

اجتاز زقاقاً ضيقاً. وتجاوز منعطفاً آخر أيضاً، ودخل زقاقاً أعرض.

هنا كان شارعاً عاماً. كانت الساقية المكشوفة لوسط الزقاق أحدث وحاشيتاها المرصوفتان بالحجر على الجانبين أكثر ترتيباً، وكان الممر أوسع وفضاء الزقاق أرحب.

كان ذلك نعمة كبيرة لبائع الكاسات والصحون. كان يمكنه

هنا أن يسير باطمئنان تام كيفما يحب، ويحمل حمل كاساته وصحونه معه. لقد كان تهدم حواشي السواقي، وضيق الأزقة، والأسوأ من كل شيء كتل الطين اليابس غير المحكوكة، والكبيرة، الموضوعة عند كل منعطف بارتفاع ظهر الإنسان داخل الجدران المطلية بالتبن ـ طين، لما لا يعرف من أسباب، أكبر همٍّ في هذه الأزقة الخلفية. ولم يكن يستطيع بحمله الثقيل هذا أن يجتازها بارتياح.

ومن باب الامتنان لهذه النعمة الجديدة، وضع حمله جانباً ونادى مرة أخرى:

ـ هاي كاسات وصحو.. و.. ون! كاسات همدانية! أكواز للمخلل!

واتكأ على الجدار وأخرج كيس چپقه من جيبه. إلى جانبه، على مبعدة بضع خطى إلى الجانب الآخر، كان كلبان يتسكعان بين القمامة، وقد دمدما قليلاً عندما رأياه. ولما اطمأنا انصرفا إلى شأنهما. وفوق رأسه، على أرضية الجدار التبن ـ طينية، أعلى من متناول العابرين، كانت كلمات ملعنة[١٢] طويلة عريضة ـ أوشكت الأمطار الربيعية، بغسلها تبن ـ طين الجدار، أن تمحوها في عدة مواضع ـ لا تزال قابلة للتمييز. وأعلى منها، عند حافة سقف الجدار، كان يتدلى كوز مكسور مشدود من قبضته بحبل، لابد أنه كان ثقلاً لطرف حبل غسيل صاحب البيوت.

أرث بائع الكاسات والأكواز چپقه، وفيما هو لا يزال يلعب بالكبريت راح يرسل غمّه وحزن فؤاده، مع دخان الچپق، إلى السماء.

كانت سخونة العصر تضعف، ولكن الجو كان ينفث أنفاسه قليلاً قليلاً. كان النفس يضيق في الهواء المملوء برائحة التراب المفخور بالشمس لأرض الزقاق، والقمامة المقلّبة. كان المارة يمرون فرادى والكلاب تتقافز أحياناً على بعضها فتثير ضجيجاً.

في الجهة المقابلة من الزقاق، مقابل تل القمامة، انفتح باب، وخرجت هاجر بسترتين عتيقتين وملء حضن من الأحذية والنعال. نادت على بائع الكاسات والأكواز وانصرفت إلى ترتيب متاعها.

ـ يا أخ! انظر هل تنفعك هذه؟. . أنا لا أريد أكوازاً وكاسات، ها! فلقد اشترى زوجي حديثاً من السوق.

ـ لا تريدين أكوازاً وكاسات؟! قولي بنفسك، وهل يرضى الله أن أشقى شقاء الكلب في الأزقة فيما تشترون أنتم كاساتكم وأكوازكم من السوق فتحرمونني من الخبز؟

ـ طيب، ماذا أفعل يا أخ؟! نحن لم نشمّ ظاهر أكفنا لنعرف أنك ستمر من هنا اليوم. .

كانت هاجر وبائع الأكواز والكاسات قد انفتح فؤاداهما للتو عندما وصل رجل على كتفه جوال، حافي القدمين. ألقى

نظرة باتجاههما، ومضى مباشرة إلى القمامة. أوقع رفسة ببطون الكلاب، فقطع نباحها وانكب على البحث.

رأته هاجر وكأنما عرفته. قالت مع نفسها: «عساه لا يكون هو..»، وفكرت قليلاً ثم نهضت، وعلى نحو يسمعه ذلك الرجل وبائع الكاسات والأكواز معاً بدأت على هذا النحو:

- نعم! هو، أصابه الذل، آخ، ليُمِتْك إلهي الحبيب. أول أمس كنت جمعت له منّين[13] من كسر الخبز، مد يده فأعطاني بضعة فلوس! ليته مات ذليلاً. لا يقول لو أنني أعطيتها لعطار حارتنا لكان أعطاني سيرَيْن[14] فلفل وكركم.. أو في الأقل أعطاني، في هذه المضيقة، قنداً وسكراً أو شيئاً ما نتدبر به أمور فطورنا صباحاً. السيدة سكينة جارتنا... واه انظروا إليه فليحثوا التراب على رأسك الشحاذي!..

كان «جامع كسر الخبز» قد عثر على نصف خيارة قطع، بمطوة أخرجها من جيبه، القسم المتهرئ والقذر منها. عضها عضة محكمة و.. ألقاها جانباً. كأنما كانت الخيارة مرة.

انفرج ثغر هاجر، التي كانت تراقبه. ولكن ضحكتها لم تدم طويلاً. أطبقت فكها ولفت شادرها حول وسطها وانتبهت إلى بائع الكاسات والأكواز. لم يكن معلوماً فيم كانت تفكر بحيث أنها لم تقهقه.

ـ نعم يا أخي، ما كنت أقول؟ . . نعم . . السيدة سكينة، جارتنا، تفعل كل شيء من أجل دجاجاتها، وتطرق كل الأبواب كي تحصل على كسر الخبز، وهل تقدر؟ من الذي يرى في هذه الأيام خبزاً جيداً على سفرة بيته كي تتبقى منه كِسَر؟ يأكلون حتى لحاف الكرسي[١٥] بحصاه! حقاً صار آخر الزمان؛ لا يبالي أحد بالخنافس وما أشبه . . نعم، كنت أتحدث عن السيدة سكينة: المسكينة تعطي لقاء كل سير منه حبتي «حبة سوداء»، التي يشفى بها ألف وجع عديم العلاج! فالحَب عسير المنال . . كما أنها، أبعدها الله، لا يواتيها قلبها أن تصرف مالاً . . تجمعه فتصره وتخبئه تحت الصخر .

انتقل بائع الكاسات والأكواز ـ الذي كان انتهى من فحص الجاكتات ـ إلى الأحذية والنعال:

ـ طيب يا أختاه، ما هذه؟ أوه . . ! كم زوجا! وهل يبيت معسكرٌ في بيتكم؟!

ـ يا أخ، ليكن لسانكم خيراً دائماً. قل ما شاء الله. لن يصيبه نقص! كم أنتم قليلو العقيدة أيها الرجال! . .

ـ اللعنة على كل عديم عقيدة، أنا لست بخيلاً. طيب، إن الإنسان ينسى يا أختاه! لا يعرف المرء متى تشرق الشمس ومتى تغرب. ويا لتوقعاتك من الناس . .

ـ انظر إليه ، ليحثوا التراب على رأسه و . . فدى لكل إنسان فاهم . ليحثوا التراب على رأسه عساه مات ، لا أدري كيف لا يخجل من هيكله هذا ، مد يده فوضع في يدي ثلاثين شائي[١٦] ـ ثلاثين شائي عديمة القيمة . ألقيت الفلوس ـ ليمحها الله ـ في الزقاق ، ضربت بها رأسه ، قلت ليحثوا التراب على رأسك اليهودي! رح خذ بهذه أيضاً لبناً امسح به رأس أمك القرعاء! يا للميت ذليلاً ، يظنني محتاجة لثلاثين شائيه . انزعجت شديداً بحيث لم آخذ خبزنا اليابس منه ، بسبب عجزي ، اسودّ وجهي! لم يكن ثمة من يقول يا حمقاء ، لماذا أعطيت منّيْ كسر خبزك مجاناً بدون مقابل لهذا الرجيل الأحمق كي يأخذهما؟ . . ماذا أفعل؟ مهما يكن فأنا امرأة أسيرة لا أكثر . لا رحم الله موتانا الذين جاؤوا بنا إلى الدنيا عديمي التدبير والحيلة . لا قراءة وكتابة ، لا معرفة ، لا شيء! وأي مقلّب كبير أيضاً يوقعه أي أحمق أغبر بنا لا نتنبه! قل لي أنا عديمة القدرة التي لا أعطي أياً من أشيائي للابس القباء والارخالق[١٧] ذاك ـ أعني ذلك اليهودي الذي يبدو كالجرذي ـ أقول مهما يكن فهؤلاء مسلمون ، ولا يرضى الله بأن أصب خبز مسلم إلى جيب كافر . فتأمل بالله عليك ، هذا جزاؤه! أريد أن أعمل ثواباً فأصير كباباً! حقاً لو أن المرء غمس كل كراعه في العسل ووضعها في فم هؤلاء الذين ليس عندهم شيء ، يعضونها أيضاً في الآخر .

لم يعد بائع الكاسات والأكواز يطيق صبراً ، فقطع كلامها على هذا النحو:

ـ طيب يا أختاه، أحذيتك القديمة هذه لا تنفعني، دعيها وليأت ذلك اليهودي الذي كالجرذي فيشتريها منك بسعر جيد.

اهتزت هاجر، التي ارتبكت. هزت رأسها وكتفها، ورققت ـ وهي تضحك ـ صوتها قائلة:

ـ واه واه! كم أنفه ضخم! لم يكن قصدي أنت أيها الأخ، قصدت هذا الذي، ليمت ذليلاً، أحرق فؤادي منذ الأمس حتى اليوم.

ـ يا أختاه، صحيح أننا نتعامل منذ الصبح حتى المساء مع ألف نوع من الناس، ولكننا لم نأكل مخّ حمار[١٨]! إنك تقولين للباب كي يسمع الجدار، أليس كذلك؟.. فنحن أولاد هذه الأزقة أيضاً..

ـ لا يا أخ. لا تحس انزعاجاً. ماذا أفعل إذن، فأنا أيضاً قلبي مملوء. أصلاً، الله أيضاً جاء بهذه النكبات لنا نحن الفقراء. واه واه، ليُبعد الله! أين يبيع هؤلاء الأعيان الملابس والأحذية العتيقة عند الأبواب؟ إما أنهم يأخذونها إلى السوق فيستبدلونها أو أنهم يعطونها لخدمهم وينقصون قيمتها من أجورهم في رأس الشهر. إنهم لا يلقون حتى قشور باذنجانهم! هم يعرفون. لو أنهم لم يكونوا هكذا، ما كانوا ليصيروا أثرياء! لو كان هؤلاء، أفكانوا أصلاً يلقون جانباً كسر خبزهم؟ سرعان ما يجففونه ويدقونه، يضيفونه

إلى الكتليت؟ المتليت؟ ماذا؟ . . لا أدري . . أو إلى ألف طعام آخر . الله يعلم أي طعم يصير له . أنا شخصياً لم يصل إلى شفتيّ بعد! لا تتحقق رغبتي في أي وقت .

ـ طيب يا أختاه! كل هذه بكم؟

ـ ما أدراني . أنت تعرف و ربك! أنا لا علم لي . تعال و عاملني بطريقة حضرة العباس[١٩] .

ـ لماذا تُدخلين حضرة العباس بيننا؟ أنا أخ مسلم ، وأنت أيضاً أختي . نتعامل فيما بيننا . ما من مجال لمثل هذا الكلام بعد .

ـ ولكن ماذا أقول أنا ، قل أنت بكم تشتري . . ولكن حضرة العبـ . . .

ـ أنا أقول الخلاصة ، لو أردت كاسات وأكوازاً سأعطيك كوزاً للمخلل وكاسي ماء . وإن أردت مالاً أعطيك أربعة تومانات ونصف .

ـ لا أريد كاسات وأكوازاً . ولكن لماذا أربعة تومانات ونصف؟ كل هذه الأحذية .

ـ الأحذية لك . أشتري الجاكتتين بأربعة تومانات .

كانت الشمس قد وصلت حاشية السطح عندما تمت المعاملة .

أعطى بائع الكاسات والأكواز هاجر أربعة تومانات وستة قرانات، وحمل حمله على كتفه، وانطلق في منعطفات الأزقة الخلفية.

* * *

في أول المغرب غداً، كنست هاجر سطح البيت ورشته بالماء، أعدت الفرش وأخذت تلف في حواشي باحة البيت بانتظار زوجها الذي كان مقرراً أن يأتي الليلة، وكانت تمر بالمطبخ أيضاً أحياناً.

في البيت، حيث كانت هاجر وزوجها يعيشان، كان ثمة مستأجران آخران أيضاً، كان أحدهما سائقاً قاطعاً للصحراء، يسافر دوماً ويترك، عند غيابه، زوجته مع ابنه الوحيد حزّين، وكان الآخر صانع كَيوات في الأربعين ونيف من عمره يعيش وحيداً، ولم يكن عنده أكثر من غرفة واحدة مستأجرة.

من الغرف السبع للبيت المستأجر كانت لهما غرفتان، ويقيم السائق وزوجته في غرفتين، وقد وقعت غرفتان أخريان في حال خراب.

كان السيد عباس السائق قد ذهب منذ أسبوع إلى شيراز، ومرة أخرى انفقدت زوجته، محترم. كانت تقول قبلاً إنها تريد أن تذهب إلى بيت أمها بضعة أيام، ولكن من كان يصدق؟

وكان الأوسطى رجب علي صانع الكَيوات مستأجراً قديما

جداً، ولربما صار له في هذا البيت شيئاً فشيئاً حق شفعة. كان حانوته في رأس الزقاق. لم يكن يضايق نفسه كثيراً. قليلاً ما كان يتحرك. ففيما عدا مرة في الأسبوع يذهب فيها إلى السوق من أجل شراء سيورٍ جلدية وأشرطة حافات ولوازم عمله الأخرى، كان على الدوام إما في حانوته أو ملقياً في زاوية غرفته، يشرب الشاي ويقرأ حافظاً[٢٠].

لم يكن عنده شغل رائج، ولكنه لم يكن يقتر على نفسه قط، وفي أغلب الأحيان كانت قدره الصغيرة تبقبق فوق كانونه الفحمي، قرب عتبة باب الغرفة.

كان قد ترك زوجته ـ التي لم تكن مستعدة أن تأتي من القرية إلى المدينة ـ منذ السنة الأولى، وفي الأصياف فقط إذ يمر بالقرية مع بساط كَيواته، كان يجدد عهده معها.

عندما جاء إلى المدينة، لم يكن يعرف القراءة والكتابة كثيراً. ذهب سنة أو اثنتين إلى مدرسة محو الأمية، ثم بقراءة الجرائد التي كان أحد زبائنه من باعة الصحف يجلبها، انطلق وصار شيئاً فشيئاً يقرأ حسناً. وكان يفهم في السياسة قليلاً أيضاً، ويعرف صحف هذه السنوات الأخيرة اليمينية واليسارية. في البدء بمعونة زبونه بائع الصحف، ولكن تعلم أخيراً: يطبق كتابات الجريدة مع حياته ويستنتج. كان هو نفسه يسارياً. لأنه كان صانع كَيوات ـ كان

هو نفسه يفسر على هذا النحو ـ لكن فؤاده لم يكن يطاوعه على ترك حافظ وإشغال نفسه في أوقات بطالته بأعمال أخرى. ولقد تكاسل هو نفسه أيضاً من هذه البطالة. وكلما كان صاحبه بائع الصحف يعنفه بصوته المشروخ الغليظ، كان يتعهد قولاً بأن يسجل اسمه الأسبوع التالي في النقابة.

أظلمت الدنيا. وجاء الأوسطى رجب علي أيضاً. لم يظهر عنايت بعد. مضت هاجر كي تنير المصباح. خلعت حذاءها. دخلت الغرفة. سحبت عود الكبريت، وعندما أرادت أن ترفع زجاجة المصباح، دفعتها صبغة أظفار يدها ـ في ضوء الكبريت ـ التي كانت تبرق أمام زجاجة المصباح، إلى التفكير فجأة.

ـ لو أن عنايت سأل ماذا أقول له؟.. عسى ألا ينزعج؟!

انتهى عود الكبريت. أحرق رؤوس أصابعها وقطع سلسلة أفكارها. سحبت عود كبريت آخر، وفيما هي توقد المصباح قالت لنفسها:

ـ آهه.. طيب، إنه، على أية حال، رجل أيضاً..

صوّت الباب وارتجّ وراء ظهر أحد ما. وصل وقع أقدام عنايت المتعبة والثقيلة. لفت هاجر يديها تحت شادر الصلاة، وذهبت حتى باب الغرفة في استقبال زوجها: حيث وبلا مقدمة سألت:

ـ.. حقاً يا عنايت! لم لا تضع في بساطك أصباغ أظفار؟

ـ بسم الله الرحمن الرحيم! ماذا يريد فؤادك بعد؟ بدل أن تأتي فتزيلي عني غبار الطريق وتسألي أي تراب حثوت على رأسي في نياوران في هذه البضعة الأيام، تنفثين هواء قلبك؟

ـ أوه! مرة أخرى أردنا أن نسأله شيئاً.. طيب، ماذا فعلت في نياوران؟

ـ لا شيء. رقصة الموت! أكلت من الجيب ثلاثة أيام. جرجرت صندوقي الزجاجي واهناً. نمت الليالي في المسجد وبعت زوج مدقة لحم. هذا كل شيء.

ـ با.. رك الـ.. له! ولكن لم تحمل غصة؟ ما الذي يمكن عمله؟ فأخيراً الله كبير.

ـ نعم الله كبير. وكبير جداً أيضاً! كأقوال زوجتي البليغة... ولكن ما الذي يجب فعله إذ دخلنا صغير!

ـ أيها الرجل العاقل لماذا تكفر؟ ماذا الله كبير مثل هوسي؟ مرة أخرى غلطنا فأردنا منك شيئاً؟ مرة أخرى يريد أن يقول ويهزأ حتى القيامة. أنا أيضاً آدمية! قلبي يشتهي.. إما أن تعمي عيني وإما..

ـ وهل أعطوك دماغ حمار تتبلغين به؟ فكري وانظري ما مقدار كل ما أملك ولا أملك، وعندئذ ليكن لك مثل هذا الهوس. فأنا لست جالساً على كنز قارون.

ـ أوهوه، أوه! أنت أيضاً! كم هو ثمنه حتى تعدد لي، على هذا النحو، أصول الدين؟!

ـ كم؟ قولي أنت.

ـ أربعة وعشرون هزاراً!

ـ أربعة وعشرون هزاراً؟ من أين صرت عارفة بسعر المانيكور؟

أخرجت هاجر يديها، اللتين كانتا ملفوفتين بالشادر، وقالت بابتسامة مفعمة بالسرور والرجاء:

ـ اشتريت واحداً أمس!

ـ اشتريت؟! ماذا؟ بفلوس من؟ ها؟! أنا وقفت منذ الصباح حتى الظهر عند سيارات شمرون[٢١] حتى يرق فؤاد سائق ما فيأتي بي إلى المدينة مجاناً، وعندئذ ذهبت أنت فاشتريت مانيكور بأربعة وعشرين هزاراً كي تستعرضي نفسك أمام غير محرم؟.. أربعة وعشرين هزاراً.. من أين جئت بالفلوس؟ من فاسقك..؟

عندما وصل عنايت إلى هنا ابتلع كلامه. احمر وجهه قليلاً وأضاف بيؤس:

ـ لا إله إلا الله..

ـ اخجل يا عديم الغيرة! لتكسر ظهرك صلواتك تلك التي تتلوها! وهل تريد مرة أخرى أن تثير كفري؟ طيب! كانت تلك فلوسي فاشتريت! ما تريد من روحي؟

ـ غلطت فاشتريت! ولا تستحي! وهل جئت بالفلوس من قبر أبيك؟ هيا قولي من أين جئت بالفلوس؟

طفت على السطح صورة هاجر الأخرى. ألقت الشادر جانباً. تقافز الدم إلى وجنتيها وصرخت:

ـ ما شأنك؟!

ـ ما شأني؟.. هه! هه! ما شأنك، ها؟ يا مُرَيئة تافهة، سأجعلك تفهمين الآن و..

تولاها باللكمات والرفسات.

ـ آآخ.. إلهي.. واي.. أنقذوني.. متّ..

وضع الأوسطى رجب علي حافظاً جانباً. مد خطوة من فوق بساط السماور فأوصل نفسه. قال بضعة «يا الله»[٢٢] ات بصوت عال ودخل. رفع عنايت، مرتبكاً، شادر هاجر من زاوية الغرفة ووضعه على رأسها ووقف جانباً.

ـ ماذا جرى مرة أخرى؟.. أهه! أيها الرجل العاقل، هذه الأمور فيها مسؤولية. الله لا يفرح.

ـ وحياتك العزيزة لو لم يكن من أجل خاطرك لمردتها وهرستها. المريئة السليطة تقف في وجهي . . .

هز الأوسطى رجب علي رأسه وتنهد. مد خطوة إلى أمام، تناول يد عنايت وفيما هو يجره إلى خارج الغرفة قال:

ـ تعال . . تعال نذهب إلى غرفتي اشرب شاياً ترتاح . . واضح أن شغلك في هذه البضعة الأيام في نياورون(٢٣) كان كاسداً . . لا؟!

بعد ربع ساعة جاء الأوسطى رجب علي وأخذ هاجر أيضاً إلى غرفته. صب شاياً وضعه أمامهما.

ـ حسناً! أتريدان النزول عن حمار الشيطان أم أنكما تفكران بالدعوى والشجار بعد؟

انفجرت هاجر وأسلمت نفسها للبكاء.

ـ لماذا تبكين؟ زوجك أيضاً غير مقصّر. ماذا يفعل؟ قلبه مملوء من حياته الكلبية! إن لم يفرغ همه على رأسك، فعلى رأس من يفرغه؟

أسرع عنايت يقاطعه، وقال بلهجة هادئة ولكن قاطعة وبإيمان:

ـ ما تقول يا أوسطى؟ لنفرض أنني لا أقول شيئاً. ولكن هذه المريئة قليلة العقل لتكسر الصلاةُ ظهرها! إنها تتوضأ، بهذه الصبغة النجسة التي مسحتها على أظفارها، صلاتها باطلة! ففي هذا الوضع لا يصل الماء إلى البشرة.

ـ أهه أنت أيضاً. ليس الأظفر جزءاً من البشرة. في كل أسـبوع تقص أربعة مثاقيل زائدة من أظفارك وتلقيها جانباً. لو كانت جـزءاً من البشرة فإن قرض كل رأس دبوس منه عليه كفارة بالقدر الفلاني.

ثم أدار وجهه نحو هاجر وأضاف:

ـ ها؟! ما تقولين يا هاجر خانم؟

ـ ما أدراني أنا يا أوسطى؟ فأنـا لست غير امرأة ناقصة العقل لا أكثر. أنّى لي أن أفهم المسائل الشرعية؟

ـ ما هـذا الكلام؟ ما معنى ناقصة العقل؟ أنت التي يجب ألا تدعي زوجك يقول هذا الكلام، تجيئين فتقولينه؟ من المؤسف أنكن أيتها النساء لم تفهمن بعد. لا تعرفين قراءة الجرائد وإلا لكنت فهمت ما أقول. هذا أيضاً تقصير زوجك. ولكن لا تتوهمي أنني أدعمك بلا معنى أيضاً! فأنت لست عديمة التقصير. ففي انعدام المال هذا، لا يرضى الله أن تأخذي كل هذا المال فتشتري مانيكور.

ولكن، حسناً، ما الذي يمكن فعله؟ إن أرجلنا، في حياتنا الضيقة هذه، تتشابك ببعضها على الدوام، ونقع على بعضنا بعضاً فنتصور أن التقصير ممن نقع عليه، غير منتبهين إلى أن حياتنا هي الضيقة! وتجعل أحدنا يمسك بتلابيب الآخر. .

ـ نعم. نعم يا أوسطى تقول الحق! علمَ الله أنني كلما فرغ جيبي أدخل إلى بيتي ليلاً وكأنه سم أفعى. ولكن كلما كنت أحمل شيئاً تحت إبطي، يكون بيتي لي جنة. مع أننا بلا أطفال، ولكن في ليال مثل هذه لا أنتبه لذلك قط.

مرة أخرى أوقد الأوسطى رجب علي، تلك الليلة، سماوره، وأخيراً ذهبت هاجر أيضاً فصبت العشاء وتناول الثلاثة معاً، على سفرة واحدة، طعام العشاء.

* * *

وفي صباح الغد، حكّت هاجر صبغات أظفارها بطرف ملقطها القديم وأفرغت زجاجة الصبغة في حُفيرة. قشطت علامتها وصبت فيها قليلاً من زيت العقرب الذي لم تكن تدري متى وممن اقترضته، ووضعتها على الرف.

هوامش

(١) حذاء وجهه نسيجي ونعله من جلد مدبوغ دباغة طبيعية.

(٢) جمع تومان: وحدة نقد ألغيت وبقي اسمها يطلق على العشرة ريالات.

(٣) محلة تقع شمالي طهران، كانت منطقة بساتين.

(٤) منطقة تقع شمالي طهران، كانت منطقة بساتين أيضاً، ولبرودة هوائها كانت مصيفا للطهرانيين ومقرا للقصر الصيفي للشاه.

(٥) = بدون أطفال.

(٦) = أغتابه.

(٧) يكون شادر الصلاة في العادة أبيض مورداً.

(٨) منطقة كانت ذات يوم قلب طهران النابض لقربها من البازار وقصر كلستان الملكي ومدرسة (كلية في الواقع) دار الفنون من ناحية، ومن شارع لاله زار - حيث المقاهي والملاهي، وشارع فردوسي - حيث السفارات، من ناحية أخرى.

(٩) الهزار والقران واحد، هما وحدة نقد الغيتا وبقي اسمهما يطلق على الريال الحالي.

(١٠) محافظة شمالي غربي إيران، مشهورة بصناعتها الفخارية.

(١١) غليون بدائي.

(١٢) «لائحة» استنزال لعنات على مخالفي الآداب العامة والوصايا الدينية.

(١٣) مثنّى «منّ»: وحدة وزن تساوي ثلاثة كيلوغرامات.

(١٤) مثنى «سير»: وحدة وزن تساوي ٧٥ غراماً تقريباً.

(١٥) الكرسي هو وسيلة التدفئة الإيرانية التقليدية، ولحافه هو الذي يتغطى به ويجلس أو ينام تحته أهل الدار.

(١٦) = شاهي. مرت سابقاً.

(١٧) جاكتة، أو صدرة، محشوة قطناً أو صوفاً، بدلاً عن البطانة الاعتيادية.

(١٨) آكل مخ الحمار = بليد، أحمق.

(١٩) معاملة «حضرة العباس» هي المعاملة بنية صافية.

(٢٠) هو «الحافظ» شمس الدين محمد (نحو ١٣٢٠-١٣٨٩) الشيرازي، أشهر الشعراء الغنائيين الفرس وأكثرهم شعبية، لا يكاد بيت إيراني يخلو من ديوانه، بل ويستفتح به.

(٢١) هي شمران بلهجة أهل طهران.

(٢٢) يقولها الرجل الداخل بيتاً لتنبيه نسائه كي يتحجبن.

(٢٣) وهذه نياوران بلهجة أهل طهران.

الحياة التي هربت

كانت الشمس تسخن دماغ الإنسان. كان الشارع المجاور للشط قد أصبح خالياً. يتوقف الرواح والمجيء. وسط بساتين نخيل الجانب الآخر من الشط، يبدو أن ضباباً ينتشر.

صفرت باخرة كبيرة كانت ترسو عند إدارة الجمرك. كان صفيراً قصيراً جداً، ضاع وسط حرارة جو عصر خرمشهر. كما لو أن إدامته قطعت بمقص.

كان يتم تحميل زورق كبير شراعي. كان الحمالون يحملون أكياس الرز على أكتافهم ويعبرون فوق ألواح ثبتت ، بدلاً من الجسر، على حافة الزورق، ويكدسون الأكياس في آخر الزورق على بعضها، كان ماء الشط قد غاض والجسر المؤقت الضيق، الذي ينبغي أن يمر فوقه، منحدراً جداً.

كان الحمالون خمسة، وكان إثنان آخران على الضفة يضعون أكياس الرز على أكتافهم، كما كان ثمة شخصان يتناولان الأكياس في زورق ويصفّونها في زاوية. يعملون سريعاً. كان الحمل كثيراً. ربما سيستمر حتى المغرب.

وصل حمال آخر. لم يكن شاباً جداً. كانت رافعة حمله[1] ساقطة من وراء على ظهره، وكان يمشي رخواً كسولاً. كان يضع قبعة ذات حافة. لم تكن لحيته محلوقة. يضع إحدى يديه في جيبه، ويبقي بالأخرى حبل حمله على كتفه.

لم يكن أحد مخالفاً، تبادلوا فيما بينهم بضع كلمات وتقرر أن يساعد هو أيضا. وضع حبله جانباً، سحب قبعته إلى أدنى. زحزح الحمل على ظهره وانحنى تحت أيدي ذينك الشخصين اللذين كانا يقفان على الحمل. كانت عيناه تبرقان.

لم تكن الأكياس تختلف عن بعضها. وضعوا واحدًا على كتفه. عندما انحنى وتهيأ لتلقي الحمل، لم يكن يفكر بشيء قط. لقد حصل على عمل. كان هذا مهماً.

مد بضع خطى على نحو عادي، ولكنه لم يكن بلغ نصف الشارع عندما ارتجفت ركبتاه فجأة. انتظر بضع ثوان ثم انطلق. كانت خطاه اعتيادية. عندما كان يسير بشكل عادي لم يكن الأمر ليختلف بالنسبة له.

يرتفع القدمان بذاتهما ويستقران على الأرض بمفردهما. ولكن عندما يوضع الكيس على كتفه كأن القضية تختلف. فقبل أن ترتفع قدماه عن الأرض تعودان تبحثان عن موضع وتستقران على الأرض. لم يأخذ الأمر أولاً على محمل الجد، ولكن لا: كان ذلك حقاً على هذا النحو. لم يكن الأمر بيده. حاول كثيراً. ولكن بقيت

ساقاه ترتجفان. أراد لحظة واحدة أن يفكر أنه ربما لم يكن قادراً على حمل ذلك الحمل. ولكنه سرعان ما توقف عن مواصلة التفكير. كان متأكداً أن ركبته لن تنثني من الخلف. كان ينبغي أن يسعى فقط ألا ينحني من أمام وألا يقع الحمل على الأرض. لم يكن يدري كم يزن كيس الرز. كان الآخرون ينقلون بيسر. كما كانوا يمضون سريعاً. ولكن ساقيه ترتجفان. ليس ثمة مشكلة، يستطيع أن يحاول ولا يدع ساقيه تنحنيان. ولكن ساقيه كانتا ترتجفان. لقد أخذ حتى رسغ قدمه يرتجف. أغمض عينه لحظة ولقّن نفسه. رأى أنه يمكن أن يتعثر. فتح عينيه سريعاً. لم يبق شيء للوصول إلى ساحل الشط. ربما كان كل الطريق من عند تل الحمل حتى ساحل الشط لا يزيد عن أربعين خطوة. كانت الأحمال مصفوفة على الجانب الآخر من رصيف المشاة، عند الجدار. كان الآن في وسط الشارع، والجيد في الأمر أن سيارة لم تكن لتعبر. كان الشارع خالياً. كان الآخرون مشغولين بشؤونهم. ولقد سبقوه بدورة أيضاً، كان يجتاز وسط الشارع لتوه. كان يحاول أن يسير أسرع. لم يكن ممكناً. أراد أن يمنع ارتجاف ساقيه. كان كل همه ينصرف إلى هذا. لم يكن يفكر في أن يصل ساحل الشط سريعاً وأن يعبر الجسر الضيق وينزل الحمل على أرضية الزورق. كان الآخرون الذين يمدون خطاهم بحرص يفكرون في ذلك، أما هو فكان لا يفكر إلا في ألا ترتجف ساقاه وتنثني ركبتاه. يجب ألا يسقط الحمل أرضاً.

كان قد وصل ساحل الشط، وقد انتقع عرقاً. كانت القبعة

تضيق على رأسه. كما لو أن رأسه كبير. توجع دماغه. كان العرق يسيل من زيقه، ويحسّ أنه يذوب. كان القميص قد انتقع تحت حزامه وأخذ يلتصق ببدنه. كانت ساقاه لا تزالان ترتجفان. ربما كان قد مضى يومان دون أن يحمل حملاً ثقيلاً. ولكن الحمل لم يكن ثقيلاً. مضى يومان دون أن يحصل على عمل. لم يكن هذا مهماً. إن هؤلاء السبعة الأشخاص لابد كانوا الآن يراقبونه. لابد أنهم تركوا شغلهم وراحوا يتفرجون عليه و يتغامزون فيما بينهم. لابد أن ثلاثة أشخاص مروا مرة أخرى من جانبه ومضوا كي يأخذوا حملاً، ولكنه كان واثقاً من أن هؤلاء جميعاً قد توقفوا في زاوية وراحوا ينظرون إليه ويتغامزون. يجب ألا يسقط الحمل أرضاً. حتى لو أنه سيموت ينبغي أن يوصل الحمل. ما الذي ينقصه عن الآخرين؟ لم يكن حتى يرفع رأسه. كان يخاف. كان جبينه مضمخاً عرقاً. لم يكن الآخرون قد عرقوا على هذا النحو، لم يكن يريد أن ينظر إلى أولئك الذين يضحكون عليه ويتغامزون. كان يريد أن يقوم بعمله. لم يكن يريد أن يسقط الحمل أرضا. كان يريد ألا يدع ساقيه ترتجفان، ولكن ساقيه كانتا ترتجفان. وقف لحظة عند ساحل الشط، مرة أخرى كانت ساقه ترتجف. أوشكت ساقه أن تنثني وأن يقع الحمل في الشط.

سحب نفسه جانباً على عجل. تأنى لحظة أخرى. مر شخصان آخران من جانبه، وضعا خطواتهما المطمئنة المحسوبة على اللوح ونزلا واحداً بعد الآخر. كان اللوح يتلوى تحت أقدامهما

ويرتفع ثم ينخفض. ولكنهما مرا من دون اهتمام. يجب أن يذهب هو أيضا. إذ ما الذي جرى؟ استعاد اطمئنانه ومد قدماً إلى أمام، وضع خطوته الأولى على اللوح. ولكنه ارتعب فجأة. سقط نظره إلى أسفل. كانت ركبته ترتجف بشدة. لم يكن يحس، ولكنه كان يرى. وكأن رسغه قد راح ضحية الرجفة أيضا. ارتعب، أوشكت ركبته أن تنثني فيسقط الحمل في الشط. بقي لحظة بلا عزم. لم يكن يدري ما يفعل. أراد أن يرفع قدمه الثانية أيضا ويمدها إلى أمام. وكان مستعداً حتى أن يخطو خطوة قصيرة. كان مستعداً حتى أن يرمي قدمه الثانية إلى أمام. ولكن لم يكن ميسوراً، ولقد سعى أيضا ولكنه رأى أنه لو رفع قدمه الثانية عن الأرض ولو لحظة واحدة فسترتجف تلك أكثر، وستنثني ركبته وسينقلب هو ويغرق كيس الرز في الشط، فأنهى عدم تصميمه. سحب قدمه ثانية إلى وراء وذهب جانباً مرة أخرى.

كان الآخرون يمرون ثانية، ويعبرون أيضاً - باطمئنان وبدون اهتمام - من فوق اللوح الضيق الذي يتقوس تحت أقدامهم، بسرعة، ويلقون الحمل إلى داخل الزورق ويعودون. كان ذلك عادياً جداً بالنسبة لهم.

لم يكن أحد ينبس بحرف. عندما كان قد وضع قدمه على اللوح وبقي متردداً، لم يعرف كم استغرق ذلك، ولكنه كان يحس أن الناس في الزورق ووراء ظهره، في الشارع، ينتظرون عبوره كي يعبروا هم أيضاً. ولكن لا، كان متأكداً أنهم توقفوا. وضعوا

أعمالهم جانباً وراحوا يسخرون منه ويتغامزون. مسح عرق جبينه بكمّ جاكتته. ابتل كمّه حتى الانتقاع. رفع رأسه وبحث عن شيء في البعيد، بين نخيل الطرف الآخر من النهر، لم تعد عيناه تبرقان. ضاع بريقهما، وراء نظراته بين النخيل. ثقل رأسه ومرة أخرى تدلى ساقطاً. ربما مرت دقيقة واحدة. كانت ساقه لا تزال ترتجف. التفت. كان الآخرون لا يزالون يروحون ويجيئون سراعاً. حشد هو أيضاً قوته ومد خطوة أوسع. قطع الخطوتين أو الثلاث إلى حافة الشط سريعاً. كانت ساقه لا تزال ترتجف. ولكن لم يعد هذا مهماً بعد. كان قد اطمأن إلى أن ركبته لن تنثني من أمام. بالسرعة ذاتها جاء إلى ما فوق اللوح. كان قد أغمض عينه تقريباً. لم يغمضها، ولكنه لم يكن يريد أن يعرف على مَ وضع قدمه. تقدم ثلاث خطوات. كان قد أبدى جرأة فائقة. فجأة راح يفكر في هذا. كان الآن فوق اللوح. مرة أخرى بدأت ساقاه ترتجفان وكانتا ترتجفان شديداً أيضاً. لم يكن بلغ بعد منتصف اللوح حيث يتقوس اللوح ويرتفع ويهبط. ولكن ساقه كانت ترتجف. كما لو أن الجسر المؤقت أيضاً كان يرتجف تحت قدميه. مرة أخرى انتقع عرقاً. كان العرق يتصبب من جبينه. ركبه الخوف دفعة واحدة. تصور أن ركبتيه ستنثنيان الآن من أمام وستسقط قدماه من جانبي اللوح وينقلب كيس الرز في الشط. وكان ذلك يقع على هذا النحو أيضاً. لم يدر ما يفعل. كان الآخرون معطلين على هذا الجانب من اللوح وذاك، بسببه. لم يكن أحد ينطق حرفاً. من شدة ما ضغط يديه على بطنه، كانت عظام أصابعه قد تألمت. كان العرق يتصبب من تحت حنجرته وزيقه

ويسقط على اللوح فينتشر. كان اللوح يتقوس. ولكن لا، كان جسده والحمل الثقيل على كتفه هما ما يتقوسان على اللوح الضيق. وذلك ما جرى. أوشك أن يسقط في الشط من الجهة اليمنى. فك يديه على عجل عن بعضهما وحافظ على توازنه بعد لأي. كان طول اللوح يزيد عن سبع خطوات. لم يعد ممكناً التوقف هناك. تعطل الآخرون كثيراً. لابد أنهم ضحكوا عليه كثيراً. ذاب كل ما كان عنده من طاقة، وتصبب بهيئة عرق على ذلك اللوح اللعين فانتشر. ولكن كيف يستدير؟ كم سيضحكون عليه. عندئذ متى سيحصل على عمل؟ منذ يومين لم يحصل على عمل. كأنما بدأ الجسر المؤقت بالاضطراب أيضاً. كان يهرب من تحت قدميه. آه، إنه يموت! كان قد حبس نفسه في صدره. تدلى رأسه إلى أسفل. انشقت عينه فزعاً وضعفاً. خشي أن تنفر كرتا عينيه من حدقتيهما المشقوقتين وتسقطا في النهر - أو أن تسقطا مثل نقاط عرق صدره على اللوح، فوق هذا الجسر اللعين، وتنتشرا هكذا. خاف كثيراً، فجأة أغمض عينيه، كان رأسه يوجعه. امتلأت الظلمة داخل عينيه حمرة. أوشك أن ينقلب. فتح عينيه سريعاً. جعل عينيه مشقوقتين. لم يكن صحيحاً أن يعطل الناس على هذا النحو. ماذا سيقولون له؟ ولكن لم لا يقول أحد شيئاً؟ لابد أنهم واقفون جانباً، يدخنون السجائر ويضحكون عليه. فلماذا إذن لا يأتي صوت ضحكهم؟ الملاعين! كان قد حافظ على تعادله بمشقة. شبك يديه مرة أخرى تحت بطنه. ضغطهما على بعضهما وتراجع ليطوي مجدداً الخطوتين أو الثلاث التي كان تقدمها على اللوح ووضع قدمه على التربة الصلبة للرصيف جنب الشط.

عندئذ أحس أن ساقيه ترتجفان . وداخل فؤاده يرتجف . حتى أمعاؤه أحسها ترتجف . يجب ألا يضع الحمل أرضاً . مضى على بطء إلى تل أكياس الرز . كان العرق يتصبب من زيقه ومن النتوء تحت حنجرته إلى الأرض وينتشر بين تراب ساحل الشط الساخن .

رفعوا كيس الرز بتأنٍ عن كتفه . كان قد بقي منحنياً كما كان ، منطوياً . كما لو أنه ، مع آخر قطرة عرق سقطت من زيقه على الأرض وغاصت في التراب ، قد سقطت طاقته أيضاً وغاصت في التراب الساخن جنب الشط .

قصّت بقية صفارة قصيرة منكرة لباخرة ما الهواء . توقف زورق بمحرك تحت رصيف الجمرك وانقطع نفسه . بين نخيل الجانب الثاني للشط ، كان كما لو أن ضباباً مخلوطاً بالتراب والغبار يتموج وكانت عين الإنسان الذي هربت منه الحياة ضائعة فيه أيضاً .

هوامش

(١) حشية سميكة ، كالصدرة خياطة ، لها حافة من أسفل كي يستقر عليها الحمل .

وسواس

صعد غلام علي خان متلصصاً درجات سلم الحمام. وقف قليلاً وجدد أنفاسه وعاد يصعد.

لم يكن خطا خطوتين بعد عندما توقف مرة أخرى. وضع أصبعاً على جبينه، ضغط صدغيه قليلاً ثم قطب حاجبيه ولعن الشيطان بضع مرات.

كان قد فكر على نحو صحيح. يتذكر الآن أنه عندما أراد أن يغتسل كان نسي أن يستبرئ فتأكد من أنه الآن لا غسله صحيح ولا هو تطهّر. وعدا عن ذلك فقد تنجس لباسه أيضاً وعليه أن يستبدله دون أن يتسخ.

بقي بضع دقائق متردداً. أراد ألا يصدق: «ربما أخطأت. .» ولكن لا، كان ذلك صحيحاً. تدل كل القرائن على ذلك. أراد أن يعود فيذهب إلى الحمام ثانية، ولكنه استحى من ناحية ومن ناحية

أخرى فلأنه صلى ظهره في وقتها وأن لديه وقتاً طويلاً حتى صلاة المغرب يستطيع أن يجدد غسله، فقد تكاسل ولم يعد.

لعن الشيطان بضع مرات أخرى، زحزح صرة الحمام تحت إبطه، وسحب عباءته مرة أخرى فوقها وانطلق متلصصاً مرة أخرى.

* * *

كانت الشمس قد لونت زجاج سقف الحمام بالأحمر عندما كان غلام علي خان قد وضع أصبعيه في أذنيه، في الخزينة[1]، وراح يغتسل قربة إلى الله.

كان يحاول ألا ينسى شيئاً من المقدمات والمقارنات. فرك ثقبي أذنيه بيديه، ومر على سرته. استبرى ثم نوى ثم بدأ: مرة بنية الجهة اليمنى، ومرة بنية الجهة اليسرى،.. وإذا! اللعنة على الشيطان!.. انفتح شلال دم من أنفه.

أمسك بأنفه. وخوض ماء الخزينة حتى انمحى لون الدم. ثم خرج من الخزينة مضطرباً و فقد الوعي في زاوية ما.

كان بيته قريباً. أرسل أوسطى الحمام في طلب ابنه. جففوه بإزاره وقطيفته[2]. قطعوا رعافه، علي أي نحو كان، وأخرجوه من الحمام.

كان قد انصرم من الليل ساعتان عندما عاد إليه وعيه. نهض فجلس وسأل زوجته عن الوقائع. ولكنها لم تكن قد بدأت عندما تذكر هو كل شيء. أرسل زوجته كي تهيئ صرة الحمام ولبس هو لباسه على عجل وانطلق.

كان حمام حارتهم لابد قد أغلق الآن. و إن لم كن مغلقاً فقد كان يستحي حقاً أن يذهب إلى هناك مرة أخرى. لقد لوث اليوم بالدم كل جهاز صاحب الحمام المسكين. اضطر أن ينطلق. اجتاز زقاقين أو ثلاثة حتى وجد نفسه وسط سوق صغيرة. كان مصباح دهليز حمام السويق يخفق أدنى السلم. فيظهر الباب والجدار أكثر كدراً مما هما عليه.

هبط غلام علي خان، مسروراً لأن الحمام لم يكن أغلق بعد، السلالم. كان آخر الدلاكين المناوبين في الحمام يلملم بساطه: يعقد الإزارات المبلولة مع بعضها فيعلقها على الجدران وفوق الأبواب. أو يطوي القطيفات المستعملة، ويضع النعال جانباً ويوشك أن يطفئ المصباح.

لم يكن غلام علي خان قد دخل حتى سمع صوته:

ـ أُغلق الحمام يا سيد.

ـ سامٌ عليكم.. ليس عندي شغل كثير... مجرد أدخل في الماء وأخرج.

ـ سيدي العزيز، قلت إن الحمام مغلق. . إن للناس وقت راحة. . لا يصح أن يأتوا للحمام متى ما رغبوا. .

ـ لماذا تكدر أوقاتك، يا أخ؟ ما أن تعمر چپقاً[٣] واحداً حتى أكون خرجت. .

وخلع ملابسه، ولف حوله إزاراً ومضى.

كان داخل الحمام مظلماً. أراد ضياءً. تكاسل المدلك ومن فوق الباب أشعل سراج الحمام الشحمي الوحيد و أعطاه إياه بيده.

فتح غلام علي خان باب الحمام الحار. قال بسم الله ودخل.

نظر خائفاً إلى الظل الكبير والمرتعش لرأسه، الذي امتد حتى وسط قباب سقف الحمام، وغرق في التفكير. قال بسم الله أخرى بصوت أعلى وأوصل نفسه إلى سلالم الخزينة. وضع السراج الشحمي أعلى السلالم، على حافة حجر الخزينة. مضمض قبضة ماء. و ألقى قبضة أخرى على وجهه. وبقبضة ماء أو قبضتين أخريين غسل قدميه وغاص في الخزينة.

كانت الخزينة مملوءة حتى حافة الحجر. كان ماءً ساخناً جيدا. فرك بدنه بالكيس الخاص. كان الماء يتحرك ويندلق عن حافة الحجر فيهز السراج الشحمي الذي كان حيث وضعه. كانت شعلة السراج تنوس وتغير ظلال الجدار.

كان غلام علي خان يدرك هذا، ولكنه يظن أن الجن يأتون ويروحون فيضطرب الهواء ويهز الشعلة.

انتظر بضع دقائق. لم يأت صوت. قال بسم الله بصوت مرتفع.. وسكتت شعلة السراج.

شغل فكره على أي نحو كان. نسي الخوف والظلمة. فرك بدنه مرتين أو ثلاثاً أخرى، وغاص تحت الماء. ابتهج. تحت الماء، ضغط قدميه على أرضية الخزينة وأبقى نفسه، خفيفاً بطيئاً، ثانيتين أو ثلاثاً تحت الماء. ثم أخرج رأسه من الماء.

فجأة خاف. كان كل مكان قد أظلم. فرك عينيه. إهه! كما لو أن رأسه ووجهه ويده تدهنت. خاف أكثر. ونادى على المدلك، بصراخ مخيف، مرتين أو ثلاثاً.

دخل المدلك مضطرباً. سأل أحدهما الآخر في وقت واحد متعجبين:

- ماذا جرى للسراج إذن؟!.. وبقي كلاهما من دون جواب.

عاد الدلاك وجلب مصباحاً آخر.

لم يعثر على السراج، ولكن شحم السراج كان يتماوج فوق ماء الخزينة. وقد تدهن رأس غلام علي خان وصدره.

أطلق المدلك بضع شتائم علي صاحب الحمام، وقال غلام

علي خان لا إله إلا الله غضباً وعجزاً، وخرج. مسح شحم السراج بالقطيفة. ارتدى ملابسه وذهب مدردماً.

* * *

في صباح الغد، قبل الأذان، كان غلام علي خان قد وضع صرته تحت أبطه وسحب عباءته فوق رأسه ومضى من جانب الزقاق متلصصاً نحو الحمام. ولم يكن معلوماً ما إذا كان يلعن الشيطان هامساً أو يوحد الله.

لم يكن قد تمكن بعد أن يؤدي غسله الواجب قربة إلى الله.

هوامش

(١) حوض ماء يكون في وسط الحمام، يشترك المستحمون بمائه.

(٢) مئزر خاص بالحمام، يكون عادة بمربعات حمراء وسوداء.

(٣) غليون بدائي لتدخين التبغ.

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠٠٩

عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

نعم. تعرفت عليه في نادي الأمريكان. كان مضى عليّ سنة وأنا أحضّر دروس اللغة، أنت تعرف كم هي مزدحمة. عندما أخذت الشهادة الثانوية، سجلت اسمي لامتحان المسابقة. ولكن، أنت تعرف بين عشرين وثلاثين ألف شخص، كيف يمكن للواحدة أن تُقْبَل؟ لهذا السبب قال أبي ادخلي صف لغة، لتنشغلي بشيء أولاً ولكي تتعلمي لساناً خارجياً أيضاً. وحينئذٍ كان هذا القدر معلم الصف. طويل القامة. حسن التركيب. شعر أشقر. أمريكي كامل. ويا لطول يديه. تغطي دفتر التكاليف بكامله. حسناً. أُعجبَ أحدنا بالأخرى. منذ البداية. وكان مؤدباً جداً أيضاً. دعاني أولاً إلى معرض رسم. ثم إلى نادي عباس آباد الجديد. هو من أولئك الذين يرسمون أجساداً بلا رؤوس، أو يضعون الألوان كومة جنب كومة، أو يرسمون وسادة باسم إنسان ويضعون قدحاً على رأسه، أو بقعتي قهوة وسط مترين من قماش. وكان قد دعا أبي وأمي أيضاً، اللذين كانا يحسان فرحاً كبيراً. ثم عاد بنا بسيارته إلى البيت. ويا للآداب! فتح باب السيارة بنفسه، ومن هذه الأعما
وفي الليل، استقامت الأمور. ثم دعاني إلى حفلة
أعيادهم. أظنه كان (يوم الشكران).



مطابع الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠٠٩

سعر النسخة داخل القطر ١٠٠ ل.س

في الأقطار العربية مايعادل ٢٠٠ ل.س